

مغاربيات الكعاك : دراسات عثمان الكعاك المغاربية

جمع وتحقيق : أحمد الحمرزني
تاريخ النشر : 2013
الناشر : وزارة الثقافة، المركز الوطني للاتصال الثقافي
مكان النشر : تونس
اللغة : العربية
الوصف المادي للوثيقة : 219 ص. ؛ 21 سم.
ردمك (ISBN): 978-9973-910-47-9
السلسلة : ذاكرة وإبداع ، ج45
الموضوع : أعمال وتراجم عثمان الكعاك
تصنيف ديوي العشري : 928
المفاتيح : عثمان الكعاك، أعمال، تراجم، أدباء تونسيين، المغربي العربي الكبير، الثقافة المغربية، تاريخ تونس، الحداثة، الحركة الاصلاحية، النهضة الأدبية والفكرية في تونس، المكتبة الوطنية التونسية، الخلدونية الرقمية، الانسانيات الرقمية.

الجمهورية التونسية
وزارة الثقافة

المركز الوطني للاتصال الثقافي

مغاربيّات الكعّاك

(دراسات عثمان الكعّاك المغاربيّة)

جمع وتحقيق

أحمد الحمروني



سلسلة "ذاكرة وابداع"

الجمهورية التونسية
وزارة الثقافة

المركز الوطني للاتصال الثقافي

سلسلة "ذاكرة وابداع"

مغاربيّات الكعّاك

(دراسات عثمان الكعّاك المغاربيّة)

جمع وتحقيق

أحمد الحمروني

تونس 2013

"ذاكرة وإبداع"

❖ سلسلة ثقافية فصلية

❖ الناشر: وزارة الثقافة - تونس

❖ منشورات المركز الوطني للاتصال الثقافي

❖ إدارة: نور الهدى الصدفي

❖ إشراف: عبد الوهاب الدخلي

❖ الكتاب: رقم 45 – خريف 2013

❖ العنوان: مغاربيّات الكعّاك

❖ جمع وتحقيق: أحمد الحمروني

❖ الطبعة الأولى: 1000 نسخة

❖ الإنجاز الطباعي: نقوش عربية – تونس 2013

❖ ر.د.م.ك: ISBN: 978-9973-910-47-9

الإخراج الفني والمتابعة: فتحي لواتي

تقديم

هذه " مغاربيّات " الكعّاك (1903/10/5 - 1976/7/15) دون غيرها من أعماله المتعدّدة والمتنوّعة ممّا يحتاج إلى أسفار ضخمة، بل هذه مختارات من مغاربيّاته بقدر ما أمكن جمعه. وهي وحدها كافية للدّلالة على مدى وعيه - هو وجيله - من أبناء تونس، مثقّفين ومناضلين، أمثال ح.ح.عبد الوهاب وس.م.زبيس (*) والفاضل بن عاشور، بالبعد المغاربي لحضارتنا وهويّتنا وتحمّسه- هو وإيّاهم - لتوحيد الجهود في مختلف المجالات، بدءا بتحرير الأوطان والعقول، لبناء صرح المغرب العربي الكبير، العريق في الحضارة والمؤتمن على تراث صقليّة ومالطة والأندلس.

إنّ المتابع لأفكار هذا الأديب المؤرّخ والباحث المحاضر في شتّى المسائل ليدرك بإعجاب وتقدير أدبيّة أسلوبه وحذقه للّغات وسعة معارفه وصفاء ذاكرته وإخلاص وطنيّته ومعاصرة تلك الأفكار لنا اليوم وغدا، تلك الأفكار التي سبقنا إلى تحقيقها، من تأريخه للعصر الحجري والبربر ولهجاتهم إلى عمله على التثقيف الجماهيري عبر الإذاعة والمكتبة المتجولّة والمحاضرات في كلّ مكان بالمجّان.

ولعلّ موسوعيته التي أقدرته على الخطابة والكتابة في أيّ موضوع ببلاغة وإفادة لم تتيسّرا لغيره كادت تثير عليه دعاة التخصّص الحريصين على دقة التوثيق الرافضين للتعميم وللحماسة والمبالغة مهما كانت الأسباب والمناسبات. ولذلك تجاهلناه في بلاده دون أن ننقده بنزاهة، بل ظلمناه ظلم ذوي القربى إلى حدّ الهزء بقدر ما ظلمنا" الزيتونيين" و" الشرقيين."

ولكنّ قدر أستاذنا عظيم في المشرق والمغرب وخاصة في الجزائر، فقد كتب وحاضر في تاريخها وأدبها وأعلامها وتردّد عليها كمن يتمنّى الموت فيها، فإذا هو يودّع الحياة، حياة المثابرة

والعطاء، في عنّابة حيث كان محاضرا وكنتُ مراسلا في الملتقى العاشر للفكر الإسلامي.

ومنذ ساعة الصلاة والتشييع في المطار وعزمي مستقرّ على عمل يعيد الاعتبار إلى هذا العالم- بكسر اللاّم وفتحها -إذا قرئ دون مسبق الأفكار حتّى جمّعت هذه" المغاربيّات "كأنفع ما يُختار.

تونس في2008/10/10

(*) جمعنا " أندلسيات زبيس" وحققناها ونشرها المركز الوطني للاتّصال الثقافي التابع لوزارة الثقافة والمحافظة على التراث ضمن سلسلة " ذاكرة و إبداع" ع21، تونس 2004.

عثمـــان الكعّـــاك

(1903 - 1976م)

حيـاتـه :

هو عثمان بن محمد بن العربي بن عثمان الكعّاك، سليل القاضي عياض الأندلسي الأصل ومهاجري الأندلس سنة 1609 م. أمّه تركيّة بنت حمدة القيزاني. ولد ببرج البكّوش ،بضاحية قمرّت، من أحواز تونس الشمالية، في 1903/10/5 ونشأ بالعاصمة (1).

أ- التكـويـن :

تعلّم في مدرسة عربية فرنسية، ثم في الصادقية حتى أحرز شهادتها. وفي الأثناء كان يجتهد في تعلم اللغات حتى حذق منها الفرنسية والألمانية والأنقليزية والإيطالية. وبسبب حادثة أصبح يقدّر اللغة والآداب العربية، ويطالعها في مكتبة أخيه عبد الرحمان بمنزل

---

(1) مصادر ترجمته مرتبة ألفبائيا :
بوذينة (محمد) : مشاهير التونسيين. – الحمامات/ تونس 2001، ص 357 – 358 ؛ بوذينة (م.) : عثمان الكعاك.– سلسلة مشاهير، الحمامات / تونس 1996، في38 ص؛ بوسنينة (محمد أنور) : عثمان الكعاك المؤرخ الباحث. –في : المجلة الصادقية، ع31، جويلية 2003، ص 36 – 42؛ بيرم التونسي (محمود) : الأبطال بالريشة والقلم.–في : جريدة الشباب (تونس)، 1937/1/1، ص 5– 6 ؛ دار الشباب والثقافة بقمرت (تونس) : الندوة الثالثة حول عثمان الكعاك.– في : جريدة الحرية (تونس) 1996/5/7، ص 15 ؛ الساحلي (حمادي) : أستاذ الجيل عثمان الكعاك/ حياته، تراثه.– في : المجلة الصادقية، ع 4، ديسمبر 1996 ، ص 75 – 83 ؛ شيخة (جمعة) : في الذكرى 18 لوفاة المرحوم عثمان الكعاك أول محافظ لدار الكتب الوطنية. في : جريدة الحرية (الملحق الثقافي) 1994/5/19، ص 2 ؛ عبد المقصود (سارّة) : حديث طويل مع الأستاذ عثمان الكعاك.– في : جريدة الصباح (تونس) 1974/9/7، ص 7 ؛ عثمان الكعاك أديب بين المؤرخين ومؤرخ بين الأدباء. –في : جريدة الصباح، 1976/8/7، ص18؛ فونتان (جان) : فهرس تاريخي للمؤلفات التونسية.– بيت الحكمة، قرطاج / تونس 1986 (مؤلفاته ومراجع عنه : ص 151–152) ؛ الكيب (نجم الدين غالب) : شخصيات من الشرق والغرب. – بيروت 1969، ص 133 – 144(استجواب) ؛ لقاء فكري حول عثمان الكعاك / الكعاك كان يروي التاريخ بأمانة ودقة. – في : جريدة الصباح، 1976/9/11، ص 18– 19 ؛ مجلة الثريا (تونس) : هل تريد أن تعرف عثمان الكعاك ؟ مارس 1946، ص10، ط 2/ نشرية دار الثقافة ابن رشيق بمناسبة تكريمه في 1971/12/17، ص 3 ؛ مجلة الندوة (تونس)، ع4، أفريل 1956، ص 53– 62، مجلة الحياة الثقافية (تونس)، ع8، جويلية –أوت 1976، ص 7–8 ؛ محفوظ (محمد) : تراجم المؤلفين التونسيين. –دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985، ج4، ص 167 – 171 (باختلاف في تاريخ ولادته إذ جعلها سنة 1900) ؛ المسعدي (محمود) : عثمان الكعاك علم من أعلام تونس الخالدين وعبقريّة فذّة من عبقرياتها.– في : جريدة العمل (تونس) 1976/7/18، ص3؛ الحمروني (أ) : الثالوث المؤرخ /سليمان مصطفى زبيس و عثمان الكعاك وحسن حسني عبد الوهاب.– في : الملحق الثقافي لجريدة الحرية 2007/11/29، ص 6؛ عبد اللطيف (محمد الصادق) : عثمان الكعاك و منزلته في التاريخ المعاصر للثقافة الوطنية.– في : الملحق الثقافي لجريدة الحرية 2008/3/20 (انظر تعقيب محمد الناصر الخالدي : تحقيقات عرضية في : الملحق الثقافي 2008/4/24، ص 7) Les Cahiers de Tunisie, n° : 95 -96, 1976, P 347-350

العائلة ومكتبتي محمد الصادق باي والشاعر محمد الشاذلي خزندار.
يقول : "... وحياتي من هذه الناحية غريبة الأطوار. فقد كنت إلى سنّ الثالثة عشرة من حياتي أحتقر اللغة العربية وآدابها وأهزأ بالحضارة العربية والتاريخ الإسلامي، وأرى أنه من العبث تعلم العربية، بل الواجب هو تعلم اللغة الفرنسية واللغة الفرنسية ليس إلاّ. وكنت أحمد الله كثيرا على أني لا أعرف شيئا من لسان العرب حتى ولو مجرد الحروف. وفي شهر ماي 1915 لمّا دخلت تركيا الحرب ضد الحلفاء كنت مارا بالموالحية وعلى رأسي شاشية مجيديّ حسب العادة، فأدركتني كوكبة من الجنود وصفعني أحدهم وبعثرني على الأرض وداس الشاشية. فمن ذلك التاريخ أقبلت على تعلم العربية وآدابها بحزم ما عليه من مزيد "..(2)

وبداية من سنة 1926 واصل دراسته الجامعية بالسربون ومعهد اللغات الشرقية والكوليج دي فرانس والمعهد التطبيقي للدراسات العليا فنال شهائدها في اللهجات العربية واللغتين الفارسية والحميرية، وأهمها الإجازة في اللغة والآداب العربية.

وفي باريس استفاد من أقطاب الاستشراق أمثال هنري ماسي (Henri Massé) ووليام مارسي (William Marçais) وجورج كولان (Georges Colin) ومينورسكي (Minorsky) . يقول : "...و رجعنا إلى دراستنا الإيرانية بمدرسة اللغات الشرقية منذ ما يزيد عن الأربعين سنة يوم سفرت لنا إيران عن محيّاها الجميل الرائع وتبدّت لنا بقدّها الرقيق الفاتن فطربنا لنبرات لغتها كما طربنا لموسيقاها. ودرسنا بعض آدابها فأميط لنا اللثام عن عالم جديد، وأقبلنا على دراسات مقارنة في اللغات الآرية من السنسكريتية إلى الفهلوية إلى اللغات الصقلبية واليونانية واللاتينية والجرمانية واللغات اللاتينية المعاصرة من إيطالية وفرنسية وإسبانية وبرتغالية. فحصلت لدينا

(2) مجلة الندوة (تونس)، أفريل1956، ص 54.

معلومات طريفة عن إيران إذ كان يستضيفنا أستاذنا الكبير العلامة المرحوم محمود قزويني خان كاتب السفارة الإيرانية بباريس في منزله بروضة مونسوري من أحياء العاصمة الفرنسية فنقضي أوقات مطولة في الدراسات الإيرانية والعربية. ثم نجتمع بأستاذنا الآخر المرحرم محمد محلاّتي خان معيد الفارسية بمدرسة اللغات الشرقية، فنتجاذب أطراف الحديث في كل ما لذّ وطاب من بحوث لغوية و أدبية وفلكلورية مقارنة. ثم كان أستاذنا هنري ماسي يعلّمنا بأسلوب آخر، وهو أسلوب اللغات الآرية المقارنة والآداب الفارسية والعربية والأوروبية المقارنة فنقضي العجب. ثم كنّا طالما نجتمع بالأستاذ مينورسكي فندرس الإيرانيات من زاوية أخرى..." (3)

وألمّ بلغات أخرى كالتركية والبرتغالية والإسبانية وحتى البربرية فأكسبته ثقافة موسوعية ومكانة علمية إلى حدّ يسمح للعاقل بالشكّ فيما يدّعيه صاحب الترجمة والتعجّب ممّا يبالغ فيه.

ب - الوظائف :

سمحت له شهائده وتكوينه بممارسة عدة وظائف بنجاح. منها تدريس التاريخ والجغرافيا بالمدرسة الخلدونية من 1924 إلى 1928 وبالمدرسة العليا للآداب واللغة العربية قرابة ربع قرن من 1928 إلى 1954 وإدارة قسمها الشرقي من 1954 إلى 1956. ومنها إدارة قسم البرامج العربية بالإذاعة التونسية من 1938 إلى1943، وإدارة القسم العربي لدار الكتب الوطنية من 1944 إلى جويلية 1956 تاريخ توليته أمانتها(4).

فهو أوّل حافظ عام لها طيلة عشر سنوات حتى بلوغه سنّ التقاعد

(3) الكعاك (ع.) : العلاقات بين تونس وإيران عبر التاريخ.– الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1972، المقدمة، ص 7.

(4) مجلة الثريا (تونس) : تعيين عثمان الكعاك كاهية مدير المكتبة العمومية.– الثريا، فيفري1944، ص4 ؛ جريدة الصباح (تونس) : تكريم ... عثمان الكعاك...بمناسبة توليه أمانة دار الكتب الوطنية.– في: الصباح، 1956/7/7، ص 3.

في جويلية 1965. وفيها عمل إلى جانب حسن حسني عبد الوهاب (1884 – 1968) وسليمان مصطفى زبيس (1913 – 2003) على تنمية الرصيد العربي الذي طمسه الاستعمار.

واستفادة من خبرته انتدبته كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار مستشارا من 1965 إلى 1967 تاريخ تكليفها إياه بمشروع الموسوعة الموسيقية، غير أنه لم ينجز.

ج- الأعمـــال :

دأب منذ سنة 1919 على نشر المقالات الأدبية والاجتماعية والتاريخية في الصحف التونسية وخاصة منها "الوزير" و"الصواب" و"لسان الشعب" و"الفجر". وفي سنة 1922 انقلب إلى نشر المقالات السياسية الناقدة لإصلاحات المقيم العام لوسيان سان (5).

كما دأب منذ سنة 1924 على إلقاء المحاضرات في مختلف المواضيع داخل البلاد وخارجها، وخاصة في الجزائر بمناسبة ملتقيات الفكر الإسلامي، وفي جامعات الرباط وطرابلس، وفي صقلية ومصر والسودان وعمّان وتركيا والكويت(6)، وفي المجمع العلمي العربي بدمشق بصفته عضوا (7).

أنتج عدّة برامج للإذاعة ثم للتلفزة التونسية، منها "من مطاوي

(5) مجلة الندوة، أفريل 1956، ص 55.

(6) من أهم المحاضرات/ المؤرخ الأستاذ عثمان الكعاك يحدثنا عن مصر.– في : جريدة الأسبوع، 1950/4/24، ص 6، عثمان الكعاك يحدثنا عن رحلته الأخيرة إلى تركيا وانطباعاته.– في : جريدة الصباح (17 حلقة من 1959/11/10 إلى 1960/1/8) ؛ مؤرخ تونس...وحافظ دار الكتب الوطنية...الكعاك يحدثنا عمّا وجده في رحلته إلى صقلية من ذخائر وآثار الفتح التونسي هناك –.في : جريدة الصباح،1959/6/1 ، ص 3 ؛ 1959/6/27 ؛ 1959/6/30 ، ص 4 ؛ عثمان الكعاك محلّ إكبار وتقدير في المشرق العربي. – في : جريدة الصباح،1963/1/5، ص 3 ؛ عثمان الكعاك يحاضر في كلية الآداب بالمغرب. –في : جريدة الصباح 1965/10/28، ص 4 ؛ الكعاك بالكويت. – : في : جريدة الصباح،1967/2/16 ، ص 4 ؛ خبر زيارة الكعاك إلى ليبيا و إلقائه محاضرات بها.– في : مجلة الإذاعة(تونس) 968/10/1، ص 23 ؛ محاضرة للأستاذ عثمان الكعاك في عين البيضاء.– في : جريدة الشعب(الجزائر) 1974/4/19 ص 5 ؛ سلسلة من المحاضرات للمؤرخ عثمان الكعاك بتلمسان.– في : جريدة الشعب،1974/5/18، ص 2 ؛ Série de conférences données par cheikh Othman El Kaâk.- in : Al Moujâhid (Algérie)19-20/5/1974, P.13.

(7) الكعاك عضو في المجمع العلمي بدمشق.– في : جريدة الصباح،1967/4/13 ص 4 ؛1967/10/15، ص4.

التاريخ" (8). وألّف عدّة كتب تفوق أربعين عنوانا، نشر منها قرابة الربع ما بين تأليف وتحقيق وترجمة واقتباس.

كما نشر من المقالات أزيد من مائة وأربعين مقالا، دون اعتبار تقسيم بعضها إلى عدّة حلقات. وهي بالعربية، وبعضها بالفرنسية.

وتبحث في الصحافة وعلم المكتبات والفلسفة وعلوم الدين والعلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والأدب واللغة والعلوم الصحيحة والفنون والتاريخ والتراجم...

أسّس سنة 1932 جمعيّة الكتّاب والمؤلّفين التونسيين مع الهادي العبيدي (1911 – 1985م) وجلال الدين النقّاش (1910 – 1989م) وعبد الرزاق كرباكة (1903 – 1945) ومحمد بردة وصالح رضا الأحمر وغيرهم (9).

د- التكريـم :

أقامت له دار الثقافة ابن رشيق بتونس يوم 1971/12/17 حفل تكريم وزّعت فيه نشريّة (10) وشارك فيه رجال الثقافة وواكبته الصحافة (11).

هـ- وفاتـــه :

توفّي –رحمه الله– في الرابعة من فجر يوم الخميس 19 رجب 1396 هـ/ 15جويلية 1976 بمدينة عنّابة بالجزائر قبل ساعات من موعد محاضرته حول " الأبعاد الروحية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية للعبادات وأهميتها لكلّ من الأمّة والفرد " في الملتقى العاشر للفكر

---

(8) حوار مع عثمان الكعاك حول حصة" من مطاوي التاريخ "التلفزية.– في : مجلة الإذاعة والتلفزة(تونس) 985/2/1، ص 10–12.

(9) العبيدي (الهادي) : من أعلام الثقافة و السياسة.– جمع البشير الشريف، وزارة الثقافة، سلسلة ذاكرة و إبداع، ع 11، تونس 2002، ص 115.

(10) من إعداد الحبيب شيبوب ومحمد بكار وإشراف خالد التلاتلي مدير الدار، بعنوان : " دار الثقافة ابن رشيق تكرم عثمان الكعاك.–ط .تونس، ديسمبر1971 ، في 24 ص مع صور.

(11) خصّه الملحق الثقافي لجريدة العمل بعدده الصادر في 1971/12/24 وفيه : الافتتاحية/ابن رشيق يكرم عثمان الكعاك، ص 3؛ زبيس (سليمان مصطفى) : صداقة لا يمحوها الدهر، ص 3؛ دي إبلزا(ميقال) : لقد جعلت مني مواطنا تونسياً، ص 3؛ الحبيب(محمد) : هو أستاذ الجيل، ص 4؛ النقّاش(جلال الدين) : فجر في الأذهان ينبوع حكمة/شعر، ص 4؛ نعمان (الهادي) : حضارة الدهر/ شعر، ص.12.

الإسلامي (12). وإثر صلاة الجنازة بمطار المكان نقل جثمانه إلى مقبرة الجلاّز بتونس مصحوبا بوفد جزائري يتقدمه السيد أحمد حماني رئيس المجلس الإسلامي الأعلى الذي ألقى كلمة تأبين مؤثرة إلى جانب كلمة الأستاذ محمود المسعدي وزير الثقافة وتناقلت الصحافة في الجزائر وتونس خبر وفاته وكلمات التأبين والتنويه والمراثي (13). ثم أقيمت له أربعينية (14).

---

(12) انظر ملخص أعماله في : الحمروني(أحمد) : الملتقى العاشر للفكر الإسلامي بالجزائر.– في : مجلة الحياة الثقافية(تونس)ع 8، جويلية –أوت 1976، ص 94 – 97.

(13) عثمان الكعاك في ذمة الله.–في : جريدة النصر (قسنطينة/الجزائر)1976/7/16، ص1، 3 ؛ عثمان الكعاك في مطاوي التاريخ.– في : جريدة بلادي(تونس) 19–1976/7/26، ص 13 ؛ عثمان الكعاك في ذمة الله .– في : مجلة الحياة الثقافية، جويلية – أوت 1976، ص 7–8 ؛عثمان الكعاك في ذمة الله.– في: جريدة الصباح، 1976/7/16، ص10؛ عثمان الكعاك في ذمة الله.– في : مجلة العروبة، جويلية 1976، ص 34 ؛ عثمان الكعاك في ذمة الله.– في : جريدة العمل(تونس) 1976/7/17، ص 6 ؛ تأبين المرحوم عثمان الكعاك في قاعة الملتقى إثر سماع خبر وفاته .– في : مجلة الأصالة (الجزائر)، أوت–سبتمبر1976، ص 123 ؛ ملتقى الفكر الإسلامي / المشاركون يودعون جثمان الفقيد الكعاك.–في : جريدة النصر 1976/7/17 ص1، 3 ؛ كلمة السيد مولود قاسم نايت بلقاسم وزير التعليم الأصلي والشؤون الدّينية.–في : مجلة الأصالة، أوت – سبتمبر1976، ص 151 –153 ؛ الرئيس(الحبيب بورقيبة) يبرق بتعازيه إلى أرملة المرحوم عثمان الكعاك.– في : جريدة الصباح، 1976/7/17، ص 2 ؛ القليبي يمثل رئيس الدولة في موكب تشييع الفقيد عثمان الكعاك.–في : جريدة العمل1976/7/18، ص 3 ؛ كلمة الأستاذ محمود المسعدي في تأبين الفقيد... – في : جريدة العمل 1976/7/18، ص 3 و في : جريدة الصباح، 1976/7/20، ص 18 ؛ كلمة التأبين التي ألقاها (السيد احمد حماني) رئيس المجلس الإسلامي الأعلى على قبر الفقيد عثمان الكعاك.–في : مجلة الأصالة، أوت – سبتمبر1976 ، ص 163– 166 ؛ كلمة الأستاذ سليمان داود بن يوسف .– في : مجلة الأصالة(الجزائر)، أوت – سبتمبر1976، ص 159 ؛ كلمة الدكتور كامل البوهي .–في : مجلة الأصالة، أوت–سبتمبر1976، ص 160 ؛ رجال الفكر يرثون عثمان الكعاك .– في : مجلة الحياة الثقافية، سبتمبر–أكتوبر1976 ، ص 118 ؛ كلمة سليم كلاشة الغبريني .–في : مجلة الأصالة، أوت – سبتمبر1976، ص 162 ؛ كلمة الدكتور المنجي الكعبي.– في : مجلة الأصالة، أوت –سبتمبر1976، ص 154–155 ؛ كلمة طالب تونسي باسم الطلبة التونسيين الحاضرين في الملتقى .– في : مجلة الأصالة، أوت – سبتمبر1976، ص 162؛ كلمة الدكتور محمد المبارك.– في : مجلة الأصالة، أوت – سبتمبر1976، ص 156 ؛ مصاب الفكر في مغربنا العربي بفقدان العلامة الأستاذ عثمان الكعاك.–في : جريدة الصباح، 1976/7/17، ص 19 ؛ العروسي وادي : كنت عظيما و رحلت كذلك .– في : مجلة الأصالة، أوت – سبتمبر1976 ، ص 167– 170 ؛ وصول جثمان المؤرّخ الكبير عثمان الكعاك إلى تونس. – في : جريدة الصباح، 1976/7/17، ص2.

(14) في أربعينية عثمان الكعاك / الأستاذ محمد فرج الشاذلي يقول : عاش أستاذنا باذلا من نفسه خير طاقاتها لتقريب ما شطّ من المفاهيم التاريخية ودحض ما شوه به أعداؤنا تاريخ أمتنا العربية .– في : جريدة العمل، 1976/9/11، ص 7.

و-شهـادات :

* **عالـم موسوعـي :** "...إننا فقدنا بفقد الأستاذ عثمان الكعاك عالما موسوعيّا وملاذا للدارسين يحدّثك ارتجالا في ما تشير من المواضيع فجأة فتحسب موضوع الحديث اختصاصا ومجالا وحيدا لاهتمامه، قد قضى العمر يعالجه ولا يهتم بغيره. وتتغير المواضيع وتتعدد فإذا الرجل واحد في علمه ودقته وبحثه، وإذا أنت مشدوه موقن بأن الرجل نسيج وحده وبأنه معين لا ينضب، قد أخذ من كل شيء بطرف، وأنه يمثل صنفا من العلماء موسوعيا يعز على الدهر أن يجود بمثله.."

محمـود المسعـدي (15)

* **كتـاب في ليلـة :** "... فكان دوما محل تكريم فائق، وذلك اعتبارا لا تساع معرفته وحصافة رأيه ومقدرته النادرة لبرمجة ما شاء من المشاريع بغاية الوضوح مع مقدرة أخرى هي طلاقة لسانه وسلاسة لغته وبلاغته مع اقتدار خارق – عندما تكون الحاجة تقتضي ذلك وتعود بالفائدة للعموم–على العمل المتواصل غير المنقطع لتدوين كتاب كامل في ليلة واحدة. وعلى مثل هذا حرر كتابا في الفلكلور العربي في بغداد عندما كان الناس ينعمون بالنعاس الهادئ. وقد كان يصف لنا الرحلات التي كان يقضيها منفردا فكانت أوصافه عبارة عن تشخيص مادي لما كان يراه، فكان السامع يخرج من مجلسه وهويحسب نفسه كأنه شاركه في الرحلة..."

سليمـان مصطفـى زبيس(16)

* **وطنيـة فاعلـة :** "... ولا نغفل الإشادة بميزة له نابعة من شخصيته وكأنه جبل عليها هي تعلقه المتين بحب تونس وهيامه بمفاتنها وآثارها، لا يطيب له حديث إلاّ عنها وعن نبغائها وآثارهم [...] وفي كلمته المشهورة (تونس : القد قدّ الفولة والصوت صوت الغولة) أفصح

---

(15) كلمة التأبين.– في : جريدة العمل18/7/1976، ص 3.

(16)صداقة لا يمحوها الدهر.–في : العمل الثقافي 24/12/1971، ص3.

تعبير عن غرامه هذا وهيامه بأمجادها، وهي أصدق وصف لهذا البلد الطيب. وتونس وإن صغرت رقعتها على الخريطة الجغرافية هي بلا ريب التربة الودود الولود التي ساهمت في الحضارة الإنسانية بسهم موفور وأخرجت من عباقرة العلم والأدب والسياسة والحرب والصناعة جمّا غفيرا تقصر عن إخراجه الأمم التي اتسعت رقعتها وامتدت. ينكر عليه حسّاده – وكلّ ذي نعمة محسود – أنه يبالغ في حب تونس ويتغالى في أمجادها. فهل يلام من أخلص في حب وطنه وتفانى؟ وهل تنكر فضيلة الاعتزاز بمسقط الرأس والإشادة بمحاسنه أمام من جحدوا فضله وحقروا شأنه وزهدوا فيه وحاولوا طمس صفحات ذهبية من تاريخه الزاخر بالأمجاد ؟..″

محمد الحبيب (المحامي)(17)

* **لأجل الحوار الثقافي :** ″.. لقد تعلّمت منك كثيرا، أيّها الأستاذ، في كل مرة لاقيتك فيها. إنك تعرف الكثير، وتعرف كيف تقدّم علمك بلطفك المتناهي وأخلاقك العالية وأدبك الواسع، في المكتب، في محاضراتك، في الإذاعة والتلفزة، في منزلك. ولطفك هذا حبّبك إلى سامعيك وتلاميذك وأصدقائك، وزادهم ارتباطا وتعلقا بك. إنك تعرف الكثير عن كل شيء، وتستطيع أن تثبت علاقات عديدة بين قرن وقرن، وقطروقطر، وبين لغة وأخرى. وهذه العلاقات العلمية تزيد تأكيد المحبة بين الشعوب، وبين الإنسان وأخيه الإنسان. من أجل هذا، أيّها الأستاذ الكريم، أقدم لك شكري، ولهذا القصد الذي استهدفته أشغالكم العلمية المتنوعة. أنت تونسي، تونسي من العاصمة، وتونسي أصيل بمحبتك لهذه المدينة العريقة في المجد. وحبّك لها جعلك تعرف عنها، عن سكانها القدامى والجدد، عن عائلاتها وخاصة الأندلسيين منهم، عن أحيائها العتيقة والحديثة، عن تطورها مع الزمن والتاريخ ما لا يعرفه غيرك، فتعُلّمنا وتشرح لنا ذلك بلطف وتشويق. لقد تعلّمت منك كيف أحب تونس

(17) هو أستاذ الجيل، – في : العمل الثقافي، 24/12/1971، ص4.

بصفة عامة، وعاصمتها بصفة أخص. لقد حببّتني فيها منذ لقائي الأوّل بك. وزدتُ محبّة لها كلّما زرتُها ثانية ولقيتُك، خاصة أثناء مصاحبتنا، شارحا لنا تاريخها المجيد، واصفا لأحيائها ومعالمها التاريخية والأثرية. فشكرا لك لأنك جعلت منّي مواطنا تونسيا أشعر بجانب كبير من المحبة لهذه المدينة التي أحببتَها فأعطيتَها من روحك وجهدك الكثيرس..."

ميقال دي إبلزا (18)

* **جهد وتجديد** : "... عرفته أول مرة في دار العرب – لصاحبها المرحوم الأستاذ زين العابدين السنوسي – هذا الصوّفي المتبتل في محراب الفكر و الأدب. وكانت جلسات (دار العرب) جلسات جدّ مثمرة تضم أعلام الثقافة في البلاد من الشيوخ إلى جانب الشبّان المتتلمدين عليهم أمثالي، فكان عقد ذلك المجلس اليومي يتحدث فيملأ وطابنا بالرّائع و الطريف في التاريخ و الأدب. ومن دار العرب انتقلت مع الجماعة إلى جمعية قدماء المدرسة الصادقية، أصحب الأستاذ زين العابدين إلى النادي الأدبي الذي كان يلتئم كلّ يوم إثنين، فكان الأستاذ عثمان الكعاك دينامو ذلك النادي لا يفتأ يقترح المواضيع الحية لتكون مادة للمناقشة وللمحاضرة. وهو إلى جانب نشاطه في ذلك النادي لا يتقاعس عن تنظيم الرحلات الدراسية إلى بعض المناطق التي فيها المعالم الأثرية التّاريخية. وكنا في تلك الرحلات نستفيد بما يفيضه علينا أستاذنا الكبير من معلومات ثمينة وكأننا طلبة في مدارج الجامعة. كما كان له نشاط دائب في جمعيّة « قدماء الصّادقية ». يقوم بنشاط مماثل في «الجمعية الخلدونية» يحاضر ويوجّه ويحث على إحياء الذكريات لرجال الأدب من العرب، ثمّ لا ينسى أن يغمر الصحافة ببحوثه و دراساته في الوقت ذاته. ثمّ أنشأ (جمعيّة الكتّاب والمؤلّفين التونسيين)، وحثنا على إلقاء المحاضرات فيها. وكان عملنا معه شيّقا

---

(18) لقد جعلت منّي مواطنا تونسيا.– في : العمل الثقافي، 24/12/1971، ص3.

ومثمرا. وعندما أسست حكومة الحماية محطّة للإذاعة بتونس وتولّى أستاذنا الكعّاك رئاسة قسمها العربي، اتخذها فرصة ووسيلة لها فاعليتها لخدمة مطامحه في نشر الثقافة العربية والإسلامية. وبثها على نطاق أوسع من نطاق النوادي والجمعيات والصحف. فكانت البرامج العربية طافحة بتلك المقاصد. وتعاون معه جمع كبير من أئمة الفكر والمعرفة. كما لم يغفل عنصر الشباب ففسح له المجال.

وفي نطاق الإذاعة وبفضل إخلاص الأستاذ عثمان الكعاك لعروبته وقوميته، أمكنه أن يخدم الأدب التونسي والعربي والفكر الإسلامي والتاريخ خدمة جليلة. وأمكن لنا أن ننجح في معركة النهوض بالأغنية التونسية وأن ننقذها من سخافة وبذاءة اليهود وأن تنشط حركة التلحين التونسي من طرف الموسيقيين، وأن يفتح المجال أمام المطربات والمطربين التونسيين لإبراز مواهبهم وتحطيم الاحتكار الذي كان اليهود قد ضربوه على التونسيين في هذا الميدان. ولبلوغ تلك الأهداف، قرر الأستاذ عثمان الكعاك مع المرحوم الأستاذ مصطفى بوشوشة، وكان عهدئذ المدير الفنّي للإذاعة، مطالبة كل فرقة غنائية سواء كان يتزعمها مطرب أو مطربة بأن تقدم في كل حفلة لها أسبوعيا بالإذاعة برنامجا يحتوي على خمس أغنيات جديدة في كلماتها وألحانها، ولا يجوز لها أن تعيد غناء واحدة منها إلاّ بعد شهر. فنشطت حركة تأليف كلمات الأغاني و نشط معها التلحين، وأسفرت هذه العملية عن نهضة موسيقية وغنائية كبرى. وفي نطاق الإذاعة استطاع الأستاذ عثمان الكعاك أن يحقق غنما آخر، تمثل في تطوير مواضيع الأغنية التونسية من جهة، ثمّ في التعريف بجهات البلاد تاريخيا وأدبيا واقتصاديا وأثريا. و كان ذلك ضمن برنامج جديد فتحه بعنوان : تحت سماء الخضراء. ففي كل حلقة من هذا البرنامج، تقدم نبذة تاريخية موجزة عن بلد من البلاد التونسية تمثل جهة من جهاتها ثمّ يقدم حديث وصفيّ لها ثمّ أغنية تشيد بجمالها ومناخها ومنتوجها الخاص بها.

وبذلك خرجت الأغنية التونسية عن مواضيع الحب والهيام والغنج والدلال، وطرقت مواضيع جديدة لم يكن لها بها سابق عهد. وفي نطاق الإذاعة تحققت التّمثيلية الإذاعية التونسية الصميمة، ودخل التمثيل إلى الإذاعة، ونشطت الأقلام لكتابة التمثيليّات لأوّل مرّة.

وفي نطاق الإذاعة، ابتكر الأستاذ عثمان الكعاك عملا أدبيا جديدا في برنامج يحمل عنوان « في رياض الشعر الفرنسي» موضوعه ترجمة مقطوعات من الشعر الفرنسي، ومشاهد من مسرحيات فرنسية إلى شعر عربي فصيح. وهو عمل فيه تلقيح لأدبنا وتغذية لأدبائنا ...″

الهادي العبيدي (19)

*** واكب النهضة وأسهم فيها :** ″... أمّا المؤلف فهو الغنيّ عن التعريف والتقديم، الذي يحتاج إلى تعريفه بالآخرين وتقديمهم، الباحث الجليل، مربّي الجيل وأستاذه الكبير عثمان الكعّاك أمين دار الكتب الوطنية. وما أظنّني بعد بذكر اسمه احتاج لأن أقول عنه إنّه واكب النهضة التونسية منذ نصف قرن، وإنّه أسهم في جميع ألوان حركاتها ونشاطها، وفي كافة مجلاّتها وصحفها، وفي كلّ جمعيّاتها ونواديها، وفي شتى مناسباتها ومواسمها. فله في كلّ بناء ركن، وفي كلّ بستان شجرة، وفي كلّ طريق معلم يهتدي به السائر والمدلج. هذا فضلا عن مؤلفاته في التاريخ و التراجم والاجتماع، منها ما طبع ونشر بين الناس، و منها ما لا يزال مخطوطا ينتظر...″

أبو القاسم محمد كرّو (20)

*** مثقّف ملتـزم :** "يحتل الأستاذ عثمان الكعّاك رحمه اللّه مكانة مرموقة من بين رجال الفكر والأدب و الفنّ في بلادنا. وإنّه لجدير بهذه المكانة، لا فحسب لأنه كاتب رقيق الأسلوب، ومحاضر شيّق الحديث، ومؤرخ عظيم الأثر، ومترجم بارع، بل لأنه أيضا من أولئك المثقفين الملتزمين الذين

---

(19) ألعبيدي (الهادي) : من أعلام الثقافة والسياسة...ص 88 – 91 (في حفل تكريم عثمان الكعاك يوم 1971/12/17 بدار الثقافة ابن رشيق).

(20) أبو القاسم محمد كرّو : حصاد العمر.– دار المغرب العربي، تونس 1998، مج 5، ص 62.

سخّروا حياتهم لخدمة وطنهم والنهوض بأمّتهم على الصعيد الثقافي والعلمي والحضاري..."

حمادي الساحلي (21)

***معلمة الفولكلور:** "... هكذا كان كتاب التقاليد والعادات التونسية للمرحوم عثمان الكعاك صغيرا في حجمه، كبيرا في موضوعه، متميزا في منهجه . فقد كان الكاتب واعيا بأنه يحدث توجها جديدا في الدراسات الإثنوغرافية والاجتماعية، أخرج من خلاله المادة الفولكلورية من النظرة المهمشة إلى النظرة الحديثة الفاحصة لنشاط الإنسان فردا وجماعة [...] وهو يؤكد أنّ أصحاب الثقافة المزدوجة في الجيل السابق قد فتحوا سبلا جديدة و حديثة في البحث، ومثلوا بذلك نتاج حركة النهضة الفكرية و الحضارية، وحمّلوا الجيل اللاحق مسؤولية الحفر في هذه المسالك الجديدة."

المنصف الجزار (22)

البيبليوغرافيا: (مرثية ألفبائيّا)

إثر وفاته بادرت دار الكتب الوطنية بإصدار "بيبليوغرافيا عثمان الكعاك"(إعداد عبد الوهاب الدخلي، تونس1976، في 72 ص). وبمناسبة ذكرى وفاته العشرين أصدرت الدار نفسها، بإشراف مديرها العام د، جمعة شيخة كتابا توثيقيا بعنوان : "عثمان الكعاك أوّل حافظ لدار الكتب الوطنية / ومضات عن حياته وآثاره"(إعداد حسين المزوغي وجمال بن حمادة، تونس1996، في 122 ص عربية و11 ص فرنسية مرقونة).

1- كتب

– ابن قيّم الجوزيّة.– جمعيّة الاتّحاد الصفاقسي الزيتوني، [تونس] 1953، في 35 ص.

– ابن الوردي.– جمعيّة الإخاء القيرواني، القيروان / تونس، 1954، في 46 ص.

(21) المجلة الصادقية، ع4، ديسمبر 1996، ص 75 – 83.

(22) جريدة الحرية 2008/4/9، ص 14.

– الأدلّة البيّنة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية / أحمد الشمّاع .– تحـ. مطبعة العرب، تونس 1936، في 208ص.

– الأميرة عطف.– نشر الجيلاني الفلاّح، تونس 1929، في 98ص.

– بَالرَّمْ كأنّك تراها.– مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ، د.ت، في 28 ص.

– البربر.– سلسلة كتاب البعث، ع 5، مطبعة الشرقي، تونس 1956 (1957 حسب محفوظ)، في 144 ص.

– بلاغة العرب في الجزائر.– مكتبة العرب، تونس، 1927، في 81ص.

– تصانيف العرب في الفلاحة.– المطبعة التونسية، تونس 1946، في 362 ص.

– التقاليد والعادات التونسية / الفلكلور التونسي.– تونس ط1 / 1957،ط 2/ الشركة القومية للنشر والتوزيع، تونس 1963 في 128ص، ط3/ الدار الونسية للنشر، تونس 1972 في 129 ص، ط4 / الدار التونسية للنشر، تونس1981، في 129 ص.

– جزر قرقنة في الأدب والتاريخ.– جمعية النهوض بالطالب القرقني، المطبعة الكبرى بالجنوب التونسي، صفاقس / تونس، 1955، في 39 ص.

– جغرافية المملكة التونسية للدرجة المتوسطة الأولى و الثانية.– المكتبة الإفريقية، مكتبة المنار/ تونس، د.ت.، في 64ص.

– الحضارة العربية في حوض البحر الأبيض المتوسط.– القاهرة 1965 (1956 حسب محفوظ) في 172 ص.

– ديوان حازم القرطاجنّي.– تحـ. بيروت 1964، في 161 ص (ذكره فونتان).

– الشيخ أحمد الوافي.– تحقيق و دراسة فنية لصالح المهدي، المعهد الرشيدي للموسيقى التونسية، تونس 1982، في 103 ص.

– صفيّ الدين الحلّي و بهاء الدين زهير.– جمعية الإخاء القيرواني، القيروان/ تونس 1955، في 70 ص.

– عبد الحميد الكاتب.– الاتحاد الصفاقسي الزيتوني، تونس 1953، في 35 ص.

– العلاقات بين تونس وإيران عبر التاريخ.– الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1972، في 227 ص.

– عمر بن الفارض.– جمعية الاتحاد الصفاقسي الزيتوني، تونس 1954، في 38 ص.

– الفلسفة الإسلامية وتأثيرها الحاسم في فكر الغرب أثناء العصور الوسطى / تأليف سلفادور غومث نوغالس.– تعـ. الدار التونسية للنشر، تونس / الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر / الدار العربية الإسبانية / مدريد 1977، في 99 ص.

– الفوائد السنيّة في قصائد الإغاثة الوطنية.– تونس 1941، في 32 ص (ذكره فونتان).

– المجتمع التونسي على عهد الأغالبة.– ط1/ في : تقويم المنصور، ط2/ مطبعة العرب، تونس، د.ت.، في 44ص.

– محاضرات في مراكز الثقافة في المغرب من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر.– معهد الدراسات العربية العالية، القاهرة، 1958 (1957 حسب محفوظ)، في 134 ص.

– محمد كرد علي.– إصدار جمعية الاتحاد الثقافي لعمّال قابس، ط. الشركة التونسية لفنون الرسم، تونس 1954، في 37ص.

– محيي الدين ابِن عبدالظاهر.– مكتبة النجاح، تونس 1956، في 42ص.

– المدخل إلى علم الفلكلور.– بغداد 1964، في 57 ص (ذكره فونتان).

– مسلك القاهرة.– وزارة الثقافة، القاهرة، 1981، في 56 ص.

– مصادر بيبليوغرافية عن ابن خلدون.– تونس 1957 (ذكره محفوظ).

– مصادر الفلكلور العراقي.– بغداد 1957 (ذكره محفوظ).

– معجم موسوعي عربي فرنسي (مخطوط ذكره محفوظ).

– المقّري.– إصدار جمعية الاتّحاد الثقافي لعمّال قابس، ط. تونس،

1952، في 79 ص.

– مهرجان أبي القاسم الشابي / الرحلة الشّابية.– تونس، د.ن.، 1966، في 67 ص.

– موجز التاريخ العام للجزائر منذ العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي.– مطبعة العرب، تونس 1344 هـ / 1925م، في 448 ص (482 ص حسب فونتان).

2- مقالات بالعربية :

1- تاريخ :

– الآثار التونسية وحمايتها.– في : مجلة المباحث، جانفي 1947، ص 3، 10.

– آخر دراسة لمؤرخ تونس.– في : مجلة الحياة الثقافية، سبتمبر – أكتوبر 1976، ص 18 – 28.

– إتحاف الظّراف في تاريخ الكاف.– في : مجلة المباحث، (1) فيفري 1947، ص 3، 8–9 ، (2) أفريل 1947، ص 3 – 5 ، (3) ماي 1947، ص 3، 11.

– ارتسامات عن ليبيا الشقيقة.– في : مجلة الفكر، جانفي 1947، ص 3، 10.

– الاستعمار التونسي بصقلّية.– في : مجلة تقويم المنصور (تونس) 1926، ص 69 – 119.

– الأسواق التونسية.– في : مجلة الندوة، (1) ماي 1954، ص 8–9، (2) سبتمبر – أكتوبر 1954، ص 3– 5.

– أشغال الريّ في التمدّن التونسي.– في : مجلة الثريّا، ماي 1945، ص 22– 24.

– بعض الجهات الأثرية بمعتمدية تستور [السلوقية].– في : نشرية "تستور" (نشر جمعية مهرجان المالوف) تونس 1968، ص 19 –22.

– بيت الحكمة / الجامعة التونسية التي أضاءت أوروبا.– في : مجلة الإذاعة، 1961/5/1، ص 19.

– التاريخ التونسي / الصناعات النّارية في التمدن التونسي.– في : مجلة الثريّا، أوت – سبتمبر 1946، ص 9– 11.

– التاريخ التونسي / المدن الأندلسية بالقطر التونسي.– في : جريدة الأسبوع، (1) 2/2/1953، ص2، (2) 9/2/1953، ص 2 ، (3) 16/2/1953، ص 2، 7، (4) 23/2/1953، ص 2، 7، (5) 2/3/1953، ص4، (6) 9/3/1953، ص 2 ، (7) 16/3/1953، ص 2، (8) 23/3/1953، ص 2 ، (9) 30/3/1953، ص 2 ، (10) 13 /4/1953، ص 4، (11) 20/4/1953، ص2، (12) 27/4/1953، ص 2.

– التاريخ الحفصي من مصادره المجهولة.– في : مجلة العالم الأدبي، 23/5/1932، ص 2 – 7، و في : مجلة المباحث، أكتوبر 1944، ص 3، 10،12.

– تاريخ صفاقس من مصادره الأصليّة.– في : مجلة مكارم الأخلاق ، (1) 15 شوّال 1355 هـ/ 1936م، ص 194 – 198 ، (2) 15 ذو القعدة 1355، ص 276 – 278، (3) 1 ذو الحجة 1355، ص 318 – 320، (4) 1 محرم 1356 هـ / 1937م، ص 390 – 393، (5) 1 ربيع الأول 1356، ص 494 – 496 ، (6) 1 ربيع الثاني 1356، ص 543 – 544 ، (7) 1 جمادى الأولى 1356، ص 590 – 592.

– تاريخ القيروان والأطوار التي مرّت بها من عهد الفتح الإسلامي إلى عهد الاستقلال.– في : جريدة الصباح 14/5/1962، ص 4–5.

–تحدّث الأستاذ عثمان الكعّاك رئيس لجنة الآثار التونسية فقال لي...
– في : مجلة الأسبوع، 6/7/1947، ص2.

–تفسير أسماء وأمكنة غريبة بتونس.– في : مجلة الهداية، أفريل 1974ص 83–85.

– الثورة الجزائرية من 1830 إلى 1956.– في : مجلة الندوة، (1) ديسمبر 1956، ص 7– 10، (2) جانفي – فيفري 1957، ص 63 – 65.

– الجزائر و الحضارة.– في : جريدة وادي ميزاب، 22/10/1926، ص 2–3.

– جوهرة الساحل بين التاريخ والاجتماع.– في : جريدة الأسبوع، 9/6/1946، ص 6.

– حوار مع عثمان الكعّاك حول حصّة من" مطاوي التاريخ" التلفزية.– في : مجلة الإذاعة والتلفزة، 1985/2/1، ص 10 – 12.

– دور العروبة والإسلام في النهضة العلمية و الأدبية والفنية و التقنية في أوروبا وأمريكا.– في : مجلة الأصالة، جويلية – أكتوبر 1972، ص 117 – 131.

– رحلة علقون القرطاجي.– في : مجلة العرب، محرم 1342 هـ / 1923م، ص 42– 45.

– " الطّان" (Le Temps) تؤيّد سياسة المقيم.– في : جريدة العصر الجديد، 1923/5/8، ص1.

– عثمان الكعّاك... يحدّثنا عن رحلته الأخيرة إلى تركيا و انطباعاته.– في : جريدة الصباح، (1) 1959/11/10، ص 3 ، (2) 1959/11/11، ص3 ، (3) 1959/11/13، ص 3، (4) 1959/11/14، ص 3 ، (5) 1959/11/18، ص3، (6) 1959/11/19، ص 3 ، (7) 1959/11/21، ص 5، (8) 1959/11/24، ص 3، (9) 1959/11/25، ص 3، (10) 1959/11/27، ص 3، (11) 1959/12/1، ص5، (12) 1959/12/5، ص 3، (13) 1959/12/6 ص3، (14) 1959/12/9، ص4، (15) 1959/12/11، ص4، (16) 1959/12/24، ص 3 ، (17) 1960/1/8، ص3،5.

– عنّابة قبل الإسلام.– في : مجلة الأصالة، جوان – جويلية 1976، ص 40– 65.

– في الحضارة التونسية.– في : مجلة الثّريا، أكتوبر – نوفمبر 1946، ص 7– 8.

– مجاز الباب عبر التاريخ.– في : جريدة الصباح، 1965/12/23، ص4.

– مجدنا البحري.– في : مجلة الثّريا، ماي 1946، ص 8– 9.

– مدينة سوسة كما أتصورّها في التاريخ.– في : مجلة المباحث، جوان – جويلية 1946، ص 3– 10، 20.

– مسألة القاهرة.– في : جريدة الصباح، 1969/5/8، ص 4.

– المغرب عربي.– في : مجلة الأسبوع، 23/3/1947، ص 1، 7.

– الملتقى العاشر للفكر الإسلامي في يومه السابع / حديث عن الدور الحضاري لصقليّة الإسلامية.– في : جريدة الشعب (الجزائر)، 17/7/1976، ص 1.

– ملحمة منتصف الليل.– في : مجلة الأصالة، أكتوبر – نوفمبر – ديسمبر 1974، ص 103 – 112.

– من أهمّ المحاضرات / المؤرخ الأستاذ عثمان الكعّاك يحدثنا عن مصر.– في : جريدة الأسبوع ،24/4/1950، ص6.

– مؤرخ تونس... وحافظ دار الكتب الوطنية... الكعّاك يحدثنا عمّا وجده في رحلته إلى صقليّة من ذخائر و آثار الفتح التونسي هناك.– في : جريدة الصباح، (1) 1/6/1959، ص3، (2) 27/6/1959، ص 3، (3) 30/6/1959، ص 4.

– موقف المؤرخين الأجانب من تاريخ الجزائر.– في : مجلة الأصالة، ماي – جوان– جويلية – أوت 1973، ص 139 – 153.

– نشأة المسرح الروماني بدقّة والأدوار التاريخية التي مرّ بها.– في : جريدة الأسبوع، 23/6/1946، ص 8.

– نفحة من أصداء عمر المختار و زيارة ميادين جهاده في الجبل الأخضر بشرق برقة ووقفة على ضريحه في بنغازي.– في مجلة الإخاء، 16 آذار ( ) 1968، ص 10، 32.

– وصف القرى الأندلسيّة نقلا عن رحلة بيسونال.– في : مجلة المباحث، (1) ديسمبر 1944، ص 3، 8،(2) جانفي 1945، ص 3،5، (3) فيفري 1945، ص3،5 (عرب الرحلة كاملة محمد العربي السنوسي وصدرت مع الأصل الفرنسي عن ميدياكوم و مركز النشر الجامعي بتونس 2004).

2- **تراجـــم :**

– ابن خلدون خريج "الزيّتونة".– في : مجلة "الزيتونة"، 1/2/1956، ص 8.

– ابن رشيق / الرجل، الأديب والمؤلف.– في : جريدة الصباح، (1) 1968/5/25، ص 4، (2) 1968/5/30، ص 4، 7، (3)1968/6/6، ص 4، 7، (4) 1968/6/13، ص4.

– ابن المقفّع وديانته.– في : نشرة الجمعية الخلدونية، 1930، ص 53–63.

– أبو الحسن علي اللّخمي.– في : مجلة الأسبوع، 1947/2/9، ص2.

– أبو الصلّت أميّة بن عبد العزيز.– في : نشرة الجمعية الخلدونية، 1930، ص 63 – 91.

– أدباؤنا بأقلامهم.– في : مجلة الندوة، أفريل 1956، 53 – 62.

– جعفر بن شرف الشاعر.– في : مجلة الجامعة، (1) فيفري 1938، ص 246 – 248، (2) مارس 1938، ص 289.

– جعفر بن شرف القيرواني.– في : مجلة الأفكار، جانفي 1937، ص 102 – 106.

– حفل تتويج لثلاثين عاما من النضال الصحفي والإذاعي لعبد العزيز العروي/ مشاركة عثمان الكعّاك.– في : مجلة الإذاعة، 1971/6/15، ص 25 – 26.

– حمّودة بن عبد العزيز.– في : مجلة المباحث، (1) جويلية 1947، ص 3–4، 9، 12، (2) أوت 1947، ص 3،7.

– رجال الفكر والثقافة يكرّمون الهادي العبيدي/ كلمة عثمان الكعاك.– في : جريدة الصباح، 1971/7/1، ص4،7.

– رحلة مع ابن رشيق.– في : مجلة الإذاعة، 1968/3/1، ص 36 – 37.

– شيخ الأدباء كأنّك تراه/ في التعريف بالشيخ العربي الكبادي.– في : مجلة الفكر، أفريل 1961، ص 21 – 28.

– الشيخ معاوية التميمي بمدينة باريس.– في : المجلة الزيتونية، جوان 1944، ص 171 – 176.

– عقبة بن نافع وأحمد بن بلّة.– في : جريدة الصباح، 1956/11/1، ص4.

– في حفل أربعينية عبد العزيز العروي / مشاركة عثمان الكعاك.– في : مجلة الإذاعة، 1971/9/15، ص 27 – 31.
– الهاشمي المكّي.– في : مجلة الإذاعة، ديسمبر 1971، ص 18.

3- توثيق :

– الأكفاء في المناصب العلمية/ استجواب الأستاذ عثمان الكعاك حافظ القسم العربي بدار الكتب الوطنية.– في : مجلة الثريّا، ديسمبر 1944، ص 7.
– صناعة الكتاب بالقيروان.– في : مجلة المباحث، 1946/4/25، ص 13.
– في الحضارة التونسية / عصر الموسوعات.– في : مجلة الثريا، ديسمبر 1946، ص 1–3.
– المراجع عن ابن خلدون.– في : جريدة الصباح، 1959/9/30، ص 4.
– مصادر أبي القاسم الشابي.– في : مجلة الفكر، أكتوبر 1957، ص 40 – 42.
– مصادر التاريخ الروماني عند ابن خلدون.– في : مجلة الأسبوع، (1) 1951/1/1، ص 8، 33، (2) 1951/1/15 ص 9، (3) 1951/1/22، ص 2.
– المكتبات الإسلامية في العصور القديمة والعصر الحديث.– في : جريدة الصباح، 1955/9/23، ص 3.
– المكتبات في ليبيا.– في : مجلة عالم المكتبات، مارس – أفريل 1963، ص 7–8، 27.
– المكتبة في تونس منذ أربعة آلاف سنة وإلى اليوم.– في : مجلة اللطائف، نوفمبر 1955، ص 24– 27، 58.
– المكتبات ودراسة المخطوطات العربية.– في : مجلة عالم المكتبات، (1) سبتمبر– أكتوبر 1962، ص 24– 27، (2) نوفمبر – ديسمبر 1962، ص 22– 25، (3) جانفي – فيفري 1963، ص 10– 14.
– موجز أصول الوثاقة.– في : مجلة الحياة الثقافية، جانفي – فيفري

1976، ص 54– 56.

– نحو بعث موسوعة مغربية.– في : جريدة الصباح، 1965/12/30، ص 4.

– الوثاقة أو علم التوثيق.– في : مجلة المكتبة العربية، مج 2، ع3 – 4، س 1965، ص 17 – 23.

– الوساطة في الخطاطة.– في : مجلة المباحث، سبتمبر – أكتوبر 1947، ص 3، 13، 18، 19.

4- أدب :

– أحاديث خيالية / السّحاب.– في : جريدة البرهان، 1921/9/27، ص4.

– الأدب البلغاري.– في : مجلة الندوة، فيفري 1956، ص 17– 19.

– الأدب التونسي بسوسة في العهد العثماني : في : جريدة الصباح، 1969/3/4، ص 3.

– الأدب التونسي في العهد العثماني.– في : جريدة الصباح، 1969/2/20، ص3.

– الأدب الجزائري.– في : مجلة الفكر، نوفمبر 1959، ص 20– 23.

– الأدباء التونسيّون في "تاريخ الآداب العربيّة" لبروكلمان/ تعريب.– في : مجلة العالم الأدبي، (1) 1934/2/19، ص 95 – 97، (2) أفريل 1935، ص 116 – 118.

– أصالة الثقافة الجزائرية في القديم و الحاضر و المستقبل و مدى انتشارها و تأثيرها في العالم الخارجي.– في : مجلة الأصالة، ماي – جوان 1972، ص 195.

– بلاغ عن جمعية المؤلّفين والكتّاب التونسيين ينصّ على تأسيس الجمعية و أهدافها بإمضاء الكعّاك بصفته كاتبا عامّا لها.– في : جريدة لسان الشعب، 1939/3/15، ص 3.

– تاريخ المسرح التونسي.– في : مجلة المباحث، (1) جوان 1945، ص

(4) 3، 6،7، (2) جويلية 1945، ص 3– 6 ، 7، (3) أوت 1945، ص 3–6،7، (4) سبتمبر 1945، ص3 – 10، 11، (5) أكتوبر 1945، ص 3– 6، 13، (6) ديسمبر 1945، ص 3–4، 5،(7) جانفي 1946، ص 3،11.

– تراثنا الأدبي /تاريخ الأدب التونسي نقلا عن بروكلمان (تعريب وتعليق.– في : مجلة الثريّا، (1) أكتوبر 1944، ص 6–7، 36، (2) نوفمبر 1944، ص 7–9، (3) ديسمبر 1944، ص 11–13، (4) جانفي 1945ص 9–10، (5) فيفري 1945، ص 9–10،(6) مارس 1945، ص3–6، (7) جوان 1945، ص 4 –5، (8) جويلية 1945، ص9–11، (9) سبتمبر 1945، ص 26–29، (10) ديسمبر 1945، ص 9–12.

– تراثنا الأدبي/ النبوغ الشعري في عهد الفاطميين.– في : مجلة الثريّا، جوان – جويلية 1946، ص 9–10، 13.

– تقديم ديوان ″ أغاني أحمد خير الدين″.– تونس 1968، ص5–20.

– تقديم كتاب آداب المعلّمين» لابن سحنون بتحقيق ح. ح. عبد الوهّاب.– في : مجلة العالم الأدبي، 7/ 3/1932، ص 16– 17.

– تقديم «مجلة الأندلس» عن جمعيّة المؤلّفين و الكتّاب التونسيين.– في : جريدة لسان الشعب، 12/8/1932، ص3.

– الثقافة الزيتونيّة.– في : مجلة الزيتونة، (1) 23/7/1954، ص 3، 11، (2) 29/7/1954، ص3، 11، (3) 5/8/1954، ص 8، (4) 12/8/1954، ص 6، (5) 26/8/1954، ص7، (6) 2/9/1954، ص4، (7) 12/9/1954، ص 4، (8) 19/9/1954، ص 4، (9) 6/10/1954، ص 8، (10) 27/ 10/1954، ص 11.

– جواب... عثمان ،الكعّاك عن استفتاء ″الفكر″ بتاريخ غرّة مارس 1959.– في : مجلة الفكر، أفريل 1959، ص 3– 7.

– الحركة الأدبية في تونس.– في : مجلة المكتبة، حزيران [جوان] 1963، ص 13.

– حقبة ماجدة من الأدب التونسي.– في : مجلة المباحث، جوان 1947،

ص 3– 9، 12.

– الحنين إلى الوطن.– في : جريدة النديم، فيفري 1928، ص 13 – 14، وفي : نشرية دار الثقافة ابن رشيق، تونس 1971، ص 8–9.

–حول القصّة التونسية.– في : مجلة الفكر، أكتوبر 1985، ص 94– 98.

– دراسات عن المسرح العربي.– في : مجلة الثريّا، ع 8، أوت 1945، ص 26– 29،ع 9،سبتمبر 1945، ص20–22،ع 10، أكتوبر 1945، ص4–6، فيفري 1946، ص 19 – 23.

– دور المغرب في الآداب والفنون.– في : جريدة الصباح، 1956/10/21، ص3.

– ذكرى أبي القاسم الشابي/ مشاركة الكعّاك.– في : مجلة الإذاعة، 1966/3/7، ص 22– 27، 56.

– رحلة إلى القيروان.– نشرية التكريم ديسمبر 1971،ص 14–18.

– الرواية التاريخية التونسيّة وأثرها في مستقبل أدبنا.– في : جريدة الزمان، 1938/12/8، ص 3.

– شوقي وأدب الأطفال.– في : نشرة الجمعية الخلدونيّة، 1934، ص 65–70.

– الفنون والآداب بين تونس والعراق.– في : مجلة هنا بغداد، آب [أوت] 1957، ص 6–7.

– في الثقافة التونسية.– في : مجلة المباحث، أوت – سبتمبر 1946، ص 3، 11.

– قيمة الأدب الجزائري.– في : مجلة الأسبوع، 1949/3/14، ص 59.

– المسرح و أثره في الأدب والمجتمع.– في : كتاب الإذاعة التونسية، تونس 2008، ص 201 – 205.

– معجزة تونس الأدبيّة.– في : مجلّة هنا بغداد، أيلول [سبتمبر] 1957، ص 3–5.

– مكانة الأدب العربي بين الآداب العالميّة.– في : جريدة الصباح

1961/2/2، ص 4.

– الهند و الآداب العربيّة.– في : مجلة الفكر، فيفري 1957، ص 39 – 44.

– الوحدة الثقافية للمغرب العربي.– في : مجلة الأصالة، نوفمبر – ديسمبر 1972، ص 19– 24.

5- لغـة :

– الانشطار والازدواج اللغوي في تونس.– في : مجلة الإذاعة، 1968/1/15، ص 27– 28.

– تاريخ اللغات التونسية.– في : مجلة اللغات، (1) أكتوبر 1961، ص 2–3، (2) نوفمبر 1961، ص 2–5.

– العربيّة في المغرب أعجب من ملحمة.– في :جريدة الجندي، 1963/1/1، ص1.

– قضايا لغوية في سبيل توحيد المغرب.– في : جريدة الصباح، (1) 1972/6/8، ص8، (2) 1972/6/10، ص 3.

– اللغات التونسية.– في : جريدة البرهان، (1) 1921/6/13، ص 4، (2) 1921/6/20، ص4، (3) 1921/6/27، ص3.

– اللغة العربية والإسبان.– في : مجلة الفجر، ديسمبر 1920، ص 224 – 232.

– اللغة العربية والحرب.– في : مجلة المباحث (سلسلة جديدة)ع2،10/5/1944– 1944/5/2، ص 1، 5.

– اللغة اللوبية أو اللغة البربرية القديمة.– في : مجلة العرب، محرّم 1342 هـ/1923م، ص 145 – 149.

– عثمان الكعّاك يتحدث عن مؤتمر اللهجات العالميّة.– في : جريدة الصباح، 1965/9/30، ص4.

– نحن ومعرفة اللغات.– في : مجلة اللغات، سبتمبر 1961، ص 6، 26.

– يفعول.– في : مجلة العرب، ربيع الثاني 1342 هـ/1923م، ص 321 – 330.

6- **ديــن :**

– الأبعاد الروحية و السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية للعبادات و أهميّتها لكلّ من الأمة و الفرد.– في : مجلة الأصالة (الجزائر)، أوت – سبتمبر 1976، ص 127 – 150.

– آخر تعليق للمرحوم عثمان الكعاك في الملتقى العاشر للفكر الإسلامي.– في : مجلة الأصالة، أوت – سبتمبر 1976، ص 111 – 121.

– الأزمات الدينية في التاريخ التونسي.– في : المجلة الزيتونية، جوان 1945، ص 352– 353 (لم يكمله).

– الاستشراق الإسباني و عنايته بالحضارة الإسلامية.– في : مجلة المباحث، 8/11/1944، ص 3، 12.

– الإمام المازري يثير حوارا خصبا بين الأساتذة/ شارك فيه عثمان الكعاك.– في : مجلة الإذاعة والتلفزة، أكتوبر 1975، ص 23.

– جوامع القطر الليبي.– في : المجلة الزيتونية، (1) أفريل 1953، ص 141 – 144، (2) ماي 1953، ص 171 – 172 (بقية مقال : المعاهد الدينية.. انظر أسفله).

– السلالات الإسلامية.– في : مجلة الأسبوع، 7/1/1946، ص 3.

– صفحات سوداء من تاريخ المبشّرين.– في : مجلة الهلال (مصر)، أكتوبر 1973، ص 38 – 49.

– العائلات اللغوية في الإسلام.– في : مجلة الأسبوع، 14/1/1946، ص 2.

– متفرّقات عن الحجّ.– في : مجلة الثريّاع 11، 1944، ص 2–3.

– المسلمون في بولونيا.– في : المجلة الزيتونية، جوان 1937، ص 539 – 541.

– المسلمون في رومانيا و بلغاريا.– في : المجلة الزيتونية، أكتوبر 1937، ص 37– 40.

– المسلمون في فينلاندا.– في : المجلة الزيتونية، (1) ديسمبر 1936،

ص 208 – 210، (2) فيفري 1937، ص 305 – 307، (3) مارس 1937، ص 350 – 353.
– المعاهد الدينية في القطر الليبي.– في : المجلة الزيتونية، (1) مارس 1952، ص 36– 40 (بداية مقال : جوامع القطر الليبي. راجع أعلاه).

7 - اجتماع :

– أساس علم الإجتماع أو علاقة السوسيولوجيا بالعلوم/ دي قريف، اقتباس عثمان الكعاك.– في : جريدة البرهان، (1) 1922/1/10، ص 3، (2) 1922/1/17، ص 3–4.
– أطفال تونس وألعابهم.– في : مجلة "المرأة" (تونس) ع 13، جوان – جويلية 1976، ص 16 – 21.
– الأعياد الموسمية في تونس.– في : المجلة الصادقية (سلسلة جديدة) ع 18، أفريل ص 66–68.س.
– جمعية مقاومة الكحول.– في : جريدة الاتحاد، 1922/10/24 ص3.
– حلقة العنب.– في : مجلة الإذاعة، 1959/9/5، ص 25 – 27.
– صفاقس و مسألة التعليم.– في : جريدة العصر الجديد، 1923/5/1، ص 1.
– المبدأ الشعبي.– في : جريدة وادي ميزاب (الجزائر)، 1926/10/8، ص 2.
– مركز الجهة الخامسة و مسألة التعليم.– في : جريدة العصر الجديد، 1923/2/17، ص 1.
– المسألة النسائية.– في : جريدة البرهان، (1) 1922/1/3، ص 3، (2) 1922/1/31، ص 4، (3) 1922/2/14، ص 4، (4) 1922/2/21، ص4، (5) 1922/2/28، ص 4، (6) 1922/3/7، ص 4، (7) 1922/3/14، ص 3، (8) 1922/3/21، ص 4، (9) 1922/3/28، ص4.
– نهضتنا الاجتماعية.– في : جريدة العصر الجديد، 1923/2/10، ص 2.

8- سياسة :

– الدساتير التونسية في التاريخ.– في : جريدة الصباح،

14/10/1954، ص 3.

– السياسة والدستور.– في : جريدة العصر الجديد، 10/3/1923، ص1.

– السياسة بعد عام.– في : جريدة العصر الجديد، 1/5/1923، ص 1.

– السياسة التونسية.– في : جريدة مرشد الأمّة، 10/10/1925، ص1.

– في سبيل تونس/ الواجب الانتخابي.– في : جريدة الاتّحاد، 1/12/1922 ص 4.

– النهوض السياسي و الاجتماعي.– في : جريدة العصر الجديد، 24/2/1923، ص1.

9- اقتصاد :

– الاجتماع و الاقتصاد السياسي.– في : جريدة البرهان، 24/1/1922، ص 3–4.

– دراسات اقتصادية.– في : جريدة الصباح، 14/9/1955، ص3.

– شيء من الاقتصاد الاجتماعي.– في : جريدة الاتّحاد، (1) 9/12/1922، ص3، (2) 15/12/1922، ص 3، (3) 29/12/1922، ص 3، (4) 5/1/1923، ص 3، (5) 12/1/1923، ص 2–3.

– صناعة الشاشية...– في مجلة اللطائف، أفريل 1955،ص 2–9، 56.

– نظرات في الاقتصاد التونسي.– في : جريدة الصباح، (1) 22/6/1955، ص 3، (2) 28/6/1955، ص 3، (3) 6/7/1955 ص3، (4) 17/7/1955، ص 3، (5) 30/7/1955، ص 3، (6) 10/8/1955، ص3، (7) 17/8/1955، ص 3، (8) 31/8/1955، ص3، (9) 8/9/1955، ص3.

10- علوم :

– الطبّ عند التونسيين.– في : مجلة الثريّا، مارس 1946، ص 6 – 7.

– «كتاب الفلاحة» لماغون القرطاجنّي/ أقدم أثر علمي تونسي.– في : مجلة تقويم المنصور، 1923، ص 55– 69.

– مؤتمر ضبط استعمال الأرقام في البلاد التونسية.– في : مجلة الإذاعة، 1964/1/6 ص 25.

11- فنــون :

– لمحة عن الموسيقى الأندلسية أو المالوف.– في : المجلة الصادقية (سلسلة جديدة)، ع 9، أفريل 1998، ص 40–42.

– "المالوف" تراث موسيقي ثمين.– في : نشرية التكريم، دار الثقافة ابن رشيق، تونس 1971، ص 19 – 22 = مؤتمر طبرقة للمالوف / مشاركة عثمان الكعّاك.– في : مجلة الإذاعة، 1963/8/12، ص 24– 27.

– الموسيقى التونسيّة في عهد الحفصيّين.– في : مجلة الجامعة، 1938/1/6، ص 219– 221.

12- عموميات :

– مزيج من القديم و الجديد . – في : مجلة المجال (أمريكا)، د.ت.

3- مقـالات بالفرنسيــة :

- Entretien avec Othman Kaâk/ c'estnotre civilisation qui dominera ce siècle.- in : El - Moujahid (Algérie),26/7/1973, P.11.

- Les noms de lieux en Tunisie.- in : La Presse,9/1/1974, P.3 ; à suivre.

- Palerme capitale arabe de la Sicile musulmane.-in : La Presse, 2/1/1974, P3.

- Ras El Am El Ajmi ou le premier jour de l'année julienne.- in : La Presse, 12/1/1974, P.3.

- Série de conférences données par Cheikh Othman El Kaâk.- in : El- Moujahid, 19 - 20/ 5/1974, P.13.

مغاربيّـات الكعّـاك (*)

I - **المغرب العربي / كتب :**

1- البربر ـ .تونس، دار المغرب العربي (سلسلة كتاب البعث) 1956، 144 ص، 18 سم.

2 - محاضرات في مراكز الثقافة في المغرب من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر ـ.القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية، 1958، 134 ص، 21 سم.

3 - الحضارة العربيّة في حوض البحر المتوسط ـ.مصر، 1956.

II- **المغرب العربي / مقالات :**

* 1- المغرب عربي ـ.مجلة الأسبوع، 1947/3/23 ص1 ،7.

* 2- مفهوم الثقافة المغربيّة ـ.حديث إذاعي لبرنامج " آخر ما ظهر " في 13/3/1962 وبآخره تاريخ 1962/4/5 (ع س) ؛ نشرة دار الكتب الوطنيّة ص 98 – 102.

3- الوحدة الثقافيّة للمغرب العربي ـ.مجلة الأصالة (الجزائر)، نوفمبر- ديسمبر 1972 ص19– 24.

4 - قضايا لغويّة في سبيل توحيد المغرب ـ. جريدة الصباح، 1972/6/8 ص 8؛ 1972/6/10 ص3.

5ـ نحو بعث موسوعة مغربية ـ. جريدة الصباح 1965/12/30 ص 4

6ـ دور المغرب في الآداب والفنون ـ. جريدة الصباح 1956/10/21ص3.

7– اللغة اللّوبيّة أو اللغة البربريّة القديمة ـ.مجلة العرب، محرّم 1342 هـ / 1923م، ص 145– 149.

8- العربية في المغرب أعجب من ملحمة ـ.جريدة الجندي، 1963/1/1 ص1.

9 - مجدنا البحري ـ. مجلة الثريّا، ماي 1946 ص8–9.

(*) رتّبناها حسب المواضيع بصفة تقريبية. وأشرنا إلى ما اخترناه منها في هذه المجموعة بنجمة (*)

III - تونس / كتب :

1- جغرافيّة المملكة التونسيّة للدرجة المتوسطة الأولى والثانية.ـ تونس، المكتبة الإفريقية، د.ت.، 64 ص، 27 سم.

2- العلاقات بين تونس وإيران عبر التاريخ.ـ الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1972، 227 ص، 21 سم.

3- المجتمع التونسي على عهد الأغالبة.ـ تونس، مطبعة العرب، د.ت.، 44 ص، 21 سم. [نشر أوّلا في تقويم المنصور].

4– الأدلّة البيّنة النورانيّة في مفاخر الدولة الحفصية / أحمد الشمّاع [تحقيق].ـ تونس، مطبعة العرب 1936، 208 ص، 26 سم.

5– جزر قرقنة في الأدب والتاريخ.ـ صفاقس، جمعيّة النهوض بالطالب القرقني 1955، 39 ص، 18 سم.

6 – الفرائد السَّنيّة في قصائد الإغاثة الوطنيّة [جمع] .ـ تونس 1941، 31 ص.

7– التقاليد والعادات التونسية الفلكلور التونسي.ـ تونس 1957، ط2/1963، الدار التونسية للنشر، تونس، ط 3/1972، ط 4/1981، 129ص، 21 سم.

8– ترتيب السماسرة للأبّياني / تحقيق.– في : مجلة العرب (تونس) وفي : ط. العاني ببغداد 1965، ص 3–22 مستل من مجلة كلية الشريعة ع 1 / 1965 باسم رسالة في السمسرة والسمسار وأحكامه (مجلة المورد، مج 10، ج2 ، س1981، ص 267...). أشار إليه في كتابه العلاقات بين تونس و إيران عبر التاريخ.– تونس 1972، ص 41.

9 – مصادر بيبليوغرافية عن ابن خلدون.ـ تونس 1957.

10– محيي الدين بن عبد الظاهر.ـ مكتبة النجاح، تونس 1956، 42 ص، 80 سم.

11– الشيخ أحمد الوافي.ـ تحـ. صالح المهدي، المعهد الرشيدي للموسيقى التونسية، تونس، 1982، 103 ص، 24 سم.

12 – مهرجان أبي القاسم الشابي/ الرحلة الشابيّة.ـ د.ن.تونس،

د.ن.،1966، 67 ص، 30 سم.

13– الأميرة عطف. نشر الجيلاني الفلاح، تونس 1929، 98 ص، 21 سم.

IV- تونس / مقالات:

أ - عموميات:

1– في الحضارة التونسية. مجلة الثريّا، أكتوبر-نوفمبر 1946 ص7–8.

2– في الحضارة التونسية: عصر الموسوعات. مجلّة الثريّا، ديسمبر 1946 ص1،3.

3– في الثقافة التونسية. مجلة المباحث ع29– 30، أوت - سبتمبر 1946 ص3،18.

4– الثقافة الزيتونيّة. مجلة الزيتونة 1954/7/23 ص3، 11 ؛ 1954/7/29 ص3، 11 ؛ 1954/8/5 ص 8 ؛ 1954/8/12 ص 6 ؛ 1954/8/26 ص 7 ؛ 1954/9/2 ص 4 ؛ 1954/9/12 ص 4؛ 1954/9/19 ص 4 ؛ 1954/10/6 ص 8 ؛ 1954/10/27 ص3، 11.

ب - علاقات:

1– الفنون والآداب بين تونس والعراق. مجلة هنا بغداد، آب (أوت) 1957 ص6–7.

ج - أعلام:

1–رحلة علقون القرطاجني-. مجلّة العرب، محرّم 1342هـ/1923م ص42– 45.

2– كتاب الفلاحة لماغون القرطاجنّي: أقدم أثر علمي تونسي. مجلّة تقويم المنصور 1923 ص55، 69.

3– ابن رشيق / الرجل الأديب والمؤلّف. جريدة الصباح، 1968/5/25 ص 4 ؛ 1968/5/30 ص4، 7 ؛ 1968/6/6 ص4، 7 ؛ 1968/6/13 ص4.

4– رحلة مع ابن رشيق. مجلة الإذاعة، 1/3/1968ص 36–37.

5– جعفر بن شرف القيرواني. مجلة الأفكار، 1/1/1937 ص 102- 106.

6– جعفر بن شرف الشاعر.مجلة الجامعة، فيفري 1938 ص 246 – 248 ؛ مارس 1938 ص289.

7– الإمام المازري يثير حوارا خصبا بين الأساتذة، شارك فيه عثمان الكعاك. مجلة الإذاعة والتلفزة، أكتوبر 1975 ص23.

8– ابن خلدون خرّيج " الزيتونة". مجلة الزيتونة،1/2/1956ص8.

9– مصادر التاريخ الروماني عند ابن خلدون. مجلة الأسبوع، 1/1/1951 ص8، 33 ؛ 15/1/1951 ص 9 ؛ 22/1/1951 ص2.

10– المراجع عن ابن خلدون. جريدة الصباح 30/9/1959 ص4.

11– أبو الصلت أميّة بن عبد العزيز. نشرة الجمعية الخلدونيّة 1930 ص 63 – 91.

12– أبو الحسن علي اللخمي. مجلة الأسبوع، 9/2/1947 ص2.

13– حمّودة بن عبد العزيز. مجلّة المباحث ع40، جويلية1947، ص3،4 ،9 ، 12 ؛ ع41، أوت 1947 ص3،7.

14 – الشيخ معاوية التميمي بمدينة باريس. المجلة الزيتونية، جوان 1944 ص171 – 176.

15– ذكرى أبي القاسم الشابي / مشاركة عثمان الكعاك. مجلة الإذاعة 7/3/1966 ص 22، 27، 56.

16– الهاشمي المكّي.مجلة الإذاعة، ديسمبر 1971 ص 18.

17– شيخ الآدباء كأنّك تراه / في التعريف بالعربي الكبادي-.مجلة الفكر، أفريل 1961 ص 21–28.

18– رجال الفكر والثقافة يكرمون الهادي العبيدي / كلمة عثمان الكعاك. جريدة الصباح، 1/7/1971 ص 4،7.

19– حفل تتويج لثلاثين عاما من النضال الصحفي والإذاعي لعبد العزيز العروي / مشاركة عثمان الكعاك. مجلة الإذاعة 15/6/1971 ص25– 26.

20– في حفل أربعينية عبد العزيز العروي / مشاركة عثمان الكعّاك.
مجلة الإذاعة 15/9/1971 ص27،31.

21 – أحمد الوافي ـ. مقدمة السفر الخامس من " التراث الموسيقي التونسي /نوبتا السيكاه والحسين"، وزارة الشؤون الثقافية والأخبار، تونس، د.ت.، ص 5– 20 بآخر السفر الملخصان الفرنسي والأنجليزي (أعيد نشره في كتاب مستقل : الشيخ أحمد الوافي.– تحقيق ودراسة فنية لصالح المهدي، المعهد الرشيدي للمرسيقى التونسية، تونس 1982).

*22– مرابطون وأربطة ـ. مجلة الهداية، جويلية 1974، ص.82– 84.

د - مـدن:

*1– تاريخ القيروان والأطوار التي مرّت بها من عهد الفتح الإسلامي إلى عهد الاستقلال ـ. جريدة الصباح، 14/5/1962 ص 4–5.

2– مدينة سوسة كما أتصورّها في التاريخ ـ. مجلة المباحث ع27- 28 ، جوان-جويلية 1946 ص3، 10، 20 (من وحي الخيال).

3– جوهرة الساحل بين التاريخ والاجتماع ـ. جريدة الأسبوع، 9/6/1946 ص6.

4– تاريخ صفاقس من مصادره الأصليّة ـ. مجلة مكارم الأخلاق 15 شوّال 1355 هـ/1936م، ص 194 – 198 ؛ 15 ذو القعدة 1355 هـ ، ص 276 – 278 ؛ 1ذو الحجّة 1355 هـ ، ص318 – 320 ؛ 1 محرّم 1356 هـ/1937م، ص 390 – 393 ؛ 1 ربيع الأوّل 1356 هـ ، ص 494 – 496 ؛ 1 ربيع الثاني1356 هـ ،ص 543 – 544 ؛ 1 جمادى الأولى 1356 هـ ، ص. 590 – 592.

*5– إتحاف الظّراف في تاريخ الكاف ـ. مجلة المباحث ع35، فيفري 1947 ص 3 ،8 ، 9 ؛ ع37، أفريل 1947 ص3، 5 ؛ ع38، ماي 1947 ص3، 4، 11.

* في : نشرية التكريم، ديسمبر 1971، ص 14–18.

6– مجاز الباب عبر التاريخ ـ. جريدة الصباح، 1965/12/23 ص 4.

7– وصف القرى الأندلسيّة نقلا عن رحلة بيسونال. مجلة المباحث ع9، ديسمبر 1944 ص3 ، 8 ؛ ع10، جانفي 1945 ص3، 5 ؛ ع11، فيفري 1945 ص3 – 4 – 5 (عرب الرحلة كاملة محمد العربي السنوسي وصدرت مع الأصل الفرنسي عن ميدياكوم ومركز النشر الجامعي بتونس سنة 2004).

8– التاريخ التونسي / المدن الأندلسيّة بالقطر التونسي. جريدة الأسبوع، 1953/2/2 ص 2 ؛ 1953/2/9 ص 2 ؛ 1953/2/16 ص2، 7؛ 1953/2/23 ص2، 7 ؛ 1953/3/2 ص 4 ؛ 1953/3/9 ص2 ؛ 1953/3/16 ص2 ؛ 1953/3/23 ص 2 ؛ 1953/3/30 ص 2 ؛ 1953/4/13 ص 4 ؛ 1953/4/20 ص 2 ؛ 1953/4/27 ص 2 .

9– رحلة إلى القيروان

هـ - طوبونيمياء (علم الأعلام الجغرافية):

*1– تفسير أسماء أمكنة غريبة بتونس. في : مجلة الهداية، أفريل 1974 ص 83– 85.

2- les noms de lieux en Tunisie.- La Presse,9/1/1974, P.3, à suivre.

و- تاريخ وآثار:

*1– التاريخ الحفصي من مصادره المجهولة. مجلة العالم الأدبي 1932/5/23 ص2–7 ؛ مجلة المباحث، ع7، أكتوبر 1944 ص3 ،10، 12.

2– الآثار التونسية وحمايتها -. مجلة المباحث ع34، جانفي 1947 ص 3، 10.

*3– جامع سيدي البغدادي ـ. مجلة الهداية، أكتوبر1975، ص 116.

*4– أشغال الريّ في التمدن التونسي.–مجلة الثريّا، ماي 1945 ص 22–24.

ز- دين:

*1– الأزمات الدينية في التاريخ التونسي ـ. المجلة الزيتونية، جوان

1945 ص352 – 353 (لم يكمله).

2- آخر دراسة لمؤرّخ تونس. مجلة الحياة الثقافية، سبتمبر- أكتوبر 1976 ص 18 – 28.

ح - سياسة :

1– في سبيل تونس : الواجب الانتخابي. جريدة الاتحاد 1922/12/1 ص 4.

2– السياسة التونسية . جريدة مرشد الأمّة، 1925/10/10 ص1.

3– الدساتير التونسية في التاريخ. جريدة الصباح 1954/10/14 ص 3.

ط - اقتصاد :

1– نظرات في الاقتصاد التونسي- . جريدة الصباح، 1955/6/22 ص 3 ؛ 1955/6/28 ص 3 ؛ 1955/7/6 ص 3؛ 1955/7/17 ص 3 ؛ 1955/7/30 ص 3 ؛ 1955/8/10 ص 3 ؛ 1955/8/17 ص 3؛ 1955/8/31 ص 3 ؛ 1955/9/8 ص 3.

2– الأسواق التونسية. مجلة الندوة، ماي 1954 ص 8–9 ؛ سبتمبر - أكتوبر 1954 ص3، 5 .

3– التاريخ التونسي / الصناعات الناريّة في التمدّن التونسي . مجلة الثريّا، أوت - سبتمبر 1946 ص9– 11.

*4– صناعة الشاشية- ... مجلة اللطائف، أفريل1955، ص 2– 9، 56.

ي - طـبّ:

1– الطبّ عند التونسيين. مجلة الثريّا، مارس 1946 ص6–7.

ك - توثيق :

1– المكتبة في تونس منذ أربعة آلاف سنة وإلى اليوم. مجلة اللطائف، نوفمبر 1955 ص24 ،27 ، 58.

*2– صناعة الكتاب بالقيروان. مجلة المباحث ع25، أفريل 1946 ص13.

3– بيت الحكمة / الجامعة التونسية التي أضاءت أوروبا. مجلة الإذاعة، 1961/5/1 ص19.

*4– الوساطة في الخطاطة.ـ مجلّة المباحث ع 42 – 43، سبتمبر - أكتوبر 1947 ص 3، 13،18، 19.

5– مؤتمر ضبط استعمال الأرقام في البلاد التونسية.ـ مجلة الإذاعة، 1964/1/6 ص 25.

ل - تعليم:

1– تقديم كتاب "آداب المعلّمين" لابن سحنون/تح.ح.ح عبد الوهاب .ـمجلة العالم الأدبي 1932/3/7 ص 16– 17.

2– صفاقس ومسألة التعليم .ـجريدة العصر الجديد، 1923/5/1 ص1.

م - أدب:

1– الأدباء التونسيّون في "تاريخ الآداب العربية" / بروكلمان (تعريب).ـ مجلة العالم الأدبي 1934/2/19 ص 95 – 97 ؛ أفريل 1935 ص 116 – 118.

2– تراثنا الأدبي/ تاريخ الأدب التونسي نقلا عن بروكلمان [تعريب] .ـ. مجلة الثريّا، أكتوبر 1944 ص 6، 7، 36 ؛ نوفمبر 1944 ص7– 9 ؛ ديسمبر 1944 ص11–13.

جانفي 1945 ص 9–10؛ فيفري 1945ص 9–10، مارس 1945 ص 3–6 ، جوان 1945 ص 4–5، جويلية 1945 ص 9–11، سبتمبر 1945 ص 26– 29 ، ديسمبر 1945 ص 9–12.

3– تراثنا الأدبي : النبوغ الشعري في عهد الفاطميين.ـ مجلة الثريّا، جوان -جويلية 1946 ص 9، 10، 13.

*4– حقبة ماجدة من الأدب التونسي.ـ مجلة المباحث ع39، جوان 1939 ص3،9.

5– الأدب التونسي في العهد العثماني.ـ جريدة الصباح 1969/2/20 ص 3.

6– الأدب التونسي بسوسة في العهد العثماني.ـ جريدة الصباح

1969/3/4 ص3.

7– معجزة تونس الأدبية. مجلة هنا بغداد، أيلول (سبتمبر) 1957 ص3–5.

8– الحركة الأدبية في تونس. مجلة المكتبة، حزيران ( ) 1963 ص 13.

9– الرواية التاريخية التونسية وأثرها في مستقبل أدبنا. جريدة الزمان 1938/12/8 ص 3.

10– حول القصّة التونسيّة. مجلة الفكر، أكتوبر 1985 ص 94 – 98.

ن - لغة :

1– اللغات التونسية. جريدة البرهان، 1921/6/13 ص 4 ؛ 1921/6/20 ص 4؛ 1921/6/27 ص3.

2– تاريخ اللغات التونسية. مجلة اللغات، أكتوبر 1961 ص 2–3 ؛ نوفمبر 1961 ص 2–5.

3– الانشطار والازدواج اللغوي في تونس. مجلة الإذاعة، 1968/1/15 ص27 – 28.

س - مسرح :

1– تاريخ المسرح التونسي. مجلة المباحث، ع 15، جوان 1945 ص3، 6 ؛ ع 16، جويلية 1945 ص3،6، 7 ؛ ع17، أوت 1945 ص3، 6، 7؛ ع 18، سبتمبر 1945 ص 3،10، 11 ؛ ع 19، أكتوبر 1945 ص3،6، 12 ؛ ع21، ديسمبر 1945 ص3،4، 5 ؛ع 22، جانفي 1946 ص3، 11 ؛ ع 33، ديسمبر 1946 ص3،9.

2– نشأة المسرح الروماني بدقّة والأدوار التاريخية التي مرّ بها. جريدة الأسبوع، 1946/6/23 ص8.

ع - موسيقى :

1– الموسيقى التونسية في عهد الحفصيين. مجلة الجامعة، 1938/1/6 ص219– 221.

* 2– المالوف تراث موسيقي ثمين-. مجلّة الإذاعة 1963/8/12ص 24– 27 ؛ نشرية دار الثقافة ابن رشيق، ديسمبر 1971 ص 19 - 22.

* 3– لمحة عن الموسيقى الأندلسية أو المالوف ـ. المجلة الصادقية (سلسلة جديدة)، ع 9، أفريل 1998 ص 40– 42.

ف - تقاليد :

*1– أطفال تونس و ألعابهم.– مجلة " المرأة" (تونس) ع13، جوان – جويلية 1976، ص 16 – 21.

*2– الأعياد الموسمية في تونس.– المجلة الصادقية (سلسلة جديدة) ع 18، أفريل 2000، ص 66– 68.

3- Ras El Am El Ajmi ou le premier jour de l'année julienne.- La Presse 12/1/1974, P.3.

ص - خواطر:

*1– الحنين إلى الوطن ـ.جريدة النديم، فيفري1928 ص 13 – 14 ؛ نشرية دار الثقافة ابن رشيق، ديسمبر 1971، ص 8–9 .

*1 – رحلة إلى القيروان.– نشرية التكريم، ديسمبر 1971، ص14–18.

ق - تقديم:

1– تقديم ديوان « أغاني أحمد خير الدين ».– تونس 1968، ص 5–20

2– تقديم مجلة " الأندلس" عن جمعية المؤلفين والكتّاب التونسيين ـ.جريدة لسان الشعب 1932/8/12 ص 3.

V - الجزائر/ كتب :

1– موجز التاريخ العام للجزائر منذ العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي ـ. مكتبة العرب، تونس، 1344 هـ/1926 م،448 ص،16 سم.

2– بلاغة العرب في الجزائر-. مكتبة العرب، تونس، د.ت.، 81 ص،16 سم.

3– المقرّي ـ. جمعية الاتحاد الثقافي لعمّال قابس، تونس، د.ت.، 79 ص،21 سم.

VI- **الجزائـر / مقـالات :**

1- الجزائر والحضارة.ـ جريدة وادي ميزاب (الجزائر) 1926/10/22 ص2-3.

2- أصالة الثقافة الجزائرية في القديم والحاضر والمستقبل ومدى انتشارها وتأثيرها في العالم الخارجي.ـ مجلّة الأصالة (الجزائر)، ماي -جوان 1972 ص195.

*3- الثورة الجزائرية من 1830 إلى 1956.- مجلّة الندوة، ديسمبر 1956 ص 7-10 ؛ جانفي - فيفري 1957 ص63 - 65.

4- موقف المؤرّخين الأجانب من تاريخ الجزائر.ـ مجلّة الأصالة (الجزائر) ماي -جوان -جويلية -أوت 1973 ص139 - 153.

5- عنّابة قبل الإسلام.ـ مجلّة الأصالة (الجزائر)، جوان - جويلية 1976 ص40 - 65.

6- عقبة بن نافع وأحمد بن بلّة.ـ جريدة الصباح، 1956/11/1 ص4.

7- الأدب الجزائري. ـمجلّة الفكر، نوفمبر 1959 ص20 - 23.

8- قيمة الأدب الجزائري.ـ مجلّة الأسبوع، 1949/3/14 ص59.

9- ملحمة منتصف الليل.ـ مجلّة الأصالة (الجزائر) أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر 1974 ص103 - 112.

10- المبدأ الشعبي.ـ جريدة وادي ميزاب (الجزائر) 1926/10/8 ص 2.

11- محاضرة للأستاذ الكعّاك في عين البيضاء.ـ جريدة الشعب (الجزائر) 1974/4/19 ص 5.

12- سلسلة من المحاضرات للمؤرّخ عثمان الكعّاك بتلمسان.ـ جريدة الشعب (الجزائر)، 1974/5/18 ص 2.

VII - **المغـرب / مقـالات :**

1- عثمان الكعّاك يحاضر في كلّيّة الآداب بالمغرب.ـ جريدة الصباح 1965/10/28 ص 4.

VIII - **ليبيا / مقالات :**

1– المعاهد الدينية في القطر الليبي.ـ المجلّة الزيتونية، مارس 1952 ص.36 – 40 (في الحلقتين الثانية والثالثة يصبح العنوان : جوامع القطر الليبي. (انظر أسفله).

2– جوامع القطر الليبي.ـ المجلّة الزيتونية، أفريل 1953 ص141 – 144؛ ماي 1953 ص 171 – 172. (بقية المقال السابق : المعاهد الدينية...).

3– المكتبات في ليبيا.ـ مجلة عالم المكتبات، مارس- أفريل 1963 ص7،8،27.

4– ارتسامات عن ليبيا الشقيقة.ـ مجلة الفكر، جانفي 1947ص3،10.

5– نفحة من أصداء عمر المختار وزيارة ميادين جهاده في الجبل الأخضر بشرق برقة ووقفة على ضريحه في بنغازي.ـ مجلة الإخاء 16 آذار (ماي) 1968 ص10، 32.

IX - **صقلية الإسلامية / كتب :**

1 – بَالرَّمُ كأنّك تراها.ـ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، د.ت.،28 ص، 24 سم.

X - **صقلية الإسلامية / مقالات :**

1– الاستعمار التونسي بصقليّة.ـ مجلة تقويم المنصور، 1926 ص69،119.

2– الملتقى العاشر للفكر الإسلامي في يومه السابع / حديث عن الدور الحضاري لصقليّة الإسلامية.ـ جريدة الشعب (الجزائر) 1976/7/17 ص 1.

3– مؤرّخ تونس ...وحافظ دار الكتب الوطنيّة ...الكعاّك يحدّثنا عمّا وجده في رحلته إلى صقليّة من ذخائر وآثار الفتح التونسي هناك.ـ

جريدة الصباح، 1/6/1959 ص 3 ؛ 27/6/1959 ص 3 ؛ 30/6/1959 ص 4.

4- Palerme : Capitale arabe de la Sicile musulmane.- La Presse, 2/1/1974,P.3.

ملحق / أحاديث :

* 1– أدباؤنا بأقلامهم/ الأستاذ عثمان الكعاك.- مجلة الندوة، أفريل 1956 ص 53– 62 ؛ نشرة دار الكتب الوطنية ص87 – 96.

2– الأكفاء في المناصب العلمية / استجواب الأستاذ عثمان الكعّاك حافظ القسم العربي بدار الكتب الوطنية._ مجلة الثريا، سبتمبر 1944 ص 7.

3– تحدّث الأستاذ عثمان الكعّاك رئيس لجنة الآثار التونسية فقال لي : «...–مجلة الأسبوع، 6/7/1947 ص 2 [استجواب].

4– جواب ...عثمان الكعّاك عن استفتاء" الفكر "بتاريخ غرّة مارس 1959.– مجلة الفكر، أفريل 1959 ص3–7.

* 5– الكيب (نجم الدين غالب) : شخصيات من الشرق والغرب [عثمان الكعّاك] ._ بيروت 1969 ص 133 – 144 [استجواب].

6– حديث طويل مع الأستاذ عثمان الكعّاك / سارة عبد المقصود._ جريدة الصباح، 7/9/1974 ص 7.

7– حوار مع عثمان الكعّاك حول حصّة من " من مطاوي التاريخ " التلفزيّة._ مجلة الإذاعة والتلفزة، 1/2/1985 ص10– 12.

8- Entretien avec Othman Kaâk / C'est notre civilisation qui dominera ce siècle.- El-Moujahid (Algérie), 26/7/1973, P. 11.

أدباؤنا بأقلامهم : الأستاذ عثمان الكعّاك (*)

مؤرخنا الأستاذ عثمان الكعّاك معروف لدى أدباء الجيلين الحاضر والماضي. ولكن باب " أدباؤنا بأقلامهم " يريد أن يقدمه في هذا العدد من " الندوة " ليكشف بقلمه عن جوانب من حياته الخصبة الجادة، بما يجيب عنه من أسئلة.

- ما رأي الأستاذ في هذا الباب الذي فتحته «الندوة» لربط الصلة بين جيلين من الأدباء ؟ وهل يقترح عملا غيره لتمتين الصلة بين أدباء الشباب وأدباء الجيل الماضي ؟

- لا شكّ أنّ هذا الباب طريف ونافع ومتحتّم في الآن الواحد. فهو طريف لما يفترضه من استجواب يؤول حتما إلى استخراج كنوز الأفكار المتوارية والمقاصد المكتتمة والآراء الخجولة التي لا تريد الظهور؛ وهو نافع لأنّه يبيّن مناهج التفكير ويكشف عمّا في قرارة النفوس من آراء في الأشياء والشؤون والعباد، ومتحتّم لأنّه شبه اعترافات" آخر ساعة " نستطيع أن نستجلي منها النظم التفكيرية والبرامج العملية، وهو نافع على الخصوص لأنّه خطّ الصلة بين عهدين وواسطة العقد بين جيلين، وكدت أن أقول بين لونين من الحضارة، فنحن في منعرج من حياتنا العامة ومن ثقافتنا ومن تسعير قيمنا الوطنية، ونحن بين جاذبية الحضارة التونسية المتولّدة من خلاصة حضارات البحر الأبيض المتوسط البونيقية والمغربية واليونانية واللاتينية والبربرية وبين جاذبية الحضارة الإسلامية التي ورثت خلاصة المعنويات والماديات الشرقية من صينية وهندية وفارسية ويونانية وزادت عليها وتقدمت بها خطى شاسعة إلى الأمام، وبين جاذبية الحضارة الغربية التي سحرتنا أو سحرت البعض منّا بمظاهرها المادية التي تخلب لأول نظرة سطحية دون تمحيص أو تمييز.

(*) مجلّة الندوة، أفريل 1956،ص 53 – 62 ؛ نشرة دار الكتب الوطنية ص 87 – 96.

ويظهر أنّ الجيل الأوّل أي جيلنا نحن متمسّك غاية التمسّك بالحضارتين الأخيرتين. ويظهر أنّ الجيل الصاعد يريد أن يطرح عنه التقيّد بلون من ألوان الحضارات لينشر حضارة خاصة به، وهذا يجوز مبدئيا. إلاّ أنّ الأمم تعيش مع بعضها وتحمل فوق ظهورها أعباء ماضيها فلا بدّ لها أحبّت أم كرهت أن تتقيّد بماضيها من جهة وأن تساير أبناء عصرها بما جدّ في الآداب والعلوم والفنون والفلسفات وألوان الحضارات من جهة أخرى، فالمسألة ترجع إذن إلى اختيار نسب وجعل إطار وسلّم ومقاييس للاحتفاظ به من الحضارات القديمة واقتباس ما يجب اقتباسه من الحضارات المعاصرة، وهذا هو الذي يجب أن يبيّنه الجيل الأول للجيل الثاني ويقنعه به، فلا سبيل أن نعرف هارون الرشيد وإبراهيم بن الأغلب فقط دون أن نعرف لويس الرابع عشر، ولا أن نعرف لويس الرابع عشر فقط دون أن نعرف هانري الثامن وفريديريك الأكبر وبطرس الأعظم وإبراهيم لنكوان.

ولا سبيل أن نعرف الغزالي دون ديكارت ولا ديكارت دون الغزالي ولا كليهما دون فيخت وهيوم وأونامونو وتغنر ودوستويفسكي وقامويننش.

فنحن الآباء الروحيين ومعشر الأساتذة على الخصوص من أصحاب الجيل الأوّل مسؤولون على تبيين الحقائق لأبناء الجيل الثاني وإقناعهم بها وترسيخها في أذهانهم وتوجيههم نحو إيجاد الصيغة الموفّقة لحضارتنا وثقافتنا في مستقبل الأيّام.

- أنتم عندنا من أبرز أدبائنا، ما في ذلك شكّ، فإلى أيّ طور من أطوار حياتكم يعود اشتغالكم بالأدب تكونا وإنتاجا؟

حياتي من هذه الناحية غريبة الأطوار، فقد كنت إلى سنّ الثالثة عشرة من حياتي احتقر اللغة العربية وأدبها وأهزأ بالحضارة العربية والتاريخ الإسلامي وأرى أنّه من العبث تعلم العربية بل الواجب هو تعلّم اللغة الفرنسية واللغة الفرنسية ليس إلا، وكنت

أحمد الله كثيرا على أنّي لا أعرف شيئا من لسان العرب حتّى ولو مجرّد الحروف . وفي شهر ماي 1910 لمّا دخلت تركيا الحرب ضدّ الحلفاء كنت ماراً بـ" الموالحية " وعلى رأسي شاشية "مجيدي" حسب العادة، فأدركتني كوكبة من الجنود وصفعني أحدهم وبعثرني على الأرض وداس الشاشية. فمن ذلك التاريخ أقبلت على تعلّم العربية وآدابها بحزم ما عليه من مزيد، وأخذت في تعلّم اللغة الألمانية باجتهاد عظيم حتّى حذقتها وكنت أتحدّث بها في السرّ مع معلم الرياضيات بالصادقية وأواري كتبها تحت المحشاة وفي السدّة التي فوق الفراش وأطالع دروسها بإطالة الإقامة في المتوضإ حتّى لا يعلم ذلك أحد، وأسست مع صديقي الحكيم أحمد بن ميلاد جمعية بالصادقية لتعليم المفردات الاصطلاحية في الرياضيات والحسابيات، فكنّا نجمع المفردات ونعلمها لأصحابها. وكان صديقنا الحبيب جاوحدو ينظم العلوم أراجيز ومتونا من الكيمياء ودروس الأحياء وغيرها.

وفي الآن نفسه كنت أزاحم صديقي الحكيم الزاوش في تعلّم الإنكليزية وصديقي الحكيم الشاذلي زويتن في تعلّم الإيطالية، وأقبلت على انتهاب مكتبة أخي عبد الرحمان رحمه الله، وأول ما طالعت كتاب "حديث عيسى بن هشام"، ثم قضيت عامين أطالع بتلهّف ما يوجد من مكتبة المقدس المبرور سيدي محمد الصادق باي بالمرسى حتّى قرأت زيدان كله و"وفيات الأعيان "وكل ما فيها من كتب تاريخية. ثم أقبلت على مكتبة خزنه دار بالمرسى أيضا فطالعت ما فيها من كتب الأدب والطبّ والعلوم، كل ذلك خلال سنوات الحرب الأولى وبعد الهدنة بقليل. وفي سنة 1919 رفع الحجز عن الصحف التونسية فكنت أطالعها بتلهّف ثم صرت أحرّر فيها المقالات الأدبية والخيالية والاجتماعية والتاريخية خصوصا في" الوزير " و" الصواب " و" لسان الشعب". وكنت أنشر المقالات

التاريخية بمجلة الفجر التي نشرها الحزب الدستوري بعد الهدنة، وكانت آخر مقالة نشرتها بها في عددها الثاني عشر والأخير وموضوعها" تاريخ الأدب التونسي قبل الإسلام وبعده "لضرورة اعتقادي أنّنا نحتاج إلى دراسة أدبنا جاهلية وإسلاما، وانقلبت إلى نشر المقالات السياسية سنة 1922 عند صدور إصلاحات "لوسيان سان" فانتقدتها الانتقاد المرّ وبيّنت أنّ الدستور التونسي هو أقدم دساتير العالم وهو دستور الجيروزية الذي وضعه أجدادنا القرطاجنيون ونقله عنهم اليونان ثم الرومان ثم الفرنسيون، فتلك بضاعتنا ردت إلينا.

وكانت توجد جمعيات أدبية كثيرة، منها قدماء الصادقية والخلدونية والجمعية الزيتونية، فألقيت أول محاضرة لي بقدماء الصادقية سنة 1924، وتوالت محاضراتي الأدبية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والتاريخية، وكلّها بالعربية والحمد لله. ثم وجب أن أنتظم من جديد في سلك التعلّم النظامي فأعددت شهادات الإجازة واللغات الشرقية فتعرفت إلى الأدب الفارسي من أصل لغته وإلى الأدب التركي مثله وأخذت أتضلّع في الأدب العربي، فانحرفت قليلا عن مهنتي الأولى التي هي التاريخ وأقبلت بالزيادة على مهنتي الثانية التي هي الأدب.

- هل في مطالعاتكم العربيّة أو الأجنبيّة ما تنصحون به شباب اليوم؟ وما مدى تأثيرهم فيكم ؟

- لي صفتان تسمحان لي أو على الأصح تأمراني بأن أنصح الشبّاب في مطالعاته المختارة وأوجّهه إليها توجيها، فمن حيث أني أستاذ للآداب فهذا واجب أول، ومن حيث أنّي مدير مكتبة فهذا واجب ثان، وواجبنا نحن الأساتذة ألاّ نعلّم النشء أدبا ما ولا أن نقتصر على أن نفسر له صحائف ما ولكن أن نوجهه إلى المطالعة الذاتية الكفيلة بتكوين ذوقه وتدريبه على المقاييس النقدية

الصحيحة التي يستطيع أن يختار بها مباشرة ويعبر بها بمحض اشتراعه دون احتياج إلى أستاذ، وذلك بأن ندربه أولا على فن النقد الداخلي والخارجي وعلى فن اختيار الكتب، فالنقدان الأولان يعتمدان على الخطاطة عموما والفن الثالث يعتمد على علم المراجع والمصادر وهذه هي بالضبط العلوم التي كلفت بتدريسها في المعهد، فأنا صناعيا هذه مهنتي، وأنا وضعيا هذه مهنتي أيضا، فما هو دوري الأصيل بالمكتبة إن لم يكن هذا ؟ وأضيف إلى ذلك مطالعتي في الأدب العربي أو الآداب الأجنبية التي عرفتها في لغاتها أو في المترجمات عنها، وهناك عقبة كؤود تضايقني في مهمتي، وهي اختلاف الذوق بين جيل وجيل، فيجب توطين النفس على أن الاختيار الشخصي للأستاذ وذوقه الشخصي لا يجب أن يكونا موجب تعسف واحتداد من طرفه، فالألوان والأذواق لا جدال فيها، ومن جانب آخر يجب على الأستاذ أن يسير بلباقة وكياسة وحذق في أمر مطالعة النشء إذ المطالعة سلاح ذو حدّين فتستطيع أن تسمم فكر صاحبها إلى الأبد كما تستطيع أن تنير فكره إلى الأبد، وهنا عقدة الموضوع. لا شك أن الشباب يميل إلى المطالعة السهلة الخفيفة، هذه ملاحظة أولى، ولا شك أنه يميل نوعا ما إلى الأدب الغرامي، هذه ملاحظة ثانية. ولا شكّ أنّه يميل إلى الأدب المترجم، فهذه ملاحظة ثالثة. ومجموع هذه الملاحظات يحول دون مطالعة الطيّب من الأدب العربي، فالأدب العربي إمّا أدب دسم متزمت ينفر الشباب، وإما أدب خليع نريد أن ننفر منه الشباب. فالخطة الدقيقة هي العثور على مصنفات عربية دسمة ومستساغة ومتزمتة ومرحة في الآن الواحد. وهذه المصنفات فيما أعتقد هي "كليلة ودمنة " و" الأدب الصغير" و" الأدب الكبير" لابن المقفّع بالإضافة إلى الأدب الأموي ؛ ومختارات " الأغاني" وطبعات " ألف ليلة وليلة " المطهرة و" البخلاء" للجاحظ و"نشوار المحاضرة"

للتنوخي و"مقامات" الهمذاني والحريري و"رسائل" الخوارزمي والهمداني بالإضافة إلى الأدب العباسي، و"نفح الطيب" و"حي بن يقظان" بالإضافة إلى الأدب الأندلسي و"رسائل" ابن رشيق وابن شرف و"ديوان" تميم بن المعز و"مقدمة" ابن خلدون و" المغرب" لابن سعيد بالإضافة إلى الأدب التونسي ومصنّفات ابن ظفر و"ديوان" ابن حمديس بالإضافة إلى الأدب الصقلي وزيدان والمنفلوطي وميخائيل نعيمة والريحاني والزهاوي والرصافي وحافظ إبراهيم ومصطفى آغة وخزندار والشابي بالإضافة إلى الأدب العصري.

وأمّا الآداب الأجنبية فأخصها عندنا الفرنسية ثم الإنكليزية، والكلاسيكيات فيهما معروفة مقررة، وأمّا الآداب الأخرى فمن سوء الحظ أنّ الشباب العربي يجهلها على وجه العموم، أو أنّ كل أمّة عربية تعرف أدب الأمّة التي كانت مستولية عليها. فالريفيون يعرفون الأدب الإسباني لا غير، والليبيون كانوا يعرفون الأدب الإيطالي، وهلم جراً .والرأي عندنا هو أن نحول هذه الحالة الأسيفة إلى حالة مسرة وذلك بأن العالم العربي الموحدّ يكلّف نخبة كل أمة من الأمم أن تترجم من لغة المحتل القديم كتبا ماثلة في قائمة مختارة، فالريفيون يترجمون عن الإسبانية والمغاربة والجزائريون والتونسيون والسوريون واللبنانيون عن الفرنسية، والليبيون عن الإيطالية، والمصريون عن الإنكليزية، والعراقيون عن التركية والفارسية، وهلمّ جراً.

وما بقي من اللغات المجهولة لدينا نترجمه عن اللغات المعروفة لدينا، وبذلك يتمكن الشباب العربي من معرفة آداب الأمم دون أن يقتصر على لغة أجنبية واحدة يتعود بها ويعتقدها هي المثلى ولا توجد لغة غيرها ولا معرفة سواها ولا أدب إلا أدبها ولا علم إلا علمها. وهذا غرور واغترار وقصور واقتصار وخراب ودمار وعار وشنار.

وتوجد باللغات الأجنبية كتب إرشادية تتمشى مع أسنان المطالعين ومدى ثقافتهم، ترشدهم إلى أحسن ما يطالعونه في أية مادة من آدابهم القومية أو من الآداب الأجنبية، فيجب أن تضع الأمم العربية المتجمعة من الرباط إلى بغداد كتابا من هذا القبيل تنفق عليه ليكون عدّة المطالعين ويتخرج به شباب عربي متماثل الثقافة متوحد التفكير ومتطابق الإخراج.

إنّ ما طالعته من الكتب العربية أو الأجنبية قد كوّن فيّ ثقافة عامة تمتدّ سطحا إذا لم تمتد عمقا. وقد سمح لي بأن أعرف شيئا من الأدب المقارن الذي أتعشقه عشقا. وقد علمت منه مآخذ كل أمة عن أختها، فعرفت ما أخذه العرب عن الفرس واليونان وما أخذه الإفرنج عن العرب ثم ما يأخذه العرب عن الإفرنج الآن. فزال من نفسي الإعجاب بالآداب الأجنبية وطهرت عقلي من مركّب النقص الذي يجعلني أفضل أدبا بعينه لأنّي أجهل غيره من الآداب وحملني هذا على أن أقدّر كل أدب حق تقديره بمعايير مسلمة وأن أعرف لكل أدب حقّه، فعلمت من ذلك أنّ الأدب العربي كائن حي. أي متطور ومساير لكل حركة علمية أو أدبية أو فنية، وأنّه أدب عالمي لا أدب أمة صغيرة مطوية على نفسها، وأنّه لا يحتاج إلى مساندة أي أدب أجنبي إلاّ من طريق الترجمة، وهذا مقدار مشترك.

- إلى أي حدّ تعولون على التكوين المدرسي في إبراز الأديب ؟ وهل تظنون أنّ للمدرسة تأثيرا عليكم في هذا المجال ؟ وما أهم المراحل الدراسية التي مررتم بها ؟

- إنّ المدرسة - حتّى إذا كانت معهدا عاليا - ليست في الحقيقة إلاّ وسيلة لا غاية في ذاتها. فالتعليم المدرسي تكييف وإعداد وتخريج يعدّ للتعليم "خارج المدرسة" أو ما بعد المدرسة.

لذلك فالتعويل على المدرسة في إبراز الأديب هو تعويل محدود ومضبوط، فهو إعداد آلي ميكانيكي وتكوين عام دون دخول في التفصيلات ودون تخطيط لتقاطيع شخصية الأديب.

لنفرض أن زيدا يريد أن يكون شاعرا فهنالك ثلاثة شروط، الأول أن تكون الشاعرية في نفسه في حالة كمون وكالنباتة التي تكون في حالة كمون داخل البذرة أو النقف الذي يكون في حالة كمون في البيضة، والمدرسة هي التي تفتق هذه الموهبة النائمة فتوقظها وتغذيها كما يغذّي الزلال محّ البيضة ليتفتّق عنه النقف أو اللبّ الذي يغذّي النبتة لتتفتّق عنها الشجرة، وهكذا تأخذ المدرسة زيدا وفيه موهبة الشاعرية كامنة في ضميره الباطن فتفتقها وتغذيها بالعلوم الآلية التي هي اللغة والنحو والعروض والقوافي والأدب وتاريخ الأدب والنقد الأدبي. فتتفتّق الموهبة الشاعرية وتنمو وتخرج من قشرتها كما خرج النقف أو الشجرة.

لكن النقف والشجرة يموتان إذا لم يتغذيا من المحيط الخارجي، وتموت الشاعرية أيضا إذا لم تتغذّ من المحيط الخارجي. والمحيط الخارجي بالإضافة إلى الشاعر أو الأديب بيئة ووسائل. والوسائل هي المطالعة والسفر والمحاضرة والإذاعة والسينما والتمثيل والمكتبة والمتحف والمؤتمر والمعرض والمجلة.

والبيئة بيئتان : صغرى وكبرى. فالصغرى هي الوسط الأدبي من معاشرة الأدباء وصقل الذهن بمحادثتهم والتردّد على النوادي الأدبية. والكبرى هي هذا العالم بشمسه وسمائه ونجومه وبدوره وسحبه وأمطاره وربيعه وخريفه وأرضه وجباله وأنهاره ومروجه وأزهاره وحيواناته وأصواته وألوانه وأشكاله وأحداثه القديمة والحديثة والمتجددة. فهذه العوامل هي التي تكوّن شخصية الشاعر في الحقيقة بعد أن تكون المدرسة قد أعدّتها آليّا. وهنالك عامل تتويج وهو أن يكون الشاعر مشترعا ومفترعا ومبتكرا فيخرج من المألوف والمعتاد ويطرق الجديد الطريف .والطريف في الطريف هو عدم البحث عن الطريف. هو" الواقعية "أي دراسة ما هو مشاهد كما هو مشاهد، فمن اقتصر على وصف قريته والحياة فيها فهو أطرف

طريف، ومن قضى حياته يصف الحقول كان كما كان فرجيل الرومان من أكبر شعراء العصور القديمة، ومن اعتنى بوصف الناس في القطار وتسجيل أحاديثهم كما هي أتى بالعجب العجاب، ومن اقتصر على ملاحظة حياة الحشرات ووصفها شعرا كان نابغة عصره. وليس ما أقوله معناه الزهد في التعلّم المدرسي ليخرج الشاعر" قنانا طبيعيا"

فالعلوم الآلية المدرسية لا بدّ منها، ولا بدّ من التقيّد بها، إلاّ لمن كان نابغة على رأس القرنين أو القونين فيخلق الجديد كما خلق الأندلس الموشح والزّجل. ولا يأتي هذا لكل إنسان وفي كل عصر. ولا يتأتى هذا إلاّ في الشكل دون الموضوع. والمهمّ الموضوع، لا الشكل المسبوك فيه.

- تعرف " الندوة "ما يعرفه الناس عنكم من الشهرة الأدبية، ولكنّها تعرف أيضا أنّكم من المشتغلين - تبعا لذلك - بالآثار، وتعرف أنّكم اشتغلتم بالإذاعة وتشتغلون بإدارة المكتبة العمومية، وتعرف أيضا أنّكم عالجتم الدراسات الأدبية والتراجم ودرستم الخطاطة وكتبتم عنها وباشرتم التدريس وعنيتم بالترجمة والتعريب واضطلعتم بإحراز مجموعة من اللّغات الأجنبية شرقية وغربية.

و" الندوة " من أجل ذلك تطمع في أن تتفضلوا فتمدوا قراءها بانطباعاتكم في كلّ ما عالجتم من ذلك وبما ترون فيه نفعا لهم ولطبقة الشباب منهم على الخصوص. هي ترجو أن تحدّثوها برأيكم في مستوى الإذاعات العربية والتلفزيون وجدواه على الأدب أو ضيره. وترجو أن تحدّثوهم عن المكتبات ووسائل نشرها في كل معهد ومدينة وقرية لتعمّ الثقافة وعن أثر المكتبة المتجولة التي اضطلعتم بمشروعها زمنا ولعلكم لا تزالون.

وترجو أن تحدّثوهم عن الآثار التونسية وسبيل إحيائها وخطاكم الأولية التي أنجزتموها في ذلك.

- هذا موضوع طويل عريض يحتاج إلى مطولات الصحف،

وسنحاول إيجازه مع الاستيفاء بقدر الإمكان:

أوّلا - الآثار التونسية في العصرين الجاهلي والإسلامي مصدر من أهمّ مصادر التاريخ ووثائق عن تاريخ الفنّ التونسي، فأهميتها جليلة جدا. لكن إدارة الآثار كانت لا تعتني على الأخصّ إلاّ بالقسم الروماني خدمة لقضية سياسية هي أنّ الاحتلال الفرنسي تتمة واستئناف للاحتلال الروماني. فضاع من أجل ذلك المقصد العلمي، وتمحض المقصد السياسي المغرض القائم على توهم سالف. فسعينا أوّلا لإيجاد " لجنة الدفاع عن الآثار التونسية" ثم نشر الثقافة الأثرية بين التونسيين بواسطة الرحلات والإذاعة والمحاضرات والنشريات والمكتبة. وهذا كلّه إعداد للجو، ووجب بعد ذلك إعداد منصب " مفتّش الآثار الإسلامية"، فسعينا إلى إحداثه، وأسعفتنا به إدارة المعارف السالفة، وأسند باقتراح منّا ثمّ إثر مناظرة إلى لياقة صديقنا مصطفى زبيس الذي أظهر لياقة معجبة واستعدادا مدهشا لاتفاق فنه الجديد ولحصر الآثار الإسلامية ودراستها وترتيبها وتبويبها بنبوغ يوجب الشكر والإعجاب. فاليوم أمنّا على " الفاطميات " أو بالأحرى على " الإسلاميات " كما قال عبيد الله المهدي.

ثانيا - الإذاعة، أسندت إليّ إدارة القسم العربي من أكتوبر 1938 إلى ماي1943، ثم عزلت عنها وبقيت مشاركا كمحاضر، فكان رأيي أن تكون هذه الإذاعة أمّ الإذاعات العربية كما أنّ تونس أمّ البلدان. وكان من رأيي أن تكون مدرسة شعبية عامة للسياسة والآداب والعلوم والفنون وحتّى رفع الأميّة، مع أنّها مرحة، لا تزمّت فيها. والإعلان عن نجاحنا أو خيبتنا موكول إلى حضرات السامعين والسامعات من الناحية الأدبية وإلى عدد مراكز الاستماع من الناحية الرقمية وإلى القياس بين مستوى الثقافة الشعبية العامة في 1938 ومستواها بعد ذلك من الناحية « البيداغوجية ».

ثالثا : المكتبة في ذهننا وسيلة ثقافة ابتدائية ومتوسطة وعليا، وأداة بحث راقية للباحثين وجمع لآثار التونسيين وديوان للمراجع التونسية وغير التونسية ومعرض للكتاب في أطوار تاريخيْه المادي والفنّي، ومدرسة لفنّ الخطاطة وتدبير ديار الكتب ومعهد لتصوير المخطوطات ومعقل لصحف العالم قديما وحديثا. وكانت مكتبة العطارين لمّا دخلناها تشتمل على نصف مليون من الكتب الإفرنجية و819 كتابا عربيا، ولا مزيد. وللسياسة في ذلك دخل واضح. والمتحتّم أن يكون القراء من حضرات المستعربين الأفاضل ليس إلاّ. أمّا غيرهم "فليذهب إلى جامع الزيتونة متاعو". والأنكى من ذلك أنّ الكتب العربية على قلّتها مرسومة في جذاذات مرهلة بالفرنسية. فإذا أراد الأستاذ العربي الكبادي، حفظه الله، أن يطالع كتابا فيجب أن يصطحب مترجما محلّفا، والخلف على الله في أجرة تنقله. مع أنّ القارئ العربي يبدو كحيوان غريب" كمسلم في كنيسة "ينظر إليه شزرا ويتقزّز منه النّاس جميعا ويطلبون اللطف من الأب والابن والروح القدس إلى أن يخرج بسلام دون أن يتسرب إليهم منه القمل والأقذار ودون أن يسرق الكتب. فهم في بليّة عظمى ما دام موجودا بين ظهرانيهم. وقد وجدنا هذا مسطورا في تقارير رسمية فلم نزد عليها حرفا.

وبفضل مساعدينا الأكارم الذين خدموا بدون أجرة أو بأجرة طفيفة وبعد المشادات العنيفة مع رؤسائنا الأقدمين وقفت مكتبتنا قائمة على رجليها تحوي 70000 كتاب عربي ومجموعة كبرى من الصحف ومعرضا جميلا و6000 مخطوط وصناديق جذاذات عصرية مرتبة أبدع ترتيب، ولبست ثوبها التونسي الوطني بتسمية غرفها بأسماء الشهداء والزعماء. وألحق بها معهد لدراسة الخطاطة. وهي ثاني مكتبة في العالم العربي، والحمد لله. وأملنا وطيد في أن تصير الأولى بعد أشهر بهمّة حكومتنا الوطنية وعمل مساعدينا الأفاضل الأماجد الغيورين المضحين المجتهدين الذين ضربوا الرقم القياسي

في" الجهاد المكتبي" و" التفليق المكتبي" فهنيئا لتونس القومية بمكتبتنا القومية.

والمكتبة التونسية عموما قديمة جدّا بل هي من أقدم المكاتب في العالم إن لم تكن أقدم المكاتب. أسّسها أجدادنا القرطاجنيون في القرن السادس أو السابع قبل الميلاد علما منهم بأنّ المكتبة أحسن أداة للتثقيف. فلمّا استولى الرومان على قرطاجنة سنة 146 ق.م بددوا مكتبتها العظمى. وهي أكبر كارثة علمية في العصور القديمة وأعظم جناية على العلم في التاريخ.

ثمّ إن التونسيين أسسوا المكتبات في جميع الجهات حتى صارت أحقر قرية تونسية مزودة بمكتبة على نسبتها وتفوق نسبتها.

وفي العهد الإسلامي صار لكلّ جامع مكتبة بالوضع، وصار المؤلّفون يحرصون على تحبيس كتبهم بخطوط أيديهم على الجوامع، وصارت الرباطات معاهد للتخطيط واستنساخ الكتب وتحبيسها على أهل العلم. ومن أكبر مكاتب العالم في العصور الوسطى بيت الحكمة بالقيروان الذي أسّسه زيادة الله الثالث بن الأغلب، وجعل على رأسه إبراهيم الشيباني، ومكتبة جامع القيروان وجامع الزيتونة، وبها جميعا من نوادر المخطوطات ما شاء اللّه، والله به عليم. فالتونسيون قديمو التقاليد في إحداث المكتبات. ورأينا أن نؤسّس الآن مشبكة من ديار الكتب في كلّ جهة بحسب الأعمار «والخلافات» وحتى «المشيخات» وأن تزود بالسيارات الكتبية التي تنقل الكتب إلى النّاس قصد ترفيع مستواهم الثّقافي، وأن تتولّى المكتبة الوطنية (العطارين) طبع المخطوطات التونسية النادرة وترجمة الكتب، أهم الكتب في أهم آداب العالم، حتّى تكون كلمة «اقرأ» القرآنيّة الكريمة شعار كلّ مؤمن تونسي.

رابعا - التعريب : كلفت بدروس التعريب وأنا في أول العقد الثالث، وأرى أنّ التعريب العلمي هو أحسن وسيلة لإنعاش الأدب العربي وجعله أدبا عالميا كما فعل المأمون العباسي عندما نقل إلى

العربية آثار الأقدمين. وقد أخذت أضع معجما موسوعيا مستوفيا فرنسيا عربيا هو الآن على وشك التمام، وأرجو أن يتمّ قبل نفاذ العمر. واقترحت عدة مشاريع في الترجمة من جميع اللغات قدمتها لإدارة المعارف فكان نصيبها سلّة المهملات، ولكنّها ظهرت في الشرق بحرفها الواحد نسخة طبق الأصل وهذا من السحر طبعا، واعتقد أنّ العربية مازالت تحتاج طيلة أجيال إلى الترجمة حتى تنقل إلى نفسها نفائس الأدب العالمي مشرقا ومغربا فتكون أمّ اللغات كما كانت قديما. ولذلك فلا بدّ من العناية بإحداث مدرسة الألسن " الغربية " بالمملكة التونسية. وتلك الأيّام نداولها بين الناس. وشبابنا المتحفّز الوثّاب المتعطّش إلى العلم والعمل يستطيع أن يجد مجالا فسيحا مشرّفا طريفا في هذا الميدان.

وخلاصة القول هي أن هذه الميادين الكثيرة التي عملت فيها بقدر الاستطاعة وبفكرة وطنية وروح إسلامية ولغة عربية قحة لا أعجمية، والحمد لله، هي مجالات كثيرة طريفة مجدّدة لطيفة ثرية منعشة للنفس مغرية للجهود نافعة للوطن مفتوحة في كل يوم بالزيادة أمام هذا الشباب الطموح الذي نرجو أن يقود تونس إلى مجدها القديم أيّام قرطاجنّة والقيروان والمهدية والحاضرة المحروسة حتى تكون سيدة البحر المتوسط وأم المعاهد العلمية فيه. وما ذلك على همّة الشباب بعزيز.

شخصيّات من الشرق و الغرب : عثمان الكعّاك (*)

من تونس البلد الذي قدم لنا رجالا لهم القدم المعلى في دفع عجلة الحياة الفكرية كابن خلدون والتيجاني وابي القاسم الشابي، لا يزال يواصل دوره القديم في إنجاب الرجال الذين يحملون على عاتقهم مسؤوليات الفكر والأدب والتاريخ ليسلموها بعد ذلك إلى الأجيال القادمة من بعدهم. ومن هؤلاء الرجال الذين قابلتهم وأحببتهم عثمان الكعاك البحاثة المؤرخ الذي لعب دورا كبيرا في إحياء الدراسات التاريخية التي ترتبط بالشمال الإفريقي وعلى الخصوص القسم الخاص منه بالمغرب العربي. وأبحاثه في هذا المجال غنية بروح العلم ومشبعة بنظرة الباحث المتفحص. قابلته هنا بطرابلس، فقد كان أحد المداومين على زيارة ليبيا في مختلف المناسبات جريا على عادته دائما في تأكيد أهمية التفاعل الثقافي بين بلاد المغرب العربي وبعضها البعض. وهو يستند في ذلك إلى إيمان قوي بأقطار المغرب كوحدة تاريخية لها جذورها العميقة في الزمن.

ولم تكن هذه المرة الأولى التي أتعرف فيها على " الكعاك " فقد سبق لي أن عرفته من خلال كتبه كما حضرت له محاضرة، وبذلك تكونت في ذاكرتي صورة واضحة عنه.

وفي لقائي معه، آخر مرة، وضعت أمامه العديد من الأسئلة التي تخوض في مجال اختصاصه كباحث ومؤرخ. ومن خلال أكثر من جلسة استطعت أن أنقل عنه أجوبته التي أملاها عليّ ودوّنتها في كراس لي ما زلت أحتفظ به، وكان سؤالي الأول الذي وجهته إليه كما يلي :

س - كنتم ولا زلتم توجهون عنايتكم إلى الدراسات التاريخية التي

(*) الكيب (نجم الدين غالب) : شخصيات من الشرق و الغرب.- بيروت 1969 ص 133 – 144 (استجواب).

تهم المغرب العربي، فما هي المنجزات التي قمتم بها في هذا المجال حتى الآن ؟

ج - إني مؤمن بأن التاريخ ذو ثلاثة أبعاد لا ذو بعد واحد، والمعروف عادة أن تاريخ حقبة تبدأ فيما سلف وتصل إلى الخلف ثم تقف .. فهو خرافة وأسطورة وملحمة وملهاة تضيع الوقت، والرأي عندي أن له بعدين آخرين : بعد الحاضر الذي هو من بداية العصر الذي نعيشه إلى نهايته وبعد المستقبل الذي ينتهي منه الحاضر إلى ما لا نهاية له .فالبعد الماضي ينير الحاضر ويعده ويمهد له السبيل وينفعه بأمجاده وتجاربه، لذلك فالحاضر هو امتداد للماضي وتمهيد للمستقبل على جذور الماضي. وبالمثال يتضح الحال إذا علمنا أن ليبيا في ماضيها كانت منارا من منائر الحضارة القديمة وأنها كانت لها جامعات وتؤسّس الجامعات وأن لها رسالة في المشارق والمغارب وأنها أخرجت أمثال (قليماور) الذي وضع أساس المكتبات والفهارس والمصادر (وسبتموس سيفاروس) إمبراطور روما الليبي الأصل والمولد والمنشإ وخطيب اليونانية واللاتينية والمؤلف الناقد، وأنجبت جمال الدين بن منظور أكبر لغوي عربي وابن الأجدابي اللغوي النسابة المؤرخ وابن أبي الدنيا المؤرخ الفقيه، علمنا أنه لليبيا رسالة في الحاضر وأنه يجب أن تكون في حاضرها جديرة بماضيها أي أن لها رسالة في البحر المتوسط وفي إفريقيا والعروبة والإسلام فمقعدها من الشمس عظيم. وإذا كان هذا هو حاضرها قهرت المستعمر ببطولة مجاهديها وسياسة رجالاتها وبنت في خمس عشرة سنة اقتصادها وثقافتها وسياستها ما يعادل عشرات أضعاف ما بناه المستعمر في خلال نصف قرن آمنّا برسالتها في الحاضر كما آمنّا برسالتها في المستقبل. وما قلناه عن ليبيا نقوله عن بقية أقطار المغرب. فلذلك اخترت مهنة المؤرخ على الطريقة الألمانية التي تعنى بالبحث عن

دور التاريخ الوطني لا عن جمع بعضه. وفي هذا المجال قدمت بعض دراساتي التاريخية التي أنجزتها فعلا في خلال السنوات العديدة التي اشتغلت فيها بالتاريخ.

س - هل تعتقدون أن الدراسات التاريخية في المغرب العربي قد خرجت من طور الاهتمام بالواقعة التاريخية وكيفية حدوثها إلى طور العلمية التاريخية المتعارف عليها في العصر الحديث؟.

ج - يجب أن نؤمن بأن التاريخ علم وفن، وذلك من حيث أنه علم يجب أن يعتمد على وثائق صحيحة، ومن حيث أنه فن يجب أن يحس به دارسه وأن يحسّ به عنه قارئوه. ذلك أن التاريخ، مثل الموسيقى والشعر والتصوير، يجب أن يكون وطنيا أو لا يكون، فهو من شغل الوطنيين لا من شغل الأجانب لأنه نظرة من الداخل إلى الخارج، لا نظرة سطحية من الخارج إلى الداخل .ولهذا عندما جاء الاستقلال وجدنا أنفسنا أمام أزمة تاريخية، أعني أزمة لدراسة التاريخ .فمعظم المصادر باللغات الأجنبية، وهي أحيانا ذات نزعة غير مرغوب فيها كثيرا .مثال ذلك أن كل المصادر الأجنبية تنعتنا بقراصنة، أي أننا لا نخرج عن كوننا لصوصا بحريين، مع أن اللصوص البحريين كانوا فرسان مالطة الذين يغزون سواحلنا واضطرونا إلى أن نرد الفعل بالمثل، وعملنا هنا دفاع شرعي ضد القرصنة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى قالوا إن العرب أو المسلمين المغاربة بوجه عام هم نقلوا حضارة الرومان إلى أوروبا وأضافوا إليها حضارتهم وبنوا للأوروبيين جامعات سالرنو، وبالرمو، وطليطلة، وقدّموا لهم هدايا ثقافية ثمينة، منها الأعداد العربية والجبر والمثلثات والفلك والكيمياء والطبيعة وعلوم الملاحة، وساقوا سفنهم حول إفريقيا والصين، وقادوا كريستوف كولومبوس بروادهم وخرائطهم إلى أمريكا، وعلّموا الأوروبيين الموشح والزجل والقافية وأصول المعمار، وبنى مهندسوهم

وزخرفوا قصورهم وكنائسهم ومدارسهم في كثير من جهات إسبانيا وإيطاليا وفرنسا وحتى أمريكا. فنحن وإياهم على طرفي نقيض من مفاهيم تاريخنا. على أن المنصفين منهم كثيرون، وهم الذين أثبتوا أمجادنا الثقافية والأدبية والمعمارية في أوروبا مثل كتاب(أماري) في تاريخ صقلية العربية أو كتاب(قونزالش) في إثبات ما أخذه الأوروبيون عن العرب ومثل كتاب (ربيرا) في الأصول العربية الموجودة في الموسيقى الأوروبية. لذلك وجب منذ البداية أن نشكر من أحسن إلينا من المؤرخين الأجانب وأن ننقد تصانيف المغرضين منهم وأن نعرف دسائسهم وأن نميط اللثام عن نزعاتهم وأن نعرف طريقنا الحقيقية إلى ذلك.

التاريخ الحق هو أن المغرب في القديم والحاضر والمستقبل ذو رسالة حضارية لا شك فيها. أخذ وأعطى وتأثّر وأثّر، واقتبس وأقبس وترجم من لغات اليونان والرومان والبراري العربية فاكتسب ثروة حضارية، ثم ترجم من العربية التي صارت أعظم لغة للثقافة إلى اللاتينية فأكسب أوروبا ثروة حضارية من العلوم والفلسفات والآداب والفنون نجدها حتى في مصطلحاتهم التي هي عربية الأصل. وهو الآن يترجم من جديد من اللغات الأوروبية إلى العربية التي تفوّقت بجهودها طوال قرنين، وهو يستعيد مكانته الحضارية ورسالته الكبرى على ضفاف البحر المتوسط وفي هيئة الرقي العام. هذا هو تاريخنا الحقيقي، لا نكتبه بالحبر فحسب بل نكتبه أيضا بدمائنا المستشهدة ودموعنا البطولية وآلامنا وإشعاعات علمائنا وأدبائنا ومخترعينا. نكتبه بأنوار ابن خلدون وابن منظور وابن الجزار وقسطنطين الإفريقي وابن شرف وابن رشيق وابن باجة وابن رشد وابن سيناء وجوهر الصقلي وأسد بن الفرات وغير هؤلاء. فمن العصر الحجري المغربي الذي انطلقت منه الحضارة إلى القارة الإفريقية، ومن العصر الاستعماري الذي انطلقت منه الحركات

التحريرية الوطنية إلى كلّ من إفريقيا وآسيا أصبح لنا كتاب تاريخ ذهبي فيه أمجادنا السياسية والإدارية والعلمية والأدبية والفنية والتصوّفية والصناعية والاقتصادية ما يكون نبراسا يشع على البحر المتوسط وإفريقيا ماضيها وحاضرها ولاشك مستقبلها.

س - المكتبات العربية بالمغرب مليئة بالكتب والمخطوطات والوثائق التاريخية، ترى ما هو دورها في مجال رسم الحقائق وفي إيجاد التفسيرات الجديدة بالنسبة إلى صناعة التاريخ ؟ وهل هي من الثقة والأمانة بحيث يمكن الاكتفاء بها في استنباط حوادث التاريخ المغربي وحقائقه ؟

ج - يجب أن نعلم أن المكتبة المغربية بمفهومها الأوسع تشمل زيادة على الكتب العربية والكتب اللاتينية واليونانية التي ألفّها المغاربة في العصور القديمة والتي تعد من أغزر المصادر فنحن لا نقدر أن نستغني مثلا عن (صالوست) و(فلوروس) و(يوحنا البيتي) و(أغسطين) وغيرهم من المؤرخين المغاربة لا سيما وأنّ أجدادنا قد أدركوا هذه الحقيقة فترجموا في القيروان وغيرها التآليف التاريخية اليونانية وغيرها المتعلّقة بالمغرب مثل كتاب "الخزناتة" وهو تاريخ مطول للغرب وكتاب ضد الوثنية (ليولس هوروشيوش) الذي ترجم بالقيروان في (بيت الحكمة) واعتمده عبد الرحمان بن خلدون في كتابه الخاص بالقسم الروماني، ومثل هذا كثير. فلا ينبغي أن نكون أضيق فكرا من أجدادنا، ثم نضيف إلى ذلك أحببنا أم كرهنا ما ألّفه الأوروبيون سواء أكان سليما أم غير سليم، والذي هو مادة ثرية لا استغناء عنها بعد تمحيصها. ونضيف إلى ذلك ما يوجد في خزائن أوروبا من المعاهدات والاتفاقيات والمراسلات التي تمّت بيننا وبين الدول الأوروبية من العصر الصنهاجي- في القرن الخامس الهجري - إلى الآن. فمجموع هذا هو في الحقيقة الخزانة التاريخية المغربية. وهناك نقطة أخرى وهي أن أمّهات الكتب التاريخية كانت متروكة في الخزائن ومجهولة في الزوايا فأقبل المغاربة بعد استقلالهم على

نشرها. فالمغرب الأقصى ينشر الآن تآليف ابن حيان الأندلسي في عشرات المجلدات عن تاريخ الأندلس وينشر كتب الرازي وينشر وثائقه الخاصة ويترجم الوثائق الأوروبية. والجزائر تمشي بخطى سريعة في هذا الميدان. وتونس تنشر أمهات الكتب في التاريخ التونسي كإتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الإمان] لإبن أبي الضياف) وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية] للزركشي. وليبيا تنشر كتب النائب وتترجم عن الأنكليزية كتب تاريخها وتؤلف كتبا عن تاريخها مثل كتاب طاهر الزاوي عن (فتوح العرب في ليبيا) وكتاب عمر الباروني (فرسان مالطة) وتؤلف كتبا في تاريخ أدبائها مثل كتاب أحمد رفيق المهدوي (لمحات عن الأدب الليبي). وهناك تحفّز للتوثب، وهناك انطلاق من الصفر لاستبدال المصادر الأجنبية بمصادر وطنية، وهناك تنقيب عن المكتبات وكنوزها، وهي مكتبات غنية ثرية عامرة كفيلة بتحرير تاريخنا بعد جمعها وتحليلها وتصنيفها ونشرها وفهرستها.وهذا يحتاج إلى عمليتين أخريين علاوة عن الجمع. أمّا العملية الأولى فهي عملية استخراج (الطلوس) [أوأطالس جمع أطلس وذلك أنّ كتب العرب التي كانت بالأندلس وصقلية أخذها الأوروبيون ومحوا ما فيها من كتابة وأعادوا كتابتها ثانية بلغاتهم في شتى أغراضهم .ويمكن استخراج النصوص العربية الأصليّة الممحوّة بأشعة ما تحت الأحمر. ولذلك يجب أن نكوّن فرقا مغربية مدرّبة وأن نستعرض مخطوطات أوروبا القديمة لنستخرج منها كنوز مخطوطاتنا التي تعتبر ضائعة فتضمّ إلى المكتبة المغربية كفردوس مفقود رجع إلى أهله.

والعملية الثانية هي عملية إحصاء مستوعب. فنحن لم نحص تراثنا ولم ننزل الشهود والعدول والمأذونين لضبط تركة أجدادنا، فنحن وارث مهمل .ونحن نعرف أن الأوروبيين ضبطوا كتب الرومان واليونان في فهارس أبجدية مطبوعة تسمّى ديوان التآليف الرومانية،

فمتى نضع نحن ديوان التآليف العربية. إن أجدادنا كانوا أحزم منا في هذا الموضوع، فقد ضبط ابن النديم [في" الفهرست"] كتب العصر العباسي، وضبط حاجي خليفة في" كشف الظنون" كتب العصر التركي، وبقي علينا أن نضبط الجميع بطريقة حكيمة يوضع لها تخطيط وترصد لها الاعتمادات وينتدب لها الأخصائيون، وننتهي من أمر الإحصاء والمسح مرة واحدة. وعندئذ نعلم أنّ لنا مكتبة مغربية مستوعبة كاملة فيها جميع وثائق التاريخ من ألفها إلى يائها، من العصر الحجري إلى يوم الناس هذا.

س - يعرّف البعض رجل التاريخ بأنه ذلك الإنسان الذي يمشي وهو ملتفت إلى الوراء، فهل هذا التعريف صحيح؟ وإذا كان ذلك كذلك، فما هو دور التاريخ في تنوير الطريق للأجيال المقبلة ؟

ج - هذا تعريف للتاريخ عجيب الأمر لأنّ التاريخ ليس مدى واحدا من السابق إلى اللاحق، وليس اتجاها زمنيا واحدا من الأمس إلى اليوم. بل التاريخ ذو ثلاثة أمداد: الأمس واليوم والغد. أعني الماضي والحاضر والمستقبل. فالتاريخ مرآة للماضي ليرى الحاضر فيها نفسه وبيده مرآة عاكسة لكسر أضواء الماضي على المستقبل. ولا يمكن أن نفهم ولا أن نعود نبني حاضرنا إلا على ما يقدّمه لنا الماضي من عبرة ودرس مبنيين على التجارب والأمجاد فنتجنّب ما أثبتت التجارب فساده ونقرّ ما أثبتت صلاحه، ونبني على مجدنا القديم دورنا التقليدي بين الأمم ورسالتنا الجليلة مجدا حاضرا ومستقبلا أعظم وأعظم، ونعرف دورنا ورسالتنا فنزداد بهما اهتماما ولهما تعلقا وبهما اعتزازا.

س - من المعروف أنّ اهتمامكم بالدراسات التاريخية قد شمل أيضا التاريخ لحركة الفنون الشعبية الفلكلورية، لهذا أريد أنّ أسألكم هنا: هل تعتقدون أنّ ما يسمّى بالمسرح المكشوف (وهو ما يجري في الأعراس والمراسيم الدينية) يعتبر عملا مسرحيا أم لا؟

ج - الاهتمام بالفلكلور هو في الحقيقة جزء لا يتجزّأ من الاهتمام بالتاريخ نفسه لأنّ الفلكلور هو تاريخ الشعب وحضارة الشعب وما ابتدعه الشعب لنفسه من أدب ذي جذور في تاريخه وذي ابتكار من نفسه ومن فنون هي مرآة عبقريته وصورة ذوقه واكتشاف مفاهيمه. والفلكلور هو حضارته في ملبوسه "ومشمومه" وزينته وحليّه وقوله وآداب معاشرته وسلوكه في الطريق والمقهى والقطار والساحة العامة. وهو صور حياته حين تحمله أمّه وحين يولد وحين يرضع وحين يفطم وحين يختن وحين تزفّ له عروس وحين يقضي نحبه. والفلكلور هو جملة علومه في الفلك الذي يرشد الراعي والأنوار التي ترشد الفلاّح والطبّ الشعبي الذي يعالج بالرقية والعشبة والنخس والاعتقاد في الحجر والولي وعلم الحيوان في علاجه وحركاته وسكناته. فإذا انحدر الخطاف في طيرانه على الأرض ستهبّ العاصفة، وإذا تراضت الكلاب فهناك زلزال .ثمّ هي أخلاقه التي تدلّ على نفسيته وفهمه للتربية. يجتنب الكلمة السيئة ويكنيّ عنها. فالملح من ملوحته ينقلب إلى ربح، والسواد بسبب ظلمته يصير بياضا، والأعمى رأفة به يصير بصيرا. من أجل ذلك تكوّن مسرح شعبي، لا كالمسارح الكلاسيكية التي أخذناها من أوروبا. وفي أوروبا نفسها لكل أمة مسرحها يخالف في نوعه مسرح الأمّة الأخرى. ونحن استمددنا مسرحنا من صميم حياتنا، فالقصة المولدية تصوير في قالب قصصي غنائي له جميع خصائص مسرح الإنشاد، وكذلك قصة الإسراء والمعراج. ونشأ الإنشاد عند الفاطميين بالمهدية وانتقل الآن إلى إيران مسرح التعزية الذي يصوّر مآسي الشيعة بصرع السبطين. ومنه تولّد مسرح (الخفايا والأسرار) الذي نشأ بأوروبا في الكنيسة مستمدّا من القصص الدينية. وفي الأوساط المغربية مسرحيات شعبية قديمة تمثّل في المقاهي والأفراح، تصوّر انتقاد الأشخاص الذين يخالف ظاهرهم

باطنهم أحيانا كقصة القاضي والقابلة والعجوز المحتالة. ثمّ إنّ الحاكي العمومي في المقهى يصوّر قصة عنترة والجازية، وفاطمة ذات الهمة، وسيف ذي يزن تصويرا تمثيليا يخالف فيه بين أشخاص القصة باختلاف أصوات الأداء وبالحركات الملائمة. ثمّ إنّ حفلات أطوار الحياة من ولادة ومن ختان ومن زفاف تحتاج إلى إشهار حتى يرتفع كلّ اللبس وتصحّ عند الناس سلامة النسب ونقاء الأرومة. فالمدعوون في الحقيقة شهود ضمنيون لإثبات النسب وتصحيح شجرة السلالة، فلذلك تقام الأفراح بشكل تمثيلي، بل وتقام فيها التمثيليات ابتهاجا بالحدث وترفيها عن الضيوف. وأمّا ما نراه في الطريق وفي المبائت [...].

وينبني على هذا أنّ المسرح قديم منذ البربر الأول في البلاد المغربية. وذهب النقاد إلى أنّ حفلات عاشوراء أيضا صورة تمثيلية لتصوير العام الراحل وتمثيله كشيخ هرم وذات قبيحة مستضعفة قد ذهبت عنّا بكلّ سوء بحمد الله، واستقبلنا العام الجديد بأكل الأخضر ونضح الماء الطهور وتجديد آلات الطعام إلى غير ذلك. وكذلك صورة أخرى تمثيلية تامة، وتتمثّل في تصوير الهروب ببنت العمّ، فابن العم إذا علم أنّ ابنة عمّه قد خطبها الغير يتّخذ له حصانا قد أحبّ فرسا، ويدرّبه على الذهاب إليها وينشدها الأشعار في وصفها وبيان محاسنها حتى إذا تعلّم الحصان سماع الأناشيد والرقص على نبراتها وخرجت قافلة العروس قال له أنا ساعدتك على مرامك، أما تساعدني على مرامي؟ وأخذ يقصّ عليه قصته الغرامية ويصف له هيامه وغرامه فيتحمس الحصان ويشتد جريه للالتحاق بالقافلة ليمكّن صاحبه من افتكاك حبيبته حتى وهي على كرسي التصدير.

س - هل تعتقدون أن هناك علاقة ما بين الرواسب الحضارية القديمة والفنون الشعبية بالوطن العربي؟

ج - إنّ الأصول الفلكلورية ترجع إلى الأصول التي يتألف منها شعب من الشعوب، وأيّ جزء من أجزاء المغرب فيه بربر وبقايا فينيقيين ورومان وعرب وترك. قد تختلف الأنساب ولكن لا تختلف العناصر. وكلّ عنصر من هذه العناصر قد ولّد خلال تاريخه مظاهر فلكلورية انصبّت وانصهرت في المجموع الفلكلوري الوطني. ولمّا كان الشعب الليبي يتألّف من نفس العناصر التي تتألف منها الشعوب المغربية الأخرى فلا فرق بين فلكلوره وفلكلورها إلاّ في الجزئيات والتكيّف، بل نجد فيها أحيانا من متبقيّات أطواره الحضارية ما بقي عنده واضمحلّ عند غيره. ولذلك يجب أن يدرس الفلكلور في ضوء مراحل ثلاث :

- المرحلة الأولى : هي المرحلة الجهوية، في الوطن الواحد.
- المرحلة الثانية : هي المرحلة الوطنية.
- المرحلة الثالثة : هي المرحلة التاريخية والاجتماعية التي تثبت وجوه الشعوب التي من أصل واحد ودين واحد ولغة واحدة.

المغــرب عربـــي (*)

المغرب عربي صميم في عروبته، راسخ القدم في أرومة العرب، قوي الأركان في حضارة العرب، سامي المشعل في المجد. هو عربي منذ نشأته، منذ فجر تاريخه، يوم عمّره البربر بالعرب الأقحاح، وبنوا فيه بناية العرب الأولى، وركزوا فيه أساس المدنية العربية الأولى، وقالوا للعالم : إن المغرب عربي صميم في عروبته، راسخ القدم في أرومة العرب. هو عربي منذ نشأته الثانية عند ما حل به الفينيقيون من بني كنعان العرب القدماء، ونشروا به ألوية الحضارة العربية الثانية، وبسطوا منه على أوروبا المدنية الفينيقية العربية، وعلّموا أوروبا في جهالتها المتجر والملاحة والصناعة والفلاحة، وقال الفينيقيون يؤمئذ : نحن من عرب بني كنعان كريمو المحتد، صرحاء الأرومة، أصفياء المنحدر. ومغربنا هذا عربي صميم في عروبته، راسخ القدم في أرومة العرب.

هو عربي صميم في عروبته عند ما ظهرت الرسالة الإسلامية، وقضت في لمحة بصر على دولة الرومان، ودولة بني ساسان، وقوضت في لمحة بصر عروش الطغاة المتجبرين، وسوت الفروق بين الطبقات، واستأصلت الميزات بين الجنسيات، وعلمت الناس أن الناس يولدون أحرارا، وأن الناس لا سبيل لأن يستعبدوا الناس لأن أمهاتهم ولدنهم أحرارا، ومحت الأرجحيّة الجنسية والأفضلية العنصرية، وقالت : لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى.

يؤمئذ أتيح للمغرب من جديد أن يلعب دوره العربي القديم للمرة الثالثة فوق هذا الأديم، فبنى القيروان لتمتين معالم الإيمان وإذاعة أشعة العرفان، وبسط ظلال السلام والمدنية الحق على بني الإنسان، لا فرق بين البيضان والسودان والصفران والحمران...

(*) الأسبوع، 23/3/1947 ؛ نشرية التكريم، دار الثقافة ابن رشيق (تونس) ديسمبر 1971 ص 12– 13.

الفلاسفة الذين علموا أوروبا الفلسفة من ابن رشد إلى ابن باجة إلى ابن الطفيل مغاربة عرب. والأطباء الذين علموا أوروبا الطب من ابن الجزار إلى ابن زهر إلى الصقلي مغاربة عرب، والفلكيون الذين علموا أوروبا الفلك من ابن أبي الرجال إلى ابن الزرقال مغاربة عرب. والمؤرّخون الذين علموا أوروبا فلسفة التاريخ من ابن حيان إلى الوراق إلى الرقيق إلى ابن سعيد إلى ابن خلدون مغاربة عرب. وأول من طار في الجو وعلم أوروبا الطيران هو ابن فرناس المغربي العربي. والعلماء الذين اخترعوا البارود والمدفع ونشروهما في أوروبا مغاربة عرب. والملاّحون الذين اخترعوا البوصلة وجعلوا للسفينة الدفة وعلموا فاسكودي غاما طريق الهند من رأس الرجاء الصالح مغاربة عرب. والملاّحون الذين ارتادوا المحيط الأطلنطي واكتشفوا جزائره وخططوا خرائطه ورسموا طرقه واكتشفوا أمريكا قبل كريستوف كولمب مغاربة عرب.

ذلك هو المغرب العربي، وتلك هي معالم الحضارة المغربية العربية، وتلك هي حضارة المغرب في المستقبل إن شاء أن يكون بماضيه خليقا وفي عروبته عريقا.

مفهوم الثقافة المغربية (*)

قد يتساءل أحدنا - ما هي هذه الثقافة المغربية التي نتحدث عنها كثيرا، ونكتب عنها كثيرا، وقد ألّف عنها في هذه المدّة الأخيرة عدد كبير، ونشر من آثارها ونفيس تصانيفها عدد صالح من التآليف.

ونحن نريد أن نجيب عن هذا السؤال بوضوح وموضوعية وإخلاص.

فالثقافة المغربية تنقسم إلى قسمين. القسم الأول موقوف وموروث، أي أنّ هذا القسم قد تعطّل عن الإنتاج لزوال الدولة العربية من أصقاعه. وهو موروث لأنّه مقدار اشتراك بين الأمم العربية جمعاء مع تنفيل المغاربة بالأصالة والأولويّة لأنّهم منشئو هذه الإمبراطورية التي ضاعت فيما بعد، ولأنّهم استقبلوا المهاجرين الذين غادروها بعد زوال ملك الإسلام عنها.

ويتضّح من هذا أنّ هذا القسم الأوّل من الثقافة المغربية هو قسم الأندلس وصقلية ومالطة.

وقد أنجبت الأندلس أكثر من 2000 كاتب، وأنجبت صقلية أكثر من 200 كاتب، وأنجبت مالطة أكثر من ثلاثين كاتبا.

ثم إنّ مهاجري صقلية ومالطة والأندلس انتقلوا إلى المغرب فأحيوا به دولة أدبهم من جديد. ومن هنا كان سبب الأولويّة والتنفّل بالقسط الأوفر.

فمن عهد محمد بن هاني الذي ولد بالمغرب وعاش ردحا من الزمن بالأندلس ثم رجع إلى المغرب إلى عهد أميّة بن عبد العزيز، إلى عهد ابن خلدون وحازم القرطاجني وابن الأبار والبطرني وابن القصار والوادي آشي والآبلي، إلى عهد ساسي نوينة وحمودة الريكلي ومحمد براو وعبد الرزّاق كرباكة. من كل هذه العهود مازال

(*) حديث إذاعي لبرنامج "آخر ما ظهر" بتاريخ 1962/3/13. وبآخره تاريخ 1962/4/5. (ع س) ؛ نشرة دار الكتب الوطنية ص 98– 102.

الأندلسيون يتقاطرون على تونس بصورة خاصة وعلى بقية أجزاء بلاد المغرب الشقيقة بوجه أهم (1).

ومنذ استولى النرمان على جزيرة صقلية مازال أعلام الصقليين يتجهون إلى تونس ويستقرون بها ويتّخذونها وطنا ثانيا جديدا. هكذا فعل الإمام المازري دفين المنستير وابن يونس الفقيه دفين رباط المنستير وصاحب التصانيف الشهيرة في الفقه، وهكذا فعل الشريف الإدريسي صاحب أكبر موسوعة جغرافية في القرون الوسطى، وهكذا فعل آل الصقلي الأطبّاء الذين كانوا أشهر من نار على منار والذين ملؤوا بعبقريتهم وعلومهم وتصانيفهم كل مدة الدولة الحفصية من القرن السادس إلى العاشر (2).

فهؤلاء الأندلسيون والصقليون والمالطيون هم الذين يؤلفون القسم الأول من الأدب المغربي والثقافة المغربية.

وأمّا القسم الثاني فإنّه القسم الحيّ المستمر الدائم المنتج من الثقافة المغربية.

وهذا القسم يشمل في المقام الثاني الدول السوداء إلى حد خطّ الاستواء، وهي مجموعة 15 دولة كانت ومازالت تنتج باللسان العربي المبين، ومازالت ثقافتها إلى يوم الناس هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، مازالت كلّ يوم بالزيادة تتمسّك- في المقام الأول -بالثقافة العربية الإسلامية، وأشهرها موريطانيا التي بها الآن مئات المؤلفين والشعراء واللغويين، والسينغال ومالي ونيجيريا والتشاد وغيرها.

هذا هو ميدان الثقافة المغربية من حيث المكان، أي من حيث

---

(1) عن الأعلام الأندلسيين الوافدين على تونس انظر : ابن الخوجة (محمد الحبيب) : الهجرة الأندلسية إلى إفريقية في ق 7 هـ/13م.- في : كرّاسات تونس (Les cahiers de Tunisie) ع 69 – 70، س 1970، ص 129 – 136 ؛ الطالبي (محمد) : الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيّام الحفصيين.- في : دراسات في تاريخ إفريقية...منشورات الجامعة التونسية، تونس 1982، ص 165 – 213 ؛ الحمروني (أحمد) : الموريسكيون الأندلسيون في تونس.- ميدياكوم، تونس 1998.

(2) عن صقلية و أعلامها آنظر : عبد الوهاب (ح.ح.) : الحضارة الإسلامية بصقلية.- في : ورقات... 3/453 – 476.

الرقعة الأرضية والمتسّع الحيوي الجغرافي، فهو عبارة عن نصف القارة الإفريقية ببيضانها وسمرانها وسودانها وعربها وبربرها وتركها، وهو أيضا عبارة عن أقسام صالحة من إيطاليا وكامل الأندلس بعربها وبربرها ورومها وإفرنجها.

وإذا كانت هذه هي الثقافة المغربية بالاعتبار المكاني، فما هي هذه الثقافة بالاعتبار الزماني؟

إذا أمعنا النظر في هذا الموضوع ودرسناه بروية وتعمقنا في البحث عنه سطحا وعمقا وجدناه يمتدّ طوال خمسين قرنا، لا طوال أربعة عشر قرنا فقط، أي أنّه لا ينحصر في مدة دولة الإسلام والعرب ليس إلاّ، بل يمتدّ إلى ما سبقها من الدول الوثنية أو النصرانية، وبعبارة أوضح أنّه يشمل جميع عصور التاريخ التي عاشها المغرب من العصر الحجري إلى عصر الذرة.

فهو لا يشمل ما أنتجه المسلمون فقط وباللغة العربية، بل يشمل ما أنتجه البربر بالبربرية ومن باب أولى بالعربية، وما أنتجه الفينيقيون بالفينيقية، وما أنتجه المغاربة باللاتينية على عهد الاحتلال الروماني، وهذا شيء كثير وتنوّع في الأدب عجيب وثروة عقلية طائلة.

فإنّ البربر بدأوا ينتجون منذ فجر التاريخ، ولهم كتابة خاصة بهم تسمى التيفيناغ مازال يكتب بها الطوارق الملثّمون إلى هذا اليوم، ونحن نجد آثارهم تلك سواء أكانت منقوشة على الحجر أو مكتوبة على البردي أو الرق أو الكاغد. واستمرّ البربر يؤلّفون في الدين والشعر والتاريخ والأنساب والتمثيل ومازالوا هكذا يفعلون. وقد ألفت التصانيف الضافية في هذا الأدب البربري ونشر الكثير من التصانيف البربرية، ولا يزال الكثير الآخر غير منشور، ولا تزال البحوث البربرية في المهد، ومازلنا نحتاج إلى جمهرة من الأخصّائيين في المباحث البربرية ليدرسوا لنا هذا التراث العظيم،

ومازلنا ننتظر إنشاء كراس للدراسات البربرية في جامعات المغرب بالرباط والجزائر وتونس وبنغازي، ومازالت جبال البربر وصحاراهم بالمغرب والجزائر وجبل نفوسة وجزيرة جربة تزخر بالمخطوطات النفيسة التي نعرف البعض منها ولا نعرف الكلّ.

ومازالت ديار الكتب بأوروبا وأمريكا تحتفظ بنفائس المخطوطات البربرية، سواء باللغة البربرية القديمة أو الحديثة، أو باللغة العربية الفصحى أو بمزيج مختلف المقدار من اللغتين.

وأمّا اللغة الفينيقية فإنّها لغة سامية شمالية، أي أنّها لغة أخت شقيقة للعربية، وقد انتشرت بتونس طوال عشرين قرنا، من القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى القرن السابع بعده، وكانت خلال هذه المدة لغة الإنتاج العقلي، بل هي لغة العلم والثقافة، ليس في تونس أو المغرب فقط بل في البحر المتوسّط أجمع بوجه أعمّ.

وقد تتونست هذه اللغة الفينيقية الأصلية فدخلتها ألفاظ بربرية ويونانية وتحوّل نطق الحروف وتغيّرت معاني الكلمات والعبارات فصارت تسمى اللغة البونيقية، والبونيقية نفسها قد تطورت. فمنها البونيقية الأولى ثم البونيقية الوسطى ثم البونيقية الحديثة.

ولا شكّ أنّ هذه اللغة البونيقية المتونسة التي استوطنت البلاد عشرين قرنا إلى عهد الاحتلال العربي قد مهدت السبيل لانتشار العربية ابتداء من الفتح لأنها أخت شقيقة للعربية كما قلنا، فلم تجد العربية أيّة مشقة في الانتشار، فالحروف واحدة والألفاظ واحدة وتصاريف الأفعال واحدة والتراكيب واحدة.

ولمّا كان الأمر كذلك لم يجد سكّان المغرب يومئذ من بربر وبونيقيين ورومان أو مترومنين أية مشقّة في تعلّم العربية، بل كأنهم انتقلوا من لهجة إلى لهجة أخرى ليس إلاّ. مثال ذلك أنّ أحدنا ينتقل من اللهجة التونسية إلى اللهجة المغربية، أو من لهجة بغداد إلى لهجة مراكش، فليس عليه أن يبذل إلاّ مجهودا بسيطا جداً قصير الأمد.

ولهذه اللغة البونيقية أدب جمّ فيه الشعر والتصانيف الدينية والتاريخ والرحلات والكتب العلمية والعملية في الزراعة والصناعات والملاحة، على أنّه يجب للحق أن نقول إنّ الأدب الفينيقي في فينيقيا نفسها، أي في بلاد لبنان الشقيقة التي هي أم وطن الفينيقيين- والفينيقيون عرب أقحاح من بني كنعان - إنّ هذا الأدب الفينيقي الأصلي لم يكن شيئا مذكورا إذا استثنينا تصانيف الفيلسوف الفينيقي صانياطون أو متفوشه أحيرام.

أمّا الأدب البونيقي بتونس فقد كان شيئا عظيما كمّا وكيفا، وذلك أنّ الرومان لما تغلّبوا على البونيقيين في الحرب البونيقية الثالثة وأخذوا مدينة قرطاجنة سنة 146 ق.م وجدوا المكتبة الكبرى بمدينة قرطاجنة مملوءة بالتصانيف الفلسفية والأدبية والتاريخية والدينية والعلمية فبددوا الكميّة وأتلفوا جانبا كبيرا منها ووزعوا الباقي على أمراء البربر، وعبثت بها الأيدي ما شاء لها أن تعبث، ولم يحتفظوا إلاّ بكتاب واحد منها نظرا إلى ماله من الأهمية الكبرى، وهو كتاب الفلاحة لماغون القرطاجنّي. فإنّه أول وأقدم دائرة معارف زراعية في العالم، يشتمل على وصف النباتات وطرق زراعتها وبيان أحسن المناهج للحرث والحصاد والدراس والتلقيم والتغطيس والتسميد وإبادة الحشرات المضرّة وعلاج الأمراض النباتية. كما بيّن أنواع الأراضي الزراعية وما يوافق كلّ صنف منها من أصناف النباتات وطرق تصبير الثمار وصناعة المعاجين والمربيات والخشاف والحلويات وغير ذلك. فأخذ الرومان هذا الكتاب النفيس وألفوا لجنة كلّفوها بنقله إلى اللغة اللاتينية التي هي لغتهم فكان أعظم مصدر لعلماء الرومان واليونان أمثال فاطون وكولوميلس وأفلينوس وقاسطوس وغيرهم، فغزوا هذا الكتاب غزوا، وانتفعوا به أعظم انتفاع. ثمّ لمّا أسّس زيادة الله الثالث آخر ملوك الأغالبة بيت الحكمة بالقيروان وجعل إدارته لإبراهيم الشيباني أمر بترجمة

هذا الكتاب الجليل إلى اللغة العربية فكان الانتفاع به أهم، ونقل عنه ابن العوّام وابن البيطار وابن ليون وابن البصال وغيرهم من علماء الأندلس والمغرب المختصين بالشؤون النباتية والزراعية.

ومن أهم التصانيف المؤلفة باللغة البونيقية رحلة حنون إلى سواحل إفريقيا الغربية، فإنّها تميط لنا اللثام عن أحوال تلك البلاد وعن ساكنيها ومعتقداتهم وعاداتهم واقتصادياتهم، ورحلة عملقون إلى شمال أوروبا الغربية، إلى غير ذلك.

وأمّا الأدب الروماني بتونس فقد أنجب أعلاما، فأكبر مؤلف مسرحي روماني هو تونسي، وهو ترنسيوس القرطاجني، وأكبر روائي روماني هو تونسي وهو أبوليوس، وأكبر مشرّع روماني هو تونسي وهو جولياتوس مالتيوس المولود ببلادنا، وأكبر علماء النصرانية يومئذ من التونسيين، وذلك قبل ظهور الإسلام بقرون، وهم ترتوليانوس وقوبريانوس وفولجانس وأوغستينوس.

ويقدّر الأدب المغربي الروماني بمئات المؤلفين الذين نبغوا من المغرب الأقصى إلى الجزائر إلى تونس إلى ليبيا. وناهيك بأن النابغة الليبي سبتيميوس سيفيروس الذي ولي عرش رومة كان من أكبر الكتّاب والفلاسفة (3).

أمّا الأدب العربي بالمغرب من الفتح الإسلامي إلى الآن فحدث عن البحر ولا حرج، فقد أنجب المغرب بأجزائه كلها أكثر من 10000 أديب بين مكثر ومقل وجيد، ودونهم فلاسفة كبار أمثال ابن مسرّة وابن باجة وابن رشد وابن طملوس وابن خلدون، ومتصوفون كبار مثل ابن العربي وأبي مروان المرسي وعبد العزيز المهدوي وأبي الحسن الشاذلي وعبد السلام الأسمر وأضرابهم، ومنهم مؤرخون عظام أمثال ابن حيان والرازي والرقيق وابن خلدون وابن الخطيب، ومنهم شعراء أمثال ابن دراج وابن عمار وابن اللبانة وابن زيدون

---

(3) انظر عنهم : فونتان (جان) : فهرس تاريخي للمؤلفات التونسية.– بيت الحكمة، تونس 1986، ص 9 – 35.

وابن رشيق وابن شرف والحصري وابن حمديس وغيرهم (4).

فهذا هو الأدب المغربي في جملة مختصرة، هذا هو الأدب المغربي من حيث الزمان والمكان والموضوع. أمّا الحديث عنه في شيء من التبسيط فيفتقر إلى مجلدات ضخام. ومنّي عليكم السلام.

(4) تراجمهم معروفة خاصة في تاريخ الأدب العربي لبروكلمان وفي الأعلام للزركلي و معجم المؤلفين لكحالة و تراجم المؤلفين التونسيين لمحمد محفوظ فضلا عن المؤلفات المفردة بعلم أو بمدينته أو بعصره. وقد خصّ المؤلف أغلب الأعلام المذكورين في مقاله هذا بفصول مفردة ذكرناها في فهرس المغاربيات و أوردنا بعضها في هذا الكتاب.

الثورة الجزائرية من 1830 إلى 1956 (*)

إن أعظم محنة عرفتها الدول الإسلامية في تهجم الاستعمار عليها منذ قرن ونصف لهي محنة الجزائر، فقد كانت أطول المحن مدّة، إذ لم يبق الاستعمار في تونس إلا 75 سنة ملطّفا بعنوان الحماية، ولم يبق في المغرب إلا 43 سنة مليّنا بعنوان المشاركة الفعلية والصادقة، ولم يبق في سوريا ولبنان إلا 20 سنة مموّها بعنوان الانتداب من طرف جمعية الأمم. أمّا في الجزائر فقد بقي 126 سنة أي مدة تكاد تكون مجموعة المدد التي قضاها بتونس والمغرب وسوريا ولبنان مجموعة إلى بعضها.

وقد كانت محنة الجزائر أشد المحن، فإنّ الحرب لم تنقطع من 1830 إلى 1956، وإنّ الحرب لم تكن حربا في الأجسام وتلفا في النفوس، بل قد كانت حربا في العقيدة قام بها لافيجري وشيعة الآباء البيض وغير البيض والسورات وغير السورات، وحربا في الثقافة الإسلامية العربية قامت بها جامعة الجزائر وإدارة التعليم وصليبيّ هانوتو ضد اللغة العربية لفائدة اللهجات البربرية، وحربا في انتزاع الأراضي، فقد كانت تنتزع مئات الآلاف من الهكتارات إثر مئات الآلاف من الهكتارات، وحربا ضد الصناعات الجزائرية، وحربا ضد المعالم الإسلامية، فقد حولت مئات الجوامع إلى كنائس ومصليات يهود، وحربا حتى ضد أسماء المدن الجزائرية التي حولت إلى أسماء قواد وأدباء وعلماء من الفرنسيين، فأنت تستطيع أن تدرس تاريخ الأدب الفرنسي بمجرد استعراض أسماء المدن في الجزائر مثل باسكال وفولتير ومونتسكيو وفكتور هوغو وهلمّ جرّا، وحربا ضد الجنسية الجزائرية، فقد أصدرت حكومة فرنسا أمرها الذي يقضي أنّ جميع الجزائريين فرنسيون، وحربا ضد الجنس

(*) مجلة الندوة، ديسمبر 1956، ص 7 – 10؛ جانفي – فيفري 1957 ص 63– 65.

الجزائري بإبادته وبتسليط فريق ضد فريق وبالادعاء أنّه لا يوجد جزائريون ولا أمة جزائرية ولا وطنية جزائرية ولا حكومة جزائرية ولا نظام جزائري، وحربا ضد تاريخ الجزائر، فقد ادعت المدرسة التاريخية الجزائرية أنه لا يوجد تاريخ جزائري ولا حضارة جزائرية فضلا عن أن يوجد شعب جزائري أو أمّة جزائرية، وحربا على التراب الإقليمي الجزائري، فادعت فرنسا وساسة فرنسا في هستيرية جنونية أنّه لا يوجد تراب جزائري ولا إقليم جزائري ولا قطر جزائري وإنّما هو جزء لا يتجزّأ من فرنسا وأنه تراب فرنسي بحت مثل تراب نوتردام في باريس وليس حتى مثل الألزاس واللورين ولا حتى مثل بريطانيا الصغرى.

والحقيقة في أنّ الفرنسيين استعملوا جميع العلوم الإبادية لإبادة الجزائر، وجميع الحيل الشيطانية للقضاء على الجزائر، ذهبوا في سبيل ذلك كل مذهب، ولم يدخروا وسعا، ولم يشحّوا بمجهود، ولم تثنهم تقيّة، ولم يراعوا إلاّ ولا ذمّة، ولا خجلوا احتشاما، ولم يتورعوا، ولم يصدّهم ضمير، ولم تعجزهم حياة، ولم تعوزهم وسيلة.

وقد انفتحت أمامهم الآجال الزمانية والوسائل الحربية الجهنمية والحيل السياسية والميكيافيلية والوسائل التنصيرية الفردية والاجتماعية.

ولكن الشعب الجزائري صمد في حرب الجنود كما صمد في حرب الدين وحرب اللغة وحرب الجنسية وحرب المؤسسات وحرب الاقتصاد.

وطالت محنته ولم ينفد صبره ولا خارت عزيمته ولا لان عوده لعاجم ولا انقاد لترهات الأعاجم.

فمحنة الجزائر هي محنة الإسلام الكبرى، دونها تألب المشركين على الرسول صلى الله عليه وسلم، ودونها حرب الردة، ودونها الحروب الصليبية، ودونها حروب بيزنطة ضد العباسيين والسلاجقة،

ودونها هجوم الإسبان على تونس، وهجوم فرسان مالطة على طرابلس، وغزوة لويس التاسع ضد الحفصيين، ودونها الاستعمار الإيطالي بليبيا، وزحفة نابوليون على مصر، وغارة الإنكليز والفرنسيين وإسرائيل على مصر أرض الكنانة.

ويجب للحق أن نقول إنّ الجزائريين كانوا أكثر المسلمين صبرا للمحنة وتجلدا للكوارث وصمودا أمام الهجومات المتهاطلة من كل الجهات الستّ وفي كل ميدان وبجميع الوسائل وفي كل إبّان وبدون انقطاع في الزمان والمكان والوسائل.

فالولد الجزائري - كل ولد جزائري - يولد في الجهاد ويعيش في الجهاد ويموت في الجهاد.

والبنت الجزائرية - كل بنت جزائرية - تولد في الجهاد وتعيش في الجهاد وتموت في الجهاد.

وقد اشتهرت في التاريخ حروب بطول مدتها، فحرب الفرس واليونان دامت عشرات السنوات، والحروب البونيقية دامت قرنا وبعض قرن، وهنالك حرب المائة سنة بين الإنكليز والفرنسيس، وحرب الثلاثين سنة بين الألمان والفرنسيس، ولكن حرب الجزائر أطولها أمدا وأعنفها وسائل وأبعدها عن الرحمة والشفقة وأعمّها مصيبة وأشملها محنة.

لقد اشتكى الفرنسيون من فظائع أورادور وبو خنفالد طيلة قرن وثلث قرن.

فالمحنة الجزائرية المستطيلة والثورة الجزائرية الماجدة هي في نزاع الشرق والغرب والإسلام والنصرانية شبه دمل إثبات قد انحصر في الجزائر. فانقادت جميع الشرور الاستعمارية إلى الجزائر وجميع جراثيم الاستعمار إلى الجزائر، فكأنّ الجزائر مخبر كيمياوي للاستعمار وللصليبيات ولقهر الشعوب الإسلامية ولفتنة المسلمين في دينهم ولغتهم وجنسهم وكرامتهم وعزتهم ودولتهم واستقلالهم.

قد جربت التجربة الاستعمارية الصليبية الأولى في الجزائر. ثم انتقلت إلى تونس ومصر وليبيا والمغرب وسوريا ولبنان وفلسطين والعراق والهند الصيني ومادغشقر والسينغال.

وفي الجزائر قعدت قواعد الاستعمار وأصلّت أصوله وحرر غراماطيقه وضبط إنجيله المزيف ثم أبطلت قواعده في العالم. واستؤصلت أصوله من الدنيا وألغي غراماطيقه وأبطلت شريعة إنجيله، وبقيت قواعده وأصوله وغراماطيقه وإنجيله في الجزائر، تحاول هنالك أن تستعيد شبابها وتجدد عنفوان قوتها وتستجمع أسبابها الفتاكة من جديد لتطفر من هنالك طفرة جديدة تغشى منها العالم من جديد.

فحرب الحرية في الجزائر هي حرب الحرية في العالم، وأبطال الحرية في الجزائر هم أبطال الحرية في العالم، وأبطال خصومة الاستعمار في الجزائر هم أبطال خصومة كلّ استعمار في العالم، والمجاهدون للصليبية في الجزائر هم مجاهدو كل صليبية في العالم، ورواد السلام في الجزائر هم العاملون من أجل الاستقلال في القارات الخمس.

لو أحصينا عدد أبطال الجزائر لاستغرقوا كتب التاريخ ولفاقوا بعددهم عدد أبطال العالم في كل العصور. ولو أرخنا كل حادثة لوجب أن يتوفر على ذلك جميع مؤرخي الدنيا منذ هيرودوتس إلى الآن.

ولكننا سنلخص ذلك تلخيصا كذرة الرمل في كثبان الصحراء وكالقطرة من اليمّ وكالنجم من الفلك وكالشعاع من الشمس.

إذ كيف نؤرخ حرب الأمير عبد القادر والشيخ بوزيان وأولاد سيدي الشيخ والمقارنة وسطيف وخراطة والأوراس ؟

ولكن ما لا يدرك كلّه لا يترك جلّه، فإلى العدد المقبل والسلام. (1)

---

(1) لمزيد الاستفادة انظر : المدني (أحمد توفيق) : كتاب الجزائر/ التاريخ و الجغرافيا و المجتمع.– الجزائر 1931، هذه هي الجزائر.– 1957، جغرافية القطر الجزائري.– 1948، 1952، 1964.

الأزمات الدينية في التاريخ التونسي (*)

إذا درسنا تاريخ الإسلام بالمملكة التونسية - من عهد الفتح العربي(27 هـ) إلى الآن ومررنا بالدول الإسلامية العربية أو العربية البربرية التي تعاقبت على رأس الحكم التونسي من الأغالبة إلى الفاطميين إلى الصنهاجيين إلى الحفصيين إلى الحسينيين - وجدنا المملكة التونسية قد اجتازت بعدد من الأزمات الدينية التي تختلف أهميّة ومقدارا، وتختلف امتدادا أو قصرا في الزمان أو في المكان، ويختلف تأثيرها على تكييف الروح الديني إشعاعا وضؤولة. ونحن مستعرضون لك أهم الأزمات الدينية التي مرّ بها التاريخ التونسي الإسلامي، ثم نفصّل ذلك تفصيلا.

1- أزمة النشوء :

وهي أزمة مرّت بها تونس عند انتشار الديانة المحمدية بربوعها. ونستطيع أن نقول إنها بدأت سنة 27 هـ وانتهت نهائيا على رأس القرن.

2- أزمة اختيار مذهب ينضوي تحت لوائه العدد الأوفر من السكان :

وذلك في القرن الثالث على عهد بني الأغلب عندما دفع التسامح الديني واجتهاد الأئمة إلى تكاثر المذاهب. وقد حلّ سحنون الأزمة بترجيح المذهب المالكي.

3- أزمة الصراع بين المالكية والشيعة :

انتشرت المالكية على عهد الأغالبة انتشارا عظيما. ثمّ لما زالت الدولة الأغلبية وحلت محلها الدولة الفاطمية أو العبيدية - وكانت هذه الدولة على مذهب الشيعة - نشبت " الفتنة " بين الشيعة

(*) المجلة الزيتونية، جوان 1945، ص352 – 353.

الرسمية" و"المالكية الشعبية "فانتصر مذهب الشعب على مذهب الدولة.

4- الأزمــة السلفيــة:

وهكذا نستطيع أن نسميها. وذلك أن تبحر المدنية (1) على عهد الصنهاجيين قد أدى إلى انحلال ديني احتيج في علاجه إلى الرجوع إلى ما كان عليه السلف الصالح من التمسك بأهداب الكتاب والسنة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا هو الإصلاح الكبير الذي قام به أكبر مصلح ديني في الشمال الإفريقي المهدي بن تومرت.

5- أزمة القديم والحديث:

استولت أوروبا على جهات من العالم الإسلامي، وحملت إليها مدنيتها المادية ،فوقع ضعفاء الإيمان في أزمة إيمانية شديدة. على أيـة قاعدة وإلى أيّة نسبة يستطيع أحدنا أن يوفق بين القديم والحديث ؟ أي بين المدنية الإسلامية والمدنية الأوروبية ؟ وعلى أية قاعدة، وإلى أية نسبة، يستطيع أحدنا أن يوفق بين الشرق وبين الغرب ؟ وبين تراثه القومي الذي هو زاهد فيه وبين المدنيّة الجديدة الخلابة التي أقبل عليها في شيء عظيم من التكالب.

وقد مرّ الناس خلال هذه الأزمة بثلاثة أطوار:

- طور انكماش رفضوا فيه المدنيّة الجديدة بكلّيتها، ونفروا منها نفورا كبيرا، وازدادوا تمسكا "ماديّا" بالمدنيّة الإسلامية.

- طور انفعال أقبلوا فيه على المدنيّة الجديدة بقوة تضاهي ابتعادهم عنها في الأول.

- طور ارتجاع، وهذا هو الطور البسيكولوجي الخطير. أعادوا فيه

(1) في الأصل: المدينة، وهو تصحيف مكرّر.

النظر في المدنيّتين، وسبروا غورهما، وقابلوا بينهما، ووازنوا بين محاسن كل واحدة منها. فكان إلى المدنيّة الإسلامية أشد ميلانا مع إدخال بعض العناصر المادية التي لا تختص بمدنيّة دون أخرى، مثل الاختراعات العلمية النافعة. فبدو جزيرة العرب جنود ابن السعود المحافظ هم الآن ميكانيكيون موتوريون، أي أنهم تركوا الرمح والجمل واستعملوا الدبابات والرشاشات والدراجات النارية، وواصلوا بين الجهات بالطائرات. ومع ذلك فهم يقيمون الحدود طبق ما أمرت به الشريعة المطهرة، ويؤدون الفروض على الوجه الأكمل. أنت لا تجد السينما في العربية السعودية، لكنك تجد الهاتف على حبل يد ابن السعود، لأن السينما من مظاهر اللهو والخلاعة والدعة التي أتت بها المدنيّة المادية، وهي من جرائمها القاتلة أيضا. أمّا الهاتف فإنه جهاز لا بدّ منه لدولة حية ناشطة، لها بَدْوُها الميكانيكيون.

قد استعرضنا باختصار أهم الأزمات الدينية التي مرّت بها المملكة التونسية في تاريخها الإسلامي. ولو نظرت إليها بعين تحليل لوجدت أن الأزمة الأولى - وهي أزمة النشوء - إنما هي أزمة ضميرية فردية، أي أن كل فرد من أفراد المجموع التونسي قد وجد نفسه أمام ديانة جديدة متحتمة، فوازن في ضميره بين المعتقد القديم والمعتقد الجديد، فوجد الجديد أحسن من جميع الوجوه، واعتنقه اعتناقا نهائيا، وهو في ذلك مخيّر لا مسيّر. وقد صدر عمله هذا عنه طواعية عقب موازنة. ثم أنّ هذه الأزمة الضميرية الفردية قد انقلبت إلى أزمة مجموعية لأنها لمّا كانت شاملة لكل فرد من أفراد الشعب بحسبه فقد شملت مجموع أفراد الشعب بكلّيتهم وعن بكرة أبيهم. (للبحث صلة)(2)

(2) لم يكمله أو لم تنشر بقيته، لا في هذه المجلة و لا في غيرها.

الحنيـــن إلـــى الوطـــن (*)

... أواه - !كلمة انفجرت من أربعة أفواه -أن هناك الوطن التونسي!
القلوب خفاقة في الأحشاء خفقان الطائر المنتفض.والنار تلتهم المهج كما يلتهم النور الظلام. والعواطف تلعب في الصدور لعب الرياح في وسيع الفضاء. والنفوس تواقة متشوقة تشوق الغريق إلى ساحل البحر.

... أواه -! كلمة انفجرت من أربعة أفواه : أن هناك الوطن التونسي!
البحر يملأ الفضاء إلى البعيد البعيد ...يعانق السماء في أقصى الأفق معانقة أبوية، ويلثم شفتها المتوردة بلمته الزرقاء الإثمدية، ويبسم في وجه الشمس المنتشرة فيضاحك ثغرها، ويسطع النور من محياه كاللمعات الفضية.. يضم السفينة بحنان ويضعها في صدره فيشق حيزومها ذلك الصدر كما يشق الغرام صدور المتيمين. ولا أرض هناك ... فالبحر يملأ الفضاء إلى البعيد البعيد!

فجأة! ظهر سلك من الأرض في عرض البحر...

فجأة! يلوح كسنا النور البارق...

فجأة! يختفي كالحلم اللذيذ الشامت.

أرأيت العذراء تنام على فراش الحرير كاشفة عن زند ونهد وجيد؟

أرأيت زهرة يانعة تضطجع الدمقس الأزرق وتلثم حزنه بشفتها الأرجوانية الدامية؟

كذلك تنام الأرض التونسية!

مسرورة فتانة كالعذراء النائمة على فراشها.

مسرورة يانعة كالزهرة المضطجعة تستغوي الناظر، وتسحر العاشق، وتنحر الولهان.

(*) كتبه عند عودته إلى تونس بعد الدراسة بفرنسا، و نشر في نشريّة تكريمه.– دار الثقافة ابن رشيق (تونس) ديسمبر 1971 ص 8–9 نقلا عن "النديم" فيفري 1928.

فانفجرت التأوهات من الصدور بين حزينة ومبتهجة، وارتعدت النفوس من البغتة ارتعاد الكهرباء في عرض السحاب.

وانفجرت الكربة انفراج السماء فوق الأرض، فضحكت الثغور، وطربت القلوب، ورقصت الأنفس.

هكذا رأيت أربعة شبان من التونسيين على متن باخرة يرجعون إلى بلادهم بالأمل الضاحك، والعمل النافع، والنية الحسنة .. قد لاحت لهم أرض بلادهم بعد شوق وحنين، فتذكروا الغربة وآلامها، وتذكروا أرض الوطن وأحلامها، فشخصت عيونهم إلى البعيد، وغدت تداعب ساحل الوطن، وابتسمت قلوبهم إلى أرض الوطن، واهتزت نفوسهم من أجل الوطن... وعانقهم الوطن بترحاب فتسرب حبه إلى القلب تسرب الماء في الرمال.

أواه ...كلمة انفجرت من أربعة أفواه: أن هناك أرض الوطن.

رحلة إلى القيروان (*)

قلت :

والذي يسترعي اهتمامك ويستلفت نظرك في هذا الجامع، جامع عقبة بن نافع الفهري، يا صاحبي، هو أن جميع العناصر التي تتألف منه أجزاؤه وكلياته هي عناصر أجنبية عن الفنّ العربي، لكن المجموع عربي تام، لا مسحة من العجمة عليه، ولا شائبة من الإدخال فيه. فهو عربي مائة في المائة !

تقول : وكيف يكون ذلك يا ترى ؟ أقول لك : إن ذلك هو سرّ النبوغ التونسي ... النبوغ التونسي الذي يبتلع العناصر الأجنبية ثم يحولها بسرعة هضم واستساغة إلى موجودات تونسية بحتة.

قال :

وما هو دليلك على ذلك كما يقول المناطقة ؟

قلت :

دليلي على هذا بسيط. انظر إلى تاج هذه السارية. إنه تاج روماني لا شك، وعلامة التاج الروماني أنه مؤلف من ورق الخرشوف. لكنك إذا أمعنت النظر، وجدت الفنان العربي من أخذ زنجيره ونقح بضربات بسيطة قليلة ورقات الخرشوف وحولّها إلى ورقة أعناب. وورق العنب أجمل من ورق الخرشوف، لأنّ تشاريفه أبدع وتضاريسه أروع وبسطه أشبع. ولأنك تستطيع أن تراه مجانبة فيمثل لك صورة تشبه ريشة الطاووس، وتستطيع أن تراه مجابهة فيمثل لك شبيها بكف العروس.

وهذه التنقيحات التي أدخلها الفنان التونسي العربي على هذا التاج الروماني، والتي دلت على صفاء قريحته وجلاء فكرته وحسن تذوّقه لمعاني الجمال، ليست إلا مرحلة أولى ستعقبها ثانية. فانظر

(*) كتبه للإذاعة في جانفي 1950 في شكل حوار مع أحد رفاق الرحلة الخيالية، ونشر في نشرية التكريم، دار الثقافة ابن رشيق (تونس)، ديسمبر 1971 ص 14– 18.

بربك إلى هذا التّاج من هذه السّارية. تأمّل فيه. أرأيت أنّ الفنان العربي قد أخذ جنزيره وحوّل ورقة الخرشوف إلى ورقة كرم. ثم لم يقف عند هذا الحد بل تجاوزه إلى مرحلة أخرى، فخرّم ما تحت الورقات وجوّفها وخششها، ووضع فيها مصابح ومنائر مختلفة الألوان، إذا أوقدت بالليل في الثمانين سارية التي يشتمل عليها الجامع، وأرسلت من خلال الأوراق أشعتها الحمراء والخضراء والصفراء والزرقاء، كان تلاعبا من النور والظلال، ومن الأشباح والخيال، ومن الرسوم والأشكال يسحر اللبّ ويأخذ بمجامع القلب؟ فأين هو أثر الرومانية في هذا الإبداع ؟

وما دمنا نتحدث عن الأعمدة والسواري، وجب أن أستلفت نظرك إلى أشياء : منها أن الفنان العربي، الذي أخذ موادّ بنائه من الأجانب، قد تصرف فيها ابتداعا واختراعا. فلننظر مثلا إلى سارية فينيقية بقرطاجنة أو إلى سارية رومانية بسبيطلة. فما هي القاعدة المركوزة عليها، وعمود السارية والوسادة التي يتبوأها التاج الذي نسمّيه أيضا رأسا أو دماغا على اختلاف التعبير واتفاق المعنى. أخذ الفنان العربي كلّ هذا وتصرّف فيه وزاد عليه، أصلا وتفريعا ووضعا وموضوعا.

فإن الفنان العربي التونسي قد اخترع العلوية، وهي سارية ثانية قد وضعها فوق السارية الأولى للزيادة في ارتفاع السقف ومقدار النور الذي يخترق النوافذ إلى بيت الصلاة.

انظر هذه العلوية، وتلك، والأخرى وراءها.

قال :

الآن فهمت شيئا كثيرا، فقد كنت زرت جامع قرطبة منذ سنتين، وكنت اعتقد لحدّ الآن أن الفنّان الأندلسي أرقى من الفنان التونسي كما هو الشائع في اعتقاد النّاس. والآن قد تبين لي أن الفنان الأندلسي إنما هو تلميذ للفنان التونسي، كما أن الفنان القوطي أو الرومانصي إنما هو تلميذ أيضا للفنان التونسي. وهذا مظهر من

مظاهر النبوغ التونسي لا يشك فيه إلاّ التونسيون.

رأيت العلويات في جامع قرطبة، وسألت المهندس الإسباني الذي كان يرافقني فقال لي : إن العرب بنوا الجامع الأول صغيرا على حسب حاجة المدينة الناشئة، ثم اتسعت المدينة فزادوا مساكب وبلاطات حول الجامع، لكنّ نوره انتقص .وتفاديا لذلك حوّلوا قوس مسمار الوسط، التي هي نصف دائرة كاملة، إلى قوس منفوخة تزيد على الأولى بالثلث، فزاد ثلث النور. ثمّ زادوا الجامع توسيعا على نسبة عمران المدينة، فحوّلوا القوس المنفوخة إلى قوس مهموزة من أعلى ثم إلى قوس منفوخة ومهموزة، فلم يكف ذلك فزادوا فوق كلّ سارية علوية، فتضاعف النّور على نسبة تضاعف المساحة. وكنت أعتقد أن هذه الابتكارات هي من بنات أفكار الأندلسيين، فإذا بالتونسيين قد سبقوهم إليها.

قلت :

لقد صدقت، وبالحق نطقت. وأزهد الناس في العالم عشيرته وذووه.

وإذا شئت الآن، تحولنا إلى المقصورة التي بناها أبو تميم المعزّ بن باديس الملك الصنهاجي في القرن الخامس وهي عجيبة الأمر حقا.

هي عجيبة الأمر لأنّ ما اتخذت منه (من خشب الساج المصنوع) ليس له نظير رقة وإتقانا وتفننا واستنباطا. وهي عجيبة الأمر لأن ما بها من الكتابة الكوفية نموذج فريد في الدنيا، لا يكاد يظفر له بنظير. خذ بيدك هذه العصا. إنها عصاة سحنون بن سعيد التنوخي الإمام، التي كان يخطب بها على المنبر، وهي أيضا من خشب الساج، وتتبّع معي بعض الأحرف المحفورة في صميم الخشب.

أولها : "بسم اللّه الرحمان الرحيم."

هذا هو الخطّ الكوفي المزهّر والمعرّش. وآنت تعلم أن الخط العربيّ خطان : الخطّ الكوفي والخطّ النسخي. فالكوفي لكتابة المعالم والمصاحف الكريمة، والنسخي لعموم الكتابة المتداولة

الجارية. والكوفي قد مرّ بأطوار مختلفة : أوله الكوفي الأغلبي البسيط، وهو لا يزيد على كونه خطّا محفورا في الحجر أو مكتوبا على الرقّ، وحروفه كلها تتكوّن وتتصل ببعضها اتّصال الزوايا القائمة.

فنتج عن ذلك سوء توازن في جمال الخط. فمن جهة حروف منبطحة، تنساب كالأفاعي، ومن جهة أخرى أعمدة قائمة وهي الألف واللام وغيرهما، كأنها أجذاع نخل خاوية، ليس بها تفريع ولا توريق ولا تعريش .فكأنها غابة مرّت بها العاصفة فاقتلعت أفرعها، ونسفت أوراقها، وكسحت أغصانها فتركتها أعرى من إبرة .والفن العربي يأبى الخلاف، والجمال ينفر من التجرد والعراء .فحاول الفنان العربي أن يكسو بساط هذه الحروف وغابتها العارية، من نفس طبيعتها. فأخذ الألف واللام وولّد فيهما تكاريش وتفاريع جعلتها كأوراق الكروم المطوية أو أعناق الطيور الممتدة أو أرياش العصافير الزاهية. وأخذ الحروف المعرقة إلى أسفل كالميم والراء والزاي وارتفع بها إلى أعلى في تقويسة إثر تقويسة، ثم ولّد منها رجعة كعنق الحمام أو أغصان الكروم، قد بسطت على ذلك الخلاء الموجود بين الأحرف المنتصبة فعمرّها بكساء من الأزهار والأغصان وأعناق الأطيار.

ثم تفنن في ذلك فكوّن عريشة تربط بين أجزاء السطر وتعانق الألفات واللاّمات والراءات وتلتف حول نفسها بتبرّج وخيلاء أو بتدلل وتذلل وانكسار. فولد من أوضاع الحروف مروجا حية أو بساطا بديعا، وجعلها تنطق بمعان فذّة من إقدام أو انحدار، ومن زهو أو خفض جناح. انظر إلى السين في" بسم اللّه"، كيف جعل بسنانها منائر وصوامع. وانظر إلى اللام في" اللّه "كيف جعلها محرابا مشرّف التقويس. وانظر إلى العزة القعساء في كلمة " المعزّ"، فالميم منارة رباط حربي والعين معقودة الزّوايا كأنها طاقية من جوهر فوق راس غادة حسناء، والزاي ممتدة إلى

أعلى في تثنّ وتقوس وانبراء وارتجاع، كأنها حية تتلاعب في انسيابها وانكماشها وتحنّيها.

وانظر إلى هذه العريشة كيف التفّت حول الألف واللام، ثم مدّت عنقودا من عناقيدها وأدلته بإهمال مقصود، فوق العين من" المعز"، فكأنه عرجون تمر يرنو إليها أو أقماع بلور تشعّ فوقها إشعاعا، أو فيض من الجواهر ينوي أن ينتثر عليها انتثارا. وقس على هذا جميع الحروف. وأنت إذا أردت أن تنظر إليه بإمعان، لقضيت الساعات تلو الساعات والأيام تلو الأيام، وأنت تعجب من نسجها وجمال شكلها، وتقرأ فيها معاني التصوف ومعاني الشعر الصامت الناطق من أحرف خشبية قد أبدعتها فكرة فنان.

قال صاحبي :

والله إن هذا الفنّ لمدهش. هذا هو الفن التونسي ؟ ويقولون إنه لا وجود للفن التونسي. وهذه هي العبقرية التونسية، ويقولون إنه لا عبقرية للتونسيين.

أين هم الخطاطون الآن ؟ ولماذا يشوّهون كتاباتهم بهذه الخطوط الشرقية المنحطة وأمامهم هذه النماذج الرائعة ؟!

وأين هم المصورون التونسيون؟ ولماذا لم تجد عبقريتهم الكلولة المنتقصة مجالا إلا في تشويه صورة حمام؟

وأين هم النجارون التونسيون؟ ولماذا نراهم يقلدون تقليدا ركيكا الفنّ الإيطالي المنحط، أو يقتبسون من الخطوط أردأها صورة ؟

يا للّه ! كل هذه الثروة ونحن نوسم بالفقر.

يا للّه ! كلّ هذه النماذج ونحن نقلد كالقرود.

قلت :

لقد آن وقت الدروس. فلو انتقلنا من هذه القاعة إلى المكتبة الأغلبية.

قال صاحبي :

المكتبة الأغلبية ؟ ما تعني بذلك؟ المكتبة الأغلبية التي ترجع إلى

القرن الثالث، أتوجد هنا مكتبة قد مضى عليها أحد عشر قرنا؟

قلت:

نعم. هو كذلك. وما العجب. لا شك أنها أقدم مكتبة في الدنيا، أو على الأقل من أقدم مكاتب الدنيا، ولكنها موجودة على كل حال ..وموجودة في نفس المقصورة التي بناها لها بنو الأغلب وأودعوها فيها. وهي جزء من بيت الحكمة.

قال:

وماهو بيت الحكمة ؟

قلت:

هو مؤسسة إسلامية فريدة في نوعها ... هو مؤسسة تجمع بين الجامعة وبين المجمع العلمي وبين دار التعريب ودار الكتب.

فتصوّر بناية ضخمة وضخمة جدا، قد اجتمعت فيها أسباب الفنّ وآيات الجمال وبدائعه. فالشكل جميل، وترتيب الغرف جميل. وتصوّر ... الهيكل العام جميل والزخرف جميل والرياش جميل. وتوفرت فيها أسباب الراحة من المفروشات الأنيقة، والمقاعد الوثيرة، والمجالس البديعة، والقاعات الرحيبة، والبرك المؤتلقة كالمرآة، والبخورات المتأرجة من العود القرمزي والقرنفل القاني والياسمين الأبيض والبنفسج الأزرق.

فأنت إذا أخذت مجلسك بهذا الإيوان، نظرت من أقواسه إلى بساتين ممتدة على رمي البصر، تحجبها في النهاية جبال زرقاء مؤتلقة كعنق الحمامة. ويمر بصرك فوق عرائش ... الورد والياسمين والحناء وفوق أعمدة السرو المخروطة من الزبرجد. وإذا نظرت من الناحية الأخرى رأيت في البعيد السمّاط الأعظم وحركته المتدفقة، والسور وبناءه الجليل، وقنطرة ابن أبي الربيع وأقواسها وأقبيتها وتجاويفها كأنها سمط من الغواني قد تماسكن باليد.

وفي وسط الإيوان بركة مياهها تهزج بخريرها، وأنابيبها تتفق مياهها بزئيرها، وحيتانها الحمراء تنساب كقرون المرجان على

صدر الفتاة أو كدمية من الأرجوان فوق اللبّات.
وحول الحيطان طاقات وطاقات قد رصفت فيها الكتب.
وقد بثت على الزرابي نضائد من خشب رفيع مرصعة بالصوف، فوقها أوراق ودويّ وأقلام مع صمت لا يقطعه إلاّ صرير الأقلام فوق القراطيس، أو خرير المياه في الأنابيب، أو زقزقة العصافير بين الأغصان أو فوق السواقي.
أية قريحة لا تجيد مطالعة أو تأليفا ؟
وأيّ خيال لا يصفو فتتدفق شاعريته تدفّق المياه من حناجر الشاذروان أو انبجاس الأهازيج من حناجر الأطيار فوق الأغصان ؟
وإذا شئت ترجمة لنصّ فارسي أو يوناني أو لاطيني أو بربري، وجدت تحت تصرفك من التراجمة ما يكفيك المؤونة ويأتيك بالمعونة...
وهنالك أقسام أخرى فيها النسّاخون والورّاقون. وهنالك غرف فيها المتجادلون والمتناقشون.
وهنالك حجرات قد اختص بها المترجمون والمعرّبون والمصحّحون.
وهنالك قصور لإلقاء الدروس في العلوم الرياضية المعروفة بالدخيلة والمأخوذة عن الهنود والفرس واليونان والسريان والرومان والبربر والفينيقيين.
قال صاحبي :
حسبك.
فسنرى كلّ هذا تفصيلا بعد راحة الغذاء. مع الشكر والسلام.

صناعة الكتاب بالقيروان (*)

1- العصر الذهبي :

لا شكّ في أنّ العصر الصنهاجي يعتبر بحقّ العصر الذهبي للأدب التونسي. فقد جاء بعد العصر الأغلبي الذي كان دور إنشاء، ثمّ العصر الفاطمي الذي كان دور توسّع في الإنشاء. وعلى حين قد ألّف القزّاز في « الضرائر» (1) أي صناعة الكاتب والشاعر، وقد ألف عبد الكريم النهشلي (2) في نفس الموضوع حتّى بلغ به ابن رشيق (3) وابن شرف (4) درجة صناعية كان بعض المؤلفين التونسيين يضع تصنيفا في فنّ

(*) نشر في مجلة المباحث (تونس) أفريل 1946، ص 13.

(1) هو محمد بن جعفر القزّاز القيرواني (نحو 345– 412 هـ /956 – 1021م). قال عنه ياقوت : «كان إماما علاّمة قيّما بعلوم العربية". رحل إلى المشرق وأخذ عن الآمدي و أقام بمصر حيث خدم الفاطميين و خاصة العزيز الذي صنّف له عدّة مؤلفات. و بعد و فاته سنة 386هـ/996م عاد إلى إفريقية. من تلامذته ابن رشيق و ابن شرف. ومن مؤلفاته" ما يجوز للشاعر في الضرورة" حقّقه المنجي الكعبي (الدار التونسية للنشر). انظر عنه : الكعبي : القزاز القيرواني/ حياته و آثاره.— تونس 1968 ؛ محفوظ (محمد) : تراجم المؤلفين التونسيين.— دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ج4، ص 81– 83.

(2) هو عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي القيرواني (ت 405 هـ/1014م) شاعر و ناقد عارف باللغة والأدب. ولد بالمحمدية (المسيلة) بالجزائر وعاش بالقيروان و المهدية. خدم المعزّ بن باديس. من آثاره : الممتع في علم الشعر وعمله، وصلنا منه منتخب حققه المنجي الكعبي (الدار العربية للكتاب، تونس 1978)، انظر عنه : الكعبي : النهشلي وكتابه الممتع.— الدار العربية للكتاب، تونس 1978 ؛ محفوظ : تراجم... 5/ 47 – 48.

(3) هو الحسن بن رشيق القيرواني، المسيلي الأصل (390 – 463 هـ/ 1000 – 1071م) شاعر وناقد ولغوي. حلّ بالقيروان سنة 406 هـ/1016م فتعلم على أعلامها كالخشني والقزّاز وإبراهيم الحصري والنهشلي. ضمّه علي بن أبي الرجال إلى ديوان الإنشاء في بلاط المعز بن باديس فأصبح من خيرة شعرائه. وكانت بينه وبين ابن شرف صداقة فخصومة. بعد سقوط القيروان على أيدي بني هلال سنة 449هـ / 1057 م انتقل إلى المهدية حيث مدح المعزّ و ابنه تميما. وبعد وفاة المعزّ رحل إلى صقلية حيث تصالح مع ابن شرف. ومات بمازرة. من كتبه : العمدة، في عدّة طبعات، منها ط. القاهرة 1955، قراضة الذهب.— تحـ. ش. بويحيى، تونس 1972، أنموذج الزمان، وهو مفقود، جمع نقوله و حققها ب. البكوش وم.ع. المطوي و طبع بتونس. انظر عنه : محفوظ : تراجم... 2/ 350 – 355.، دائرة المعارف الإسلامية (بالفرنسية ط. جديدة) بقلم ش. بويحيي 3/ 927 – 928 ؛ بويحيى (الشاذلي) : الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري (بالفرنسية) تونس 1972، ص 104 – 116، (بالعربية بعناية محمد العربي عبد الرزاق) بيت الحكمة، قرطاج / تونس، 1999 ج1 ص 191 – 211.

(4) هو محمد بن أبي سعيد بن محمد بن أحمد بن شرف الجذامي القيرواني (390 – 460هـ/ 1000 – 1067م) أديب و شاعر و ناقد. عاش في محيط الأمير المعز بن باديس الصنهاجي. و كانت بينه وبين ابن رشيق صداقة فعداوة أثّرت في إنتاجهما.غادر القيروان إلى المهدية عند الزحفة الهلالية حيث أقام في جوار الأمير تميم بن المعزّ، ثم رحل إلى صقلية حيث التحق به ابن رشيق بعد وفاة المعزّ (24 شعبان 454هـ / 2 سبتمبر 1062م) فتصالحا. ولكن ابن رشيق رفض مرافقة ابن شرف إلى الأندلس فأقام بألمريّة و مات بإشبيلية. له : أبكار الأفكار من شعره ونثره، رسائل الانتقاد. انظر عنه : محفوظ : تراجم... 3/ 159 – 165.، بلاّ (شارل) : دائرة المعارف الإسلامية (بالفرنسية) 3/ 960–961 : ش. بويحيى : الحياة الأدبية ...(بالفرنسية) ص 116 – 124، (بالعربية) ج1 ص 213 – 228.

الكتاب نفسه من صناعة الرقّ والكاغذ (5) والحبر والليق والتذهيب والتفضيض (6) والتجليد. فقد جاءت هذه الصناعة المادية متمّمة للصناعة اللفظية و الإنشائية التي بدأت على عهد القزّاز، وبلغت أوجها على عهد ابن رشيق.

2- **صدفة غريبة :**
كنت ماراً في القيلولة ببعض أزقّة القيروان فإذا بشابّ يلاقيني و يخبرني في تلهّف أنّه كان يبحث عنّي و أنّه قد علم الغاية من قدومي إلى القيروان وهي إظهار المجد العلمي التونسي و إحصاء التراث الفكري و القيرواني الذي هو عمدة التراث الفكري المغربي، وأنّه قد أراد أن يسهّل عليّ مأموريّتي و رأى أن ييسّر عليّ مهمّتي بتقديم كتاب...
3- «عمدة الكتّاب وعدّة ذوي الألباب، وهو عدّة أبواب ممّا ألّف للأمير الأجلّ باب العزّ ابن باديس صاحب المهدية» (7). وهو عين الكتاب الذي طالما كنت أسمع به وأبحث عنه لأنّه أحسن تأليف عربي في علم " الباليوغرافيا " العربية أي علم تاريخ الخطوط وتصنيف الكتب وأنواع الحبر والليق والرقّ والكاغذ. وهذا الكتاب صغير الحجم، يتركّب من 37 ورقة من القطع الصغير بخط جميل جداً على ورق عتيق، ويتألّف من إثني عشر بابا، وهي :
[الباب الأوّل] في فضل القلم والخط واستنخاب (8) الأقلام الجيّدة و اختبارها و اختلاف بريْها على أجناس الخطوط وصفة الدواة و اختبار آلاتها من السكاكين وغيرها.
[الباب الثاني] في عمل أجناس المداد.

---

(5) انظر عنها : عبد الوهاب (ح.ح) : ورقات... – ط. مكتبة المنار، ج 1، تونس 1964، ص 207 – 209 (انتشار صناعة الكاغذ).
(6) هو زخرفة الكتاب بالفضة، كالتذهيب بماء الذهب.
(7) كذا. وعلّق صاحب المقال في الهامش قائلا : لم يذكر في الكتاب اسم مؤلفه كما ترى ولا تاريخ تأليفه. وكل ما يمكن أن نذكره هو أنّ الكتاب قد ألّف في عهد الأمير ابن باديس كما تدل عليه عبارته، أي فيما بين سنتي 408 و 450 هـ [1017 – 1058 م].
(8) أي انتخاب الأقلام واختيارها.

[الباب الثالث] في عمل الأحبار السود.
[الباب الرابع] في عمل الأحبار الملوّنة.
[الباب الخامس] في عمل الليق.
[الباب السادس] في تلوين الأصباغ و خلطها.
[الباب السابع] في الكتابة بالذهب و الفضّة و ما يقوم مقامهما.
[الباب الثامن] في وضع الأسرار في الكتب.
[الباب التاسع] في عمل ما يُمحى به الدفاتر والرقوق.
[الباب العاشر] في عمل الغراء و الحلزون و جلد غراء السمك و إلصاق الذهب و الفضّة وصفة مصاقله وصقله وأقلام الشعر والريش و جميع آلات الذهب.
[الباب الحادي عشر] في عمل الكاغذ و توشية الأقلام و نقشها وسقي الكاغذ وتعليقه.
[الباب الثاني عشر] في صفة التجليد وجميع آلاته حتّى يُستغنى عن المجلّدِين.

4- قيمة الكتاب:

إنّي مدين لصديقي الفاضل سيدي محمد بن عبد الله بهذه التحفة الثمينة من تاريخ الثقافة التونسية، مدين له بهذا الكتاب الذي أظهر قيمته و بيّن موقعه العظيم في عموم التراث الإسلامي.
بعد ما نقل الأمويّون دواوين الحكومة الإسلامية الناشئة من اللغات الأعجمية إلى اللغة العربية أخذ الناس يؤلّفون في "أدب الكتّاب". وأقدم من فعل ذلك عبد الحميد (9) فاعتنى بالناحية الخلقية، ثمّ ابن قتيبة

(9) هو عبد الحميد بن يحيى بن سعد المعروف بالكاتب (ت 132 هـ/750م) كاتب بليغ خدم مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية في المشرق، وقتلا معا في بوصير بمصر. له: رسائل في ألف ورقة، و نصيحة الكتّاب ومايلزم أن يكونوا عليه من الأخلاق والآداب. انظر عنه: كحالة (عمر رضا): معجم المؤلفين.– مؤسسة الرسالة، بيروت 1993، ج2، ص 67.

(10) فاهتمّ بالناحية الآلية، ثم الصولي(11) وابن المدبّر (12) فتحدّثا عن الأقلام و أنواع الحبر، ثمّ ابن النديم الورّاق (13) فتكلّم عن تاريخ الخط العربي. و لكنّ مزيّة مؤلّفنا التونسي أنّه جمع هذه النواحي المختلفة المتعلّقة بموضوع واحد في تصنيف واحد.

وإذا كان القلقشندي المصري صاحب " صبح الأعشى" في 14 مجلّدا (14) قد بلغ بفنّ إنشاء الدواوين إلى هذه النهاية من التصنيف فإنّ تأليفه قد كان يعني على الخصوص ما يسمّى " بالدبلوماسية " وفنّ معرفة السجلاّت. وكلاهما فرعان عن الباليوغرافيا. فكتابنا القيرواني " عمدة الكتّاب" هو أشمل للموضوع بالرغم عن صغر حجمه.

وإذا كان الجغرافيون المسلمون أو القلقشندي نفسه يحدّثوننا عرضا عن تاريخ الكاغذ وصناعته فإنّهم لم يجعلوا من الرقّ و من الكاغذ و ممّا يتعلّق بهما فنّا مستقلاّ بالتأليف مثلما فعل مؤلّفنا القيرواني. وأكثر من هذا و ذاك أنّ هذا الكتاب قد عرّفنا بوضوح بصناعة الكاغذ بالبلاد (15) التونسية و أثبت أنّها كانت موجودة بالقيروان و المهدية قبل انتشارها بأوروبا بقرون. ومن المعلوم أنّ الكاغذ هو عنوان المدنيّة، وبه تقاس.

---

(10) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (213 – 276 هـ/ 828 – 889م) عالم مشارك في علوم عديدة. سكن بغداد وحدّث بها وولي قضاء دينور فنسب إليها. له : غريب القرآن، أدب الكاتب، عيون الأخبار، طبقات الشعراء، أخبار العرب وأنسابهم، الإمامة والسياسة، الشعر والشعراء... إلخ. انظر عنه : كحالة : معجم المؤلفين... 2/ 297. 298.

(11) هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صول الصولي (176 – 243 هـ/792 – 857م) أحد الكتّاب البلغاء والشعراء الفصحاء. مات بسامرا. كان إليه ديوان الرسائل في مدّة جماعة من الخلفاء المتعاقبين. له : ديوان الرسائل، ديوان شعر، كتاب الدولة... انظر عنه : كحالة : معجم المؤلفين...1/33.

(12) هو إبراهيم بن محمد بن عبيد الله ابن المدبر (ت 279 هـ/ 893م) وزير، من الكتّاب المترسلين الشعراء، من أهل بغداد. تولى ولايات جليلة واستوزره المعتمد العباسي لمّا خرج من سامراً إلى مصر سنة 269 هـ/882م. توفي ببغداد متولياً ديوان الضياع للمعتضد. انظر عنه : الزركلي (خير الدين) : الأعلام.– دار العلم للملايين، بيروت ط. 10 /1992 ج1 ص 60.

(13) هو أبو الفرج ابن النديم الورّاق البغدادي (ق 4 هـ). أديب مشارك في أنواع من العلوم. من تصانيفه: الفهرست، التشبيهات. انظر عنه : كحالة : معجم المؤلفين... 3/122 – 123.

(14) هو أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله القلقشندي (756 – 821 هـ/1355 – 1418م) ولد في قلقشند قرب القاهرة في دار علم و أدب. تعلم في الإسكندرية ثم تصدّر للتدريس والإفتاء على المذهب الشافعي، ثم التحق بديوان الإنشاء. من مؤلفاته : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، قضى في تأليفه قرابة العشرين عاما، ط. مصر 1331 – 1338هـ/1912 – 1919م. انظر عنه : كحالة : معجم المؤلفين...1/196– 197.

(15) في المقال المنشور : بالمملكة، وفقا لذلك العهد.

فهذا الكتاب دليل على أنّ المدنيّة التونسية أعرق مجدا و أرسخ قدما وأقدم عهدا من مدنيّة أوروبا المدينة لها بأشياء كثيرة أهمّها معرفة الكاغذ الذي انتقل إلى الأندلس عن طريق القيروان.

5- قصّة الكاغذ :

قلنا إنّ مبلغ أمّة من المدنيّة يقاس بمقدار ما تستهلكه من الكاغذ لأنه من المنتوجات التي لها أشدّ مساس بحياتنا اليومية سواء من حيث الصحافة أو الطباعة أو الكتابة أو اللفّ أو الصيدلية. وقصة تاريخ الكاغذ غريبة جداً، فقد كان الناس في أول العهد يكتبون على لحاء الشجر وسعف النخل وجلود الحيوان و الأنسجة والحجر والنحاس والفخار، ثم صاروا يكتبون على ألواح الشمع والبرديّ والرقّ والكاغذ، و هو أعمّها فائدة و آخرها عهدا بالظهور.

في سنة 105 بعد الميلاد اخترع الصيني تاي لون الكاغذ،و استعمل لذلك لحاء النبات وبقايا القطن و الخزف. وإذا اختراع الكاغذ صينيّا فإنّ نشره في العالم عربيّ. قال الأستاذ سفند دال في تأليفه ״ تاريخ الكتاب״ : «إذا استطاع العالم الإسلامي أن يقوم بذلك النشاط الأدبي الجبّار فلأنّه كانت له مواد كتابة لم تتوفّر بعد في أوروبا. وذلك أنّ العرب عندما فتحوا خراسان في القرن الثامن الميلادي ودخلوا تركستان وجدوا بمدينة سمرقند الكاغذ الذي لم يكونوا قد عرفوه بعد. وكانت سمرقند متّصلة بالصين بطريق تجارية قديمة العهد، فأخذ الفرس صناعة الكاغذ بواسطة هذه الطريق. وانتشر سرّ صناعة الكاغذ في العالم الإسلامي رويدا رويدا. فلمّا كانت خلافة هارون الرشيد في القرن الثامن الميلادي كانت مصانع الكاغذ ببغداد و بجزيرة العرب. و في القرن العاشر انتقلت إلى مصر حيث كان المصريّون يستعملون قمائط الموميات لصنعه. وفي القرن الثاني عشر عرفت أوروبا الكاغذ حيث أدخله العرب الأندلس. ومدينة طليطلة التي كانت من أهمّ المراكز

الثقافية بأوروبا كانت في مقدمة المدن الصانعة للكاغذ."(16)

وقال أسكورو في كتابه " الكاغذ" : " وأنشئ أوّل معمل بإسبانيا [الأندلس] في مدينة شاطبة حوالي سنة 1150م في ولاية بلنسية. و يرجع عهده بإيطاليا إلى أواخر القرن الثالث عشر. وفي سنة 1390م أسّس معمل للكاغذ بمدينة نورمبيرغ بألمانيا. و أمّا بفرنسا فأقدم المصانع قد أنشئت في منتصف القرن الرابع عشر بأحواز بلروى و نواحي إيون. أمّا بأنقلترا فأوّل المصانع ترجع إلى عهد الملكة إليزابيت سنة 1588م."(17)

ويتّضح من هذه المعلومات ومن مصادر أخرى لم نذكرها مخافة الإطالة أنّ المسلمين أخذوا الكاغذ عن الصينيين بمدينة سمرقند على عهد هارون الرشيد، وقيل قبله بقليل. وأنّ صناعة الكاغذ أخذت تنتشر في البلاد (18) الإسلامية، من العراق إلى سوريا إلى جزيرة العرب، وعلى الخصوص اليمن، ثمّ إلى مصر وصقلية والأندلس. ولكنّ المؤرّخين والجغرافيين الذين تحدثوا عن هذا الموضوع لم يذكروا صناعة الكاغذ بالقيروان أو المهدية. ومع ذلك فلا سبيل إلى أن تنتقل إلى صقلية أو الأندلس إلاّ عن طريق المهدية أو القيروان. فجاء المؤلّف المقدّم للمعزّ بن باديس مثبتا لهذه الصناعة وشاهد عدل على وجودها بالديار الإفريقية قبل أن توجد بأوروبا بخمسة قرون، فإنّ المخطوط الذي نتحدّث عنه يرجع إلى أوائل القرن الحادي عشر، حوالي سنة 1050م. و هذا هو تاريخ الكاغذ بتونس. وانتقل الكاغذ إلى شاطبة سنة 1150م،و إلى ألمانيا سنة 1390م، وإلى فرنسا في نحو ذلك، وإلى أنقلترا سنة 1588م. فالتونسيّون قد عرفوا الكاغذ قرنا قبل الأندلس، وثلاثة قرون ونصف قبل ألمانيا، وخمسة قرون قبل أنقلترا. و من هنا

(16) DAHL (Svend) : Histoire du livre de l'antiquité à nos jours [1960].-Paris 1967.

(17) Escourrou (René) : Le papier.- Lib. Armand Colin,Paris 1941, en 220 P., La fabrication du papier.- Lib. A. Colin, Paris 1958, en 223 P.

(18) في المقال المنشور : في المملكة، حسب أوضاع ذلك العهد.

نتبين قيمة المخطوط الذي ذكرنا. وهو ليس وحده شاهدا على ترقّي الصناعة التونسية وأسبقيّتها، فإنّ لدينا مخاطيط (19) أخرى تونسية في مختلف الصناعات سنتحدّث عنها في القريب إن شاء الله تعالى (20).

---

(19) أي مخطوطات.

(20) للمقارنة والتوسع انظر: الكعاك (ع.): الوساطة في الخطاطة- في: مجلة المباحث (تونس) سبتمبر - أكتوبر 1947 ص 3، 13، 18، 19: عبد الوهاب (ح.ح): ورقات... 325/1 - 350 (العناية بالكتب وجمعها ومشاهير الخطاطين الإفريقيين). "عمدة الكتاب وعدّة ذوي الألباب" المنسوب للمعزّ بن باديس: منه نسخة ضمن كنش حسين بن مصطفى الترجمان باش مملوك بدار الكتب الوطنية في 38 صفحة. ومنه نسخ في مصر وبغداد. حقّقه عبد الستار الحلوجي وعلي عبد المحسن زكي في: مجلة معهد المخطوطات العربية، ع17، القاهرة 1971. انظر: عبد اللطيف (محمد الصادق): حول مخطوط "عمدة الكتاب وعدّة ذوي الألباب"...- في: المجلة الصادقية، ع49، أكتوبر 2008، ص36 - 39. وللتوسع انظر: العقبي (محمد الطاهر): مهنة الوراقة أو صناعة الكتاب في الثقافة المادية العربية الإسلامية. - في مجلة "الحياة الثقافية"، ع 231، ماي 2012، ص 46 - 54.

الوساطة في الخطاطة (*)

التعريف :

الخطاطة أو علم استخراج الخطوط القديمة أو تقديم الخطوط القديمة علم – كما يدلّ عليه اسمه – نستطيع به استيضاح الكتابات القديمة والكشف عن الخطوط العتيقة المستغلقة التي عميت علينا إمّا لجهلنا بأصول مؤدّياتها أو لصعوبة خاصة بذات الحرف المعروف أو لانطماس الكتابة بسبب عوامل الزمان. وهذا العلم يشمل ميدانا فسيحا يستوعب جميع الوثائق المكتوبة من الكتابات المنقوشة على الحجر أو نصوص النقود أو السجلاّت والعقود أو الكتب بصفة أعمّ.

فهذا العلم يبحث في التطوّرات والتغييرات التي طرأت على الخطوط، كما يدرس كلّ خطّ بحسبه من حيث خصائصه والعصر الذي نشأ فيه وانتشر ممّا يسمح بالتحقّق من ذاتية المخطوط ونسبتها إلى عصر ومؤلف ولون من ألوان الفنون الخطية والتثبت من هويّتها إذا كانت خلوا من ذكر اسم المؤلف وعنوان التأليف وتاريخ النسخ.

المواضيع :

إنّ دراسة الخطاطة تقتضي البحث عنها من أربعة أوجه :

الوجه الأوّل هو البحث باعتبار الموضوع فيكون موضوعها الكتب المخطوطة أو العقود العتيقة أو الرسوم القديمة أو الخواتم أو الطوابع أو الروانك (1) أو الأحجار المنقوشة أو الخشب أو العاج أو المعادن التي عليها كتابة.

والوجه الثاني هو اعتبار المكان. فهناك الخطاطة المصرية القديمة والخطاطة الصينية والخطاطة اللاّطينية والخطاطة اليونانية...إلى غير ذلك.

(*) نشر في مجلة المباحث، سبتمبر – أكتوبر 1947، ص 3، 13، 18، 19.

(1) الروانك : م. الرّانك. لم يشرحه صاحب اللسان (ابن منظور : لسان العرب) فمعناه من سياقة.

والوجه الثالث هو اعتبار الزمان. فهنالك مثلا الخطاطة العربية الجاهلية التي تعنى بدرس الخط الحميري. وهنالك الخطاطة الأموية ثم العباسية ثم التركية ثم الهندية... وهلم جراً بحسب العصر الذي نسجت فيه المخطوطة التي نريد بحثها. وليُقس ذلك في سائر اللغات.

الوجه الرابع هو البحث باعتبار المواد الصالحة للكتابة من لحاء الشجر والعظام والآجر والشمع والبردي والرقّ والكاغذ (2) والحجر والعاج والمعادن.

الخطاطة التونسية :

وإذا أردنا أن ندرس الخطاطة التونسية خاصة وجدناها تنقسم بحسب العصور إلى الأطوار الآتية :

1– الخطاطة اللوبية أو البربرية القديمة : وتمتدّ من سنة 2000 قبل الميلاد إلى العصر الروماني. وموضوعها البحث في الحرف البربري القديم المعروف بالحرف اللوبي، واستخراج ما نقش به على الأحجار من الكتابات المختلفة، والنظر في أصل الخط اللوبي وما تطوّر إليه من التطورات (انظر بحثنا عن اللغة اللوبية في مجلة البدر التونسية) (3).

2– الخطاطة البونيقية : وتمتدّ من 1200 ق.م إلى القرن الخامس ب.م. وهي عبارة عن درس الخط الفينيقي القديم الذي هو أصل الخطوط الصوتية كلّها وكيف تتونس فصار الخط البونيقي الخاص بتونس والممتاز بطابع تونسي بحت وماهي المنقوشات الحجرية التي كتبت به و ماهي مدلولات ألفاظها وكيف وصل بنا البحث إلى معرفة اللغة الفينيقية الأصلية أو البونيقية الفرعية بفضل هذه المنقوشات التي أعطتنا جداول مطوّلة من الكلمات وبعض الأصول النحوية المستخرجة

---

(2) انظر انتشار صناعة الكاغذ في : عبد الوهاب (ح،ح) : ورقات... –ط. مكتبة المنار. تونس 1964، ج1، ص207 – 209.

(3) نشره بعنوان « اللغة اللوبية أو اللغة البربرية القديمة» في : مجلة العرب، محرم 1342هـ/1923م، ص 145 – 149 .

من تراكيبها. وقد جمعت المنقوشات البونيقية في ديوان يسمّى ديوان المنقوشات البونيقية (4)، كما ألّفت فيها كتب (بالألمانية على الخصوص) في الخط واللغة وأصول النحو (انظر : أحمد [توفيق] المدني : قرطاجنّة في أربعة عصور، ع.ك [عثمان الكعاك] : موجز تاريخ الجزائر (5)،[أحمد عطية] الأبراشي : الآداب السامية ؛ أبو ذؤيب : تاريخ اللغات السامية).

3– الخطاطة اليونانية : وهي علم نعرف به تاريخ الخط اليوناني و استخراج الوثائق المخطوطة المغلقة وتعيين تاريخها في الزمان و المكان. ولقد صارت اللغة اليونانية لغة ثقافة بتونس في العصر البربري الأوّل و إبّان الحضارة الرومانية والعصر البيزنطي. ثمّ لمّا أسّس ملوك بني الأغلب بيت الحكمة بالقيروان (6) لدراسة المخطوطات القديمة وتعريبها أسوة بما كان يجري ببغداد (راجع : الفهرست لابن النديم وتكملة ابن الأبّار).

4– الخطاطة اللاّطينية : وتمتد من القرن الأوّل قبل المسيح إلى القرن السادس بعده. وتعنى بدراسة المخطوطات من ناحية والمنقوشات من ناحية أخرى. و قد جمعت المنقو شات في ديوان يسمّى ديوان المنقوشات اللاّطينية (7). ومنه قسم كبير خاص بالبلاد (8) التونسية.

5– الخطاطة العربية : وهي أهمّ هذه الأقسام امتدادا في الزمان والمكان مع غزارة المادة وتوفر المواضيع. ومعظم اعتمادنا في ذلك على الخط الكوفي القيرواني الخاص المستقل بذاته و الذي نجده في المخطوطات وخاصة في النسخ القرآنية، كما نجده في أحجار البنايات والمقابر

---

(4) Corpus des inscriptions puniques.

(5) موجز التاريخ العام للجزائر منذ العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي. – تونس، مكتبة العرب، 1344هـ / 1925 م، في 584ص.

(6) انظر بيت الحكمة التونسي في : عبد الوهاب (ح.ح) : ورقات... 192/1 – 219 ويلي ذلك تراجم علماء بيت الحكمة.

(7) Corpus des inscriptions latines.-Académie de Vienne, à partir de 1866. (7)

(8) في المقال المنشور : « المملكة » باعتبار الوضع في ذلك العهد.

بسوسة (أقدم لوحة قبرية معروفة هي بسنة 255هـ/868م) وخطوط جامع سوسة الكبير و جامع أبي فتاتة و جامع الأخوات والسور الأغلبي، وبالقيروان مقبرة الجناح [الأخضر] للقرشيين ومقبرة سحنون للتميميين ومقبرة الحطبية للمعافريين ومقبرة السيّد الصاحب [أبي زمعة البلوي] للبلويين، وبجامع صفاقس منقوشات كثيرة نادرة. وأمّا النسخ القرآنية الكوفية فأقدم ما نعرف منها نسخ على عهد الأغالبة. وقد ذكر الرحالة العبدري أنه لمّا دخل مكتبة القيروان سنة 688 هـ / 1289م وجد بها كتبا محبّسة من عهد سحنون (ق3هـ/ 9م) و ما قبله. منها موطّأ ابن القاسم و مصحف كامل مضموم بين لوحين مجلّدين غير منقوط ولا مشكول، وخطّه مشرقي ميّز ٌ جداً مليح، وطوله شبران و نصف في عرض شبر و نصف (9).

ويوجد بمكتبة الجامع بالقيروان أجزاء مصحف بخط امرأة تسمّى فضل مولاة أبي أيّوب يرتقي إلى ما فوق سنة 295 هـ/ 907م.

وأقدم التواريخ التي وجدت بمكتبة القيروان هي :

– ورقتان من الجزء الحادي و الثاني و الأربعين من كتاب المعجزات للقَصْري (10)، بآخرهما سماعات (11)، منها: " قرأ جميعه عبد الله بن محمد اللواتي سنة 231" / 845م.

– ورقة أخيرة من جزء فقه بخط كوفي عتيق جداً كتب سنة 258 هـ / 871م.

ونحن إذا درسنا مخطوطا ندرس أولا صلب المخطوط الذي هوالمادة الأصلية من الكتاب. ثمّ ندرس الوقفيات (12) والانتقالات

---

(9) رحلة العبدري. – تحـ . أحمد جدّو، كلية الآداب، الجزائر.

(10) هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمان التميمي القصري (نسبة إلى القصر القديم ، قصر ابن الأغلب قرب القيروان من قبلتها) (ت 322 هـ /935م) فقيه ، له عناية بالرواية و تصحيح الكتب، غلب عليه الحديث وهو أحد رواة كتاب أحكام السوق ليحيي بن عمر. له تآليف في معجزات النبي (ص). انظر : محفوظ (محمد) : تراجم المؤلفين التونسيين.– دار الغرب الإسلامي، بيروت 1985، ج 4، ص 90 – 91.

(11) هي تقييدات قراء الكتاب ومدرسيه وتعاليقهم عليه بأسمائهم.

(12) من الوقف ج. أوقاف أي أحباس، فالوقفيات هي التحبيسات م. تحبيس أي الكتابة الناصة على أن الكتاب حبس مؤبد على الجامع أو المدرسة أو غيرهما، لا يباع ولا يوهب إلى أن يرث الله الأرض وما عليها، وهو خير الوارثين، مع ذكر الشخص المحبس و الشهود أحيانا.

المختلفة بالبيع والتطويرات (13) التي على الهوامش والمخرجات (14)ثم السماعات المؤرخة ثمّ تاريخ النسخ بالصحيفة الأخيرة. ويهمّنا ذلك لمعرفة انتقال الكتاب و تاريخ قراءته بداية و نهاية و تاريخ انتقال ملكيته أو وقفيته و تاريخ المكاتب التي مرّ بها و معرفة التدريس به و الاطّلاع على خطوط من درّسوه وبيان تعليقاتهم ونظريّاتهم في المواضيع المختلفة (15).

ومن أهمّ ما نعرفه من كتب القيروان السماعات والوقفيّات.ومن أهم ما يوجد نصوص الصداقات (16) والبيوعات وعلى الخصوص فهارس الكتب. ونحن لنا فهارس قديمة، منها فهرس مؤرخ بسنة 693 هـ /1293م على يد قاضي القيروان إذ ذاك أبي العباس أحمد بن الفقيه أبي طاهر إسماعيل بن الفقيه أبي العباس أحمد الربعي على يد سبعة عدول في إحصاء الكتب الموجودة في ذلك التاريخ بمقصورة الجامع الأعظم بالقيروان من مصاحف قرآن كاملة وأجزاء منها ومن كتب علمية وبيان أسفارها و خطوطها وأبعاد الصناديق (17) التي كانت تحويها وتحليتّها بالذهب والفضة واللاّزورد إلى غير ذلك. وفهرس ثان تاريخه 809 هـ/ 1406م به بيان كتب جامع القيروان (18)، وفهرس ثالث في بيان كتب نقلت من مدينة سوسة إلى مدينة القيروان في ذي القعدة سنة 751 هـ/1350م ، وفهرس رابع فيه بيان الكتب التي حبّسها ابن ناجي المؤرّخ (19) على

---

(13) ما يحرر على الطرّة من الفوائد المتعلقة بالكتاب في ذاته أو في موضوعها

(14) هي التخريجات الدالة على مصادر الرواية.

(15) انظر قواعد فهرسة المخطوطات على سبيل المثال في : منصور (عبد الحفيظ) : فهرس مخطوطات مكتبة حسن حسني عبد الوهاب.- تونس 1978 (المقدمة) وانظر قواعد تحقيق المخطوطات في : الجبوري (يحيي وهيب) : منهج البحث و تحقيق النصوص.- دار الغرب الإسلامي، بيروت 1994.

(16) الصدقات ج. صدقة هي الكتابة الناصة على ما يتصدق به أهل الفضل كأن يكتب على الكتاب أن فلانا تصدق من حر ماله على نسخه وتجليده صدقة جارية يبتغي بها دعاء من يقرأ فيه وثواب الآخرة. والصداقات -بالألف- ج. صداق، هي عقود الزواج، وهي المقصودة حسب السياق.

(17) في المقال المنشور : العود الخشب.

(18) انظر عن مخطوطات القيروان : النيّال (محمد البهلي) : المكتبة الأثرية بالقيروان/عرض دليل.- تونس 1963.وقد نقلت بقرار إلى المكتبة الوطنية، وبعد تشييد معهد و متحف الحضارة الإسلامية أعيدت إلى القيروان، وضاع بعضها في الذهاب و الإياب.

(19) هو أبو القاسم بن عيسى بن ناجي التنوخي القيرواني (760 - 839 هـ/1359 - 1435م) فقيه حافظ لمذهب مالك. تعلّم في القيروان ثم في تونس على ابن عرفة و تلامذته. تولى القضاء بجربة وباجة و الأربس وسوسة وقابس وتبسّة والقيروان حيث درّس التفسير وغيره. له : شرحان لتهذيب المدونة للبرذاعي أحدهما صغير في جزءين ضخمين سماه الصيفي والآخر في خمسة عشر جزءا وأربعة أسفار سماه الشتوي، وشرح تفريع ابن الجلاب، وشرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني، واختصار مع تذييل لمعالم الإيمان للدبّاغ.

جامع القيروان سنة 828 هـ /1424م. منها شرحه المختصر على المدوّنة الصغير والكبير وشرحه على ابن جلاّب وتأليفه الموضوع للتعريف بالقرويين (20)، وفهرس خامس به بيان الكتب التي كانت موجودة بمدرسة باردو من تحبيس الباشا علي، وهو موجود بخزانة مكاتيب الدولة التونسية (انظر مقدمة فهرست العبدلية). كما يوجد عندنا بدار الكتب التونسية (العطّارين) (22 جزء من مصحف على الرقّ يرجع تاريخه حسب نوع كتابته إلى نحو سنة 270 هـ / 883م.

وإذا استثنينا المصحف العثماني فإنّ أقدم المصاحف الموجودة هو مصحف دار الكتب المصرية. وهو مصحف كامل عدده 387 و تاريخه 168 هـ/ 784م إذ به وقفيّة على الجامع العتيق بفسطاط مصر، ثمّ مصحف دار الكتب القومية بباريس، تاريخه 229 هـ/843م (عدد 336). و أصله من جامع الفسطاط، ثمّ أجزاء دار الكتب المصرية، تاريخها 270 هـ/ 883م، وأصلها من جامع مدينة دمشق، ومصحف ثان بدار الكتب، تاريخه 277 هـ/ 890م، و أصله من جامع عمرو [بن العاص] بالفسطاط.

ويقيننا هو أنّ مصاحف الجامع الكبير بالقيروان لهي أقدم من هذه التواريخ (راجع مقدمة فهرست جامع الزيتونة ودائرة المعارف الإسلامية ج1، ص 394 والرواميز (23) الموجودة بديوان الخطاطة العربية تأليف موريتز).

لقد صار من العلوم أنّ أصل الخطوط المنتشرة بالمغرب و الأندلس و صقليّة هو الخط الكوفي القيرواني لأنّ القيروان هي مركز الحضارة العربية الذي منه انتشرت في بقية الأصقاع المغربية. وهذا الخطّ الكوفي يبتدئ من القرن الثاني الهجري/8م (وقد يكون قبل ذلك) وينتهي

(20) هوكتاب معالم الإيمان في أولياء القيروان. ألّفه الدبّاغ وزاد عليه ابن ناجي تراجم بعد عصر الدباغ من سنة 690 هـ إلى سنة 837 هـ وقد سبقت الإشارة إليه.انظر : محفوظ : تراجم... 5/8 – 14. ومعروف أنّ هذا الكتاب قد أكمله محمد بن صالح الكناني بكتاب تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان في أولياء القيروان.– تحـ. محمد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس 1970.

(21) تسمى اليوم الأرشيف الوطني.

(22) هي المكتبة الوطنية المشهورة بسوق العطارين بالعلصمة، وبها قسم للمخطوطات. أمّا البناية الجديدة فبشارع 9 أفريل .

(23) هي الرموز.

في القرن السادس الهجري /12م (آخر المخطوطات القبرية بمدافن القيروان تنتهي في أوّل السادس (24). ثمّ نجدها بمدافن المنستير كثيرة جداً خلال السادس (25). ثمّ نجد البعض منها بالزلاج في القرن السادس(26). ثمّ يطغى الكوفي الموحّدي بمقبرة علي القرجاني بتونس خلال القرن السابع (27).

ويتفرّع من الخطّ القيرواني الخطوط الآتية :

– التونسي : أو الإفريقي (28)، ومنه القروي (29) والمهدوي (30) والتونسي و القابسي والجريدي و الصفاقسي.

– الجزائري : و منه التيهرتي (31) والقلعي (32) والبجائي والتلمساني وإن كان متأثرا بالأندلسي بعض التأثّر.

– المغربي : ومنه الفاسي.

– الأندلسي : ومنه القرطبي والإشبيلي والطليطلي والغرناطي والألمري (33).

– الصقلّي : و من فروعه المالطي.

–السوداني أو التنبكتي.

تسهل علينا دراسة الخط التونسي أو الإفريقي بمطالعة مخطوطات جامع القيروان وجامع الزيتونة وقبريّات المدافن المختلفة. ولا يشذّ عن ذلك الخط المهدوي، وهو كوفي متأثّر بالشرقي، توجد منه بضعة ألواح بمقبرة القيروان، وتتعيّن خصائصه بمقارنة لوحة " قاضي الباطل" بلوحة "قاضي الحق" وكلتاهما بالجناح الأخضر بالقيروان.

---

(24) ROY (Bernard), POINSSOT (Paule) : Inscriptions arabes de Kairouan.-T.I, Pub. de l'Institut des Hautes Etudes de Tunis, Paris 1950 ; Roy (B.), POINSSOT (P.), POINSSOT (Louis), ZBISS (Slimane Mostafa) : Ins.ar.Kairouan (3è partie).-I.N.A.A., Tunis 1983 ; ZBISS (S.M.) : Nouvelles inscriptions de Kairouan.- I.N.A.A., Tunis 1977.

(25) زبيس (س.م.) : نقائش المنستير.– المعهد القومي للآثار و الفنون، تونس 1960.

(26) زبيس : نقائش تونس وأحوازها.–إدارة الآثار والفنون، تونس 1955.

(27) زبيس نقائش القرجاني .،–المعهد القومي للآثار والفنون، تونس 1926

(28) نسبة إلى إفريقية ءي تونس قديما.

(29) نسبة مختصرة إلى القيروان.

(30) نسبة إلى المهدية عاصمة الفاطميين في عهدهم.

(31) نسبة إلى تيهرت عاصمة الدولة الرستمية زمن ظهور مذهب الخوارج في بلاد المغرب.

(32) نسبة إلى قلعة بني حمّاد .

(33) نسبة إلى ألمرية.

وأمّا الخط الجزائري فنحن لا نعرف منه الخط التيهرتي الذي قد يوجد في بعض مكاتب (34) جبل نفوسة بطرابلس. أمّا الخط القلعي والبجائي (35) فنعرفهما من المنقوشات (انظر : بال [ألفراد] : قلعة بني حمّاد). و أمّا التلمساني فنعرفه من المنقوشات (انظر : بروسلار : منقوشات تلمسان، ومرسي [وليام وجورج] معالم تلمسان، والأب برجس : دراسات عن تلمسان، وفصل " تلمسان" بدائرة المعارف الإسلامية) (36). كما نعرفه أيضا من بعض المخطوطات الموجودة بدار الكتب التونسية و لا سيما مخطوط الرصاع.

وتلمسان مدينة حديثة العهد بالإضافة (37) إلى القيروان أو فاس، وهي موضوعة (38) تحت تأثيرها، ولذلك كانت تحاول التخلّص من ذينك التأثيرين وتتصل مباشرة بالأندلس على طريق وهران. وهذا ما يفسّر لنا الأثر العميق الذي للخط الغرناطي على الخط التلمساني.

وأمّا الخط المغربي (الفاسي) فهو معروف لتوفر منقوشاته و مخطوطاته. وقد درسه الأستاذ الكبير عبد الحي [بن عبد الكبير] الكتاني (39) وبروسبر ريكار (40) في كتابه عن الفنّ المغربي. وأشهر الخطاطين المغاربة هم عائلة الحلو. وتوجد كتب من نسخهم بالجامع الأعظم والعطارين (41) (يراجع : بيل (42) ومرسي (43)

(34) لعله يقصد : مكتبات، أي خزائن الكتب الممكن وجودها في المساجد والزوايا والكتاتيب ولدى بعض الأشخاص... والمكاتب هي المدارس في الدارجة التونسية.

(35) نسبة إلى بجاية.

(36) وبقية المراجع في : الطمار (محمد بن عمرو) : تلمسان عبر العصور.– الجزائر 1984.

MARÇAIS (William), MARÇAIS (Georges) : Les monuments arabes de Tlemcen
BARGÈS (L'abbé) : Tlemcen, ancienne capitale du royaume de ce nom

(37) لعلّه يقصد : بالنسبة إلى...

(38) أي خاضعة لتأثيرها أو متأثرة بها.

(39) من مؤلفاته : فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات.– ط بإشراف إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1982 – 1986.

(40) RICARD (P.) : Les métiers manuels à Fès.- in : Hesp.IV, 1924, P. 205 - 224 ; Renaissance de la reliure d'art à Fès.- in : Bull. de l'ens. publ. du Maroc, 1922 ; L'atisan de Fès.- in : France. Maroc, 15/9/1918.

(41) أي بمكتبة جامع الزيتونة وبالمكتبة الوطنية، وقد ضمّت مخطوطات الأولى إلى الثانية بقرار جمع المخطوطات.

(42) BEL (Alfred) : Inscriptions arabes de Fés.- Paris 1919 ; Catalogue des livres arabes de la bibliothéque de la Mosquée d'el-Qarouiyine à Fès.-Fès 1918.

(43) Voir la note n° 36 et aussi : MARÇAIS (G.) : Manuel d'art musulman/Architecture.

وريكار (44) ولافي بروفنسال (45).

وأمّا الخط الأندلسي فنعرفه من ثلاثة طرق : المنقوشات و المخطوطات الأندلسية الأصلية والمخطوطات التونسية المكتوبة بالأندلسي بعد هجرة الأندلسيين إلى تونس (1017 هـ/ 1609م) أو المخطوطات التونسية المتأثرة بذلك الخط. ولنا منها بالعطارين مجموعة صالحة. ومن أشهر الخطاطين بالأندلس محمد بن غطوس البلنسي الناسخ. كتب ألف مصحف بخطه، منها نسختان بالجامع الأعظم بتونس (راجع : تاج العروس،ج 4، ص 202، وكتاب تكملة الصلة لابن الأبّار، وفهرست الكتب بالجامع الأعظم). وقد توفي ابن غطوس سنة 610 هـ/ 1213م. وقد بحث عن الخط الأندلسي جماعة من المستعربين، منهم الماقرو كرديناس : دراسة عن الكتابات المنقوشة الغرناطية.– غرناطة 1879 (بالإسبانية). وله أيضا : دليل المتحف الغرناطي الخاص بالعاديات العربية.– غرناطة 1886، لا فونتي : النقشيات الغرناطية.– مدريد 1860، كستيلو : مخطوط يحتوي النقشيات الغرناطية.– المكتبة القومية بمدريد، كنتريراس : دراسة وصفية للمعالم العربية بغرناطة و إشبيلية وقرطبة.– مدريد 1885.

– عن الطيطلي : لمبير : طليطلة، بونس بويقس : دراسة حول خطوط المستعربين (موزاراب) بطليطلة.– مدريد 1897، أمادور لوس ريوس : طليطلة ومعالمها الأثرية.– مدريد 1908.

– عن الإشبيلي : أمادور لوس ريوس : نقشيات إشبيلية، أنطونيا : إشبيلية ومعالمها العربية.– الأسكوريال 1930، غنسيسو اي [......] : إشبيلية/ معالمها وفنونها، قيشو اي سيرا : إشبيلية وفنونها الجميلة.– إشبيلية 1925. وبصفة عامة يراجع مرسي : كتاب الفن

---

(44) راجع الهامش رقم 40.

(45) LÉVI-PROVENÇAL (Evariste) : Histoire de l'Espagne musulmane.- T.I Le Caire 1944 ; La fondation de Fès.- in : Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, IV, 1938, P.23-25 ; Inscriptions arabes d'al-Andalus

الإسلامي، لافي بروفنسال : النقشيات العربية بالأندلس، اي زيدين : كتاب بالإسبانية عنوانه : الخطاطة العربية بالأندلس ضمنّه الجزء الثلاثين من مجموعة المجمع التاريخي الإسباني ونشره سنة 1898. ولانعلم لحدّ الآن أنّ أحد الأندلسيين قد ألف كتابا في الخط، ولا يوجد شيء من ذلك في فهارس الكتب التي بين أيدينا اللّهمّ إلاّ أن يكون قد ألّف كتاب في الموضوع ثمّ ضاع أو لم يهتد إليه علمنا.

ونحن نعرف الخط الصقلّي من المنقوشات الموجودة المنشورة (أماري و مكيا باريلي و غيرهما) ومن مخطوطات جامع القيروان إذ بها «43 دفترا من النوادر لأبي محمد بن أبي زيد في الطبق من الكاغذ مغشاة الرقّ بخط صقليّ». و منها " اختصار أبي محمد بن أبي زيد في خمسة أسفار مجلّدة منها في نصف الطبق ومنها في ربعه بخط صقلّي». ويتفرّع منه الخط المالطي الذي هو وسط بين التونسي البحت والصقلّي المحض. وعندما نقول الخط المالطي نعني به ثلاثة أشياء : أوّلا الخط الذي كان يكتب به المسلمون المالطيون من عهد الفتح الأغلبي لمالطة إلى أواخر أيّام صنهاجة ومبادئ الدولة الحفصية، وثانيا المنقوشات الموجودة بمالطة من قبريّات وغيرها (انظر على الخصوص : إيطوري روسي : القبريات العربية الإسلامية بمالطة.– في : مجلة المباحث الشرقية، سنة 1930، بالإيطالية)، وثالثا كتابة الآداب المالطية الحديثة بالخط العربي (انظر : دائرة المعارف الإيطالية، ج 22، ص 43 وما يتبعها من المصادر).

وأمّا الخطّ السوداني فهو في الغالب خط غليظ الحرف، حادّ العطفات، بعيد عن التعريق. وقد انتقل الخط القيرواني من تونس إلى السودان، لا على طريق الجريد كما يبدو للمنطق لأنّ الجريد صقع خاص على حدة، وهو مصاقب لبلاد الطوارق الملتثمين الفاصلة المانعة، ولكن على طريق قابس التي كانت رأس خط القوافل من السودان وإليه. ودليلنا على ذلك هو أنه يوجد بقابس (جارة القديمة) جامع عتيق يرجع

للقرن السادس الهجري/12م عليه كتابات كوفية كثيرة شبيهة بالسوداني. والحرف الكوفي القابسي الذي ظهر في القرن الخامس الهجري/ 11م وامتاز على عهد بني جامع أمرائها هو خط متولّد من القيرواني ولكنه ممتاز بخصائصه، وشيء آخر هو أنّ السودانيين لم يأخذوا الكتابة عن المغاربة، فقد ذكر أحمد بابا التنبكتي المؤرخ في كتابه "تطريز الديباج» (46) أنّ السودانيين لا يعرفون ملوك المغرب وإنما يعرفون ملوك تونس. وقد اشتهر هذا الخط المتولد عن الخط القابسي المنحدر هو عينه عن القيرواني الأصل بين قبائل الزنوج في إفريقيا الوسطى لا سيما عند قبائل الحوسة ابتداء من النصف الثاني من القرن الخامس الهجري /11م (ولعلّ وجود صنهاجة كان من أعظم الدواعي لأنّ قبائل زناقة السودانية من صنهاجة). ثمّ انتشر بعد ذلك انتشارا كبيرا من الناحية الغربية إلى المحيط الأطلسي حيث صارت مدينة لاغوس مركزا إسلاميا جديدا وعاصمة كبرى للثقافة العربية، و امتدّ إلى شرق إفريقيا، إلى جهة واداي، لكنّه اصطدم هناك بالخط النسخي النازح من مصر.

ولمّا جاء القرن السابع الهجري/13م أسّس الإسلام بأواسط إفريقيا جملة من الدور ذات الأهمية، صار مركزها مدينة تنبكت (47) (التي أحدثت سنة610 هـ/1213م). وقد أنشئت بها مدرسة كبرى فصارت

---

(46) أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر التكروري التنبكتي السوداني (963–1036هـ/1556–1627م) مؤرخ وعالم بالحديث والفقه، أصله من صنهاجة. عارض احتلال المراكشيين لبلدته فقبض عليه وعلى أسرته واقتيد إلى مراكش سنة 1002هـ/1593م فضاع له 1600 مجلد. من تصانيفه «نيل الابتهاج بتطريز الديباج «(ط.القاهرة 1329هـ–1911م). وهو كتاب ابن فرحون«الديباج المذهب في أعيان المذهب» في تراجم المالكية. و«كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج».انظر عنه الزركلي: الأعلام.–دار العلم للملايين،بيروت،ط 10/1992،ج 1،ص 102–103.، التميمي (عبد الجليل) : كتاب نيل الابتهاج...معلمة بيبليوغرافية للأعلام المغاربة.–في: المجلة التاريخية المغاربية،ع33–34،س1984،ص39–50. (47) هي في مالي بإفريقيا الغربية. عن دورها الثقافي انظر : أعمال الندوة العالمية الأولى المنعقدة بتمبكتو حول «الثقافة العربية الاسلامية بإفريقيا جنوب الصحراء/غرب إفريقيا نموذجا.–منشورات مؤسسة التميمي،زغوان 1997.

(47) هيTombouctou في مالي بإفريقيا الغربية.

رابعة المراكز الثقافية الإسلامية بديار المغرب. وقد حافظت تنبكت على هذا المركز إلى القرن العاشر الهجري/16م على الأقلّ. وهكذا نشأ هناك صنف جديد من الكتابة يسمّى الخط التنبكتي، يمتاز عن غيره بعظم الحرف (انظر : هوداس : كشكول المباحث الشرقي، سلسلة 2، مجلد 19، ص 102 و104 و109، المجلة الآسيوية، سنة 1853، ص 93، برسنية : دروس اللغة العربية.– الجزائر، سنة 1855، دائرة المعارف الإسلامية، ج1،ص 396، دائرة المعارف الإيطالية وعبد الفتاح عبادة : إنشاء الخط العربي).

لقد تحدثنا عن الخط القيرواني من حيث انتشاره في الأصقاع، وبقي أن نتحدث عنه من حيث الانتشار في الزمان فنقول إنّ هذا الخط الكوفي قد انتهى بنهاية الدولة الصنهاجية وانتصاب الدولة الحفصية (48). ولكنّا لا نزال نمرّ هنا وهناك في مدافن العاصمة على خطوط كوفية مبدعة، لكن يغلب على الظنّ أنها من الاقتباس الأندلسي. فالكوفي قد ذهب إلى الأندلس فاكتسب هنالك مسحة خاصة ثمّ رجع إلى تونس عند سقوط إشبيلية في القرن السابع الهجري/13م وجاءت الجالية الأندلسية الأولى فنشرت الصناعات والفنون (الموسيقى، التخطيط، نقش الحديدة، الغضار أو الفخار، الحرير، الشاشية، إلخ...) و كان الخط من جملة ذلك. وقد تحدّث عنه ابن خلدون في "المقدّمة" فقال : " فغلب خطّ أهل الأندلس على الخط الإفريقي وعفى عليه، ونسي خط القيروان و المهدية بنسيان عوائدهما وصنائعهما، وصارت خطوط أهل إفريقية كلّها على الرسم الأندلسي بتونس و ما إليها لتوفّر أهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الأندلس، وبقي منه (أي من الخط الإفريقي) رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتّاب الأندلس ولا تمرّسوا بجوارهم، إنّما كانوا يفدون على دار الملِك بتونس. فصار خط

(48) من النماذج المتأخرة للخط القيرواني مصحف الحاضنةبالخط الكوفي على الرقّ، ينسب إلى علي بن أحمد الوراق(410هـ/1020م) من نساخ العصر الصنهاجي. وقد ينسب إلى الخطاطة درّة. انظر : بهنسي (عفيف) : جمالية الخط العربي بوصفه فنّا إبداعيا.– في : جماعي : الخط العربي/ فعاليات أيام الخط العربي.– بيت الحكمة، قرطاج/ تونس 2001 ص 111 – 136 (التعليق 7).

أهل إفريقية من أحسن خطوط أهل الأندلس» (49).

وهكذا انتقل الناس من القيرواني إلى الأندلسي، ولو أنّ القيروانيين حافظوا على خطوطهم الأصلية كما حافظ أهل تونس على الخط البلدي الذي نستطيع أن نسمّيه "خط العدول" (انظر خط معاهدة المستنصر ولويس التاسع).

و ينقسم الخط الأندلسي بتونس إلى عصرين : العصر الإشبيلي أو الحفصي والعصر الغرناطي أو المرادي. وقد تحدث ابن خلدون عن الأوّل النازح إلى تونس عند سقوط إشبيلية، كما لنا أمثلة كثيرة من الثاني.

6- الخطاطة البربرية : أسلم البربر وحسن إسلامهم فانتقلوا من الكتابة بالحرف اللوبي إلى الكتابة بالحرف العربي، وألّفوا بالعربية أو البربرية، وجمعوا أحيانا بين اللغتين. وهذا الخط في نظرنا ينقسم إلى ثلاثة أقسام : الأوّل هو الخط الجزائري التاهرتي على عهد الدولة الرستمية في القرن الثالث الهجري/ 9م. والثاني هو الخط النّفوسي الطرابلسي ويتبعه الخط القسطيلي أو الجريدي. والثالث هو الخط التونسي الجربي. و كلّها متولّدة من الكوفي القيرواني. وتوجد بجربة مكاتب كاملة باللغة البربرية. وفي دار الكتب بالعطارين مخطوطات نادرة، أهمّها مدوّنة ابن غانم في الفقه الإباضي (50). ولعلّه يوجد في الجريد وبنفوسة وبمزاب البعض من ذلك (انظر دراسات موتيلانسكي (51) ولويكي (52)).

---

(49) المقدمة.-ط.بولاق 1284هـ/1867م،ص398، وفي ط.دار الجيل،بيروت،د.ت،ص466 : «يغدون» بدل «يفدون».

(50) لم نعثر على شخص بهذا الاسم ضمن تراجم علماء الفقه الاباضي في كتاب العمر لحسن حسني عبد الوهاب. أما ابن غانم الذي ترجم له محمد محفوظ في : تراجم المؤلفين التونسيين،ج5،ص248-249 فهو قاض مالكي، وله كتاب جمع فيه ما سمعه من الإمام مالك يسمّى ديوان ابن غانم، وتوفي عبد الله بن عمر بن غانم هذا سنة 190هـ/806م. انظر عنه أيضا : بوذينة (محمد) : تونسيون في تاريخ الحضارات.-الحمامات/ تونس 1998،ص251-259.

(51) MOTYLINSKI (A. de C.) : Bibliographie du Mzab/Les livres de la secte abadhite.- in : Bulletin de correspondance africaine, Alger,III, 1885, P.15-72 ; Le Djebel Nefoussa.- Paris,1899.

(52) LEWICKI (Tadeuz) : Etudes ibâdites nord-africaines.- Varsovie, 1955 ; La répartition géographique des groupements ibâdites dans l'Afrique du Nord au Moyen Age.- in : Rocznik Orientalistyczny, Varsovie, XXI, 1957, P.301 - 343 ;
Les Ibâdites en Tunisie au Moyen Age.- Les conférences de l'Accademia Polacca di Scienze et lettere, Biblioteca di Roma, fasc.n°6, Rome, 1960, 16p. ; Un document ibâdite inédit sur l'émigration des Nafûsa du Gbal dans le Sâhil Tunisien au VIII - IX e siècle.- in : Folia Orientalia, I, 1959, P.175 - 191.

7– الخطاطة التركية : وهي تنقسم بتونس إلى (53) الخط النسخي التركي أو الخط الديواني الظاهر على المخطوطات والعناوين وإلى المنقوشات الماثلة فوق القبريّات وعلى أوجه المدارس والثكنات التي أحدثها الأتراك (العطارين (54)، جمعية الأوقاف (55)، ثكنة سيدي علي عزّوز(56).

ومن المنقوشات ما هو نثر، ومنها ماهو شعر (الكثير من القبريات والأسبلة). وفيها ماهو عربي محض، وفيها ماهو خليط بين التركية والعربية (باب القرجاني (57)، العطارين، إلخ...).

هذه هي جملة الأقسام الستّة (58) التي تنقسم إليها الخطاطة التونسية. ونضيف إليها عرضا الخطاطة العبرانية، وهي تنقسم إلى قسمين :

قسم المخطوطات، ولا سيما ما نسخ من جزيرة جربة على الرقّ. ويوجد بجامع القيروان العتيق ملفّ به بعض ورقات من كتاب مكتتبة بالخط العبراني (59). وقد تكون عربية اللغة عبرانية الخط ممّا كان يؤلّفه اليهود بالقيروان. وقد تكون مقتطعة من مخطوط عبراني بحت قيرواني الأصل (60).

وقسم المنقوشات ولا سيما مقبرة نهج روستان التي درسها أردتّي في "المجلة التونسية" (61).

---

(53) في المقال المنشور:« إلى تأثير الخط...» ولا معنى هنا لعبارة «تأثير» فحذفناها.

(54) العطارين هي المكتبة الوطنية –كما أسلفنا –وكانت ثكنة، وعلى بيوتها إلى اليوم كتابات بالتركية. وهي من إنشاء الأمير حمودة باشا الحسيني (حكم 1196–1229هـ/ 1781–1813م).

(55) تقع بنهج جامع الزيتونة وهي ملحقة بالمكتبة الوطنية وخاصة بالدوريات قبل نقلها إلى البناية الجديدة، وكانت هي أيضا ثكنة، وعلى بيوتها إلى اليوم كتابات بالتركية.

(56) بنهج سيدي علي عزّوز المتفرّع عن نهج جامع الزيتونة في اتجاه سوق البلاط.

(57)أزيل هذا الباب بعيد الاستقلال. انظر عنه باختصار: ابن الخوجة (محمد) : صفحات من تاريخ تونس.– تحـ .ح. الساحلي،ج.بن الحاج يحيى،دار الغرب الإسلامي، بيروت 1986،ص372.

(58) دون اعتبار تكرار الكلام عن الخطاطة البربرية أولا وسادسا.

(59) المفروض أنها نقلت إلى قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية وبعد مدّة أعيدت إلى القيروان في متحف الحضارة الإسلامية برقادة ، والله أعلم.

(60)واضح أنه يعبّر عن مجرد تخمينات.

(61) ARDITTI (R.) : Sur quelques épitaphes importantes de l'ancien cimetière israélite de Tunis.- in : Rev. Tun., 1920, P.94-98, 261 - 266 ; 1931, P. 105 - 119,404 - 410 ; 1932, P.99-111.

العلوم الفرعية :

الخطاطة علم من العلوم المتفرعة عن التاريخ، المساعدة على معرفته، الضامنة لصحة وثائقه وسلامتها. ولهذا ذكرها ابن خلدون في «مقدّمته» ودرسها دراسة واضحة منهاجية، وأفردها بالبحث، و كان أن يجعلها علما مستقلاّ بذاته من جملة العلوم الآلية التاريخية اللازمة لمعرفة التاريخ. فلنراجع " المقدّمة " في الفصل الثلاثين (فصل في أنّ الخط والكتابة من عداد الصنائع الإنسانية)، وفي الفصل الحادي والثلاثين (فصل في صناعة الوراقة). وقد درسها قبله ابن النديم (ت 385 هـ/ 995م) صاحب كتاب «الفهرست» الذي هو أقدم كتاب في علم الخطاطة العامة و الخطاطة العربية على الخصوص (62). وسنعتمد على هذا الكتاب كثيرا في بحوثنا المقبلة.

ويتّصل بعلم الخطاطة علوم فرعية تعقبها أو تنحدر منها. و نحن نذكر بعض هذه العلوم المتفرعة عن الخطاطة فيما يلي :

- **الختامة :** أو علم استخراج كتابات الخواتم والأختام والخنافس والطغراءات و العلامات (63). و يسمّى عند الإفرنج " سجلغرافيا "، علم نعرف به ما نقش على الخواتم من الأختام و تحقيق الخنافس التي عقدت بها الرسوم وماهية الطغراءات والعلامات والرنوك التي كان يجري بها العمل في دواوين الحكومات. وقد درس العرب هذا العلم وألّفوا فيه. وقد أطال البحث فيه القلقشندي في كتابه " صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» (64). ولوالدنا الشيخ محمد الكعاك رحمه الله تأليف طيّب، فيه بيان خنافس العدول والتعريف بأصحابها وتحديد ميزة كلّ واحدة منها. وهذا العلم يفيد الخطاطة من حيث التاريخ ونسبة

---

(62) طبع الفهرست لابن النديم في ليبسيك سنة 1871 في جزأين ثانيهما للفهارس والتعاليق من صنع جستاف فلوجل، ثم طبعته المكتبة التجارية بمصر.

(63) هي إمضاءات السلاطين و الوزراء و الحجّاب والقضاة وعدول الإشهاد سواء سبكت في الخواتم فهي أختام أو رسمت بالأقلام على هيئة الخنفساء فهي خنافس . و لكلّ واحد «خنفوسة» مختلفة ومعروفة. أمّا كلمة طغراء فهي تركية و بنفس المعنى مع بعض التوسّع . واختصر كلّ ذلك في الطابع والإمضاء (Cachet et signature)

(64) في أربعة عشر مجلدا .–ط . مصر 1331–1338هـ/1912–1919م.

الكتب إلى مالكيها والتعريف بأوراق الخزائن الدولية أو غير الدولية، العامة والخاصة، والتحقق من صحة الرسوم والعقود أو عدم صحتها.
– النقادة : أو علم النقود، نعرف به النقود المعدنية أو الزجاجية لا من حيث قيمها أو صحّتها ولكن من حيث ما عليها من الكتابات. وهي تفيد الخطاطة من حيث تعاقب الملوك وبيان الحالة الاقتصادية.
فالنقادة تبحث النقود بحثا خارجيّا لمعرفة ما نقش عليها من الرسوم أو الكنايات، أو بحثا ذاتيّا لمعرفة وزنها ونسب المواد التي سبكت منها، أو بحثا اقتصاديّا لمعرفة تاريخ الإصدار النقدي. ونستفيد من النقود تاريخ الأديان القديمة لأنّ معظم آلهة القدماء كان مصورّا على النقود. ونعرف منها التاريخ الاقتصادي لأنّ النقود القديمة تمثّل صورة المواد والمنتوجات الصادرة من كلّ مدينة بعينها. كما نعرف منها الحالة الاقتصادية التي كانت موجودة في عصر من العصور في قطر من الأقطار. وقد بحث العرب في هذا العلم وخصوّه بالتأليف (انظر تآليف المقريزي (65)).
– النقاشة : أو علم المنقوشات (إيبيغرافيا) هو علم نعرف به ما نقش من الكتابات على الحجر أو الخشب أو العاج أو المعادن أو الأقمشة.
وهناك علوم فرعية أخرى مثل فنّ تدبير ديار الكتب وفن التجليد وفن البردي وفن الكاغذ وفن الرقّ وفن التزويق وفن الوراقة ممّا يتّصل أيّ اتّصال بالخط والكتاب. وكلّها فنون قد بحثها العرب وألّفوا فيها تآليف مختلفة في مختلف الأصقاع (66) .وسنبيّن ذلك تفصيلا فيما بعد.

- أدب الخطاطة عند العرب :

العرب من أقدم الأمم تأليفا في الخطاطة وبحثا في الكتب القديمة

(65) اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء.–مصر 1367هـ/1947م، كتاب النقود، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار،ويعرف بخطط المقريزي، طبع في مجلدين بمصر سنة 1327هـ/1909م. وقد زادت مؤلفاته الكثيرة على مائتي مجلد. ومعروف أنّ أحمد المقريزي ولد وعاش ومات في القاهرة (769–845هـ/1367–1441م). انظر عنه : كحالة (عمر رضا) : معجم المؤلفين.–مؤسسة الرسالة، بيروت 1993،ج1،ص204– 205.
(66) "منها منهاج الإصابة في معرفة آلات الكتابة" « لابن حجر (مخطوط المكتبة الوطنية بتونس).

و دراسة للوراقة. و قد توخوا في ذلك سبيلين : إما أن يجعلوا الخطاطة ضمن العلوم الكتابيّة فيقدّمونها في البحث مثل ما جاء في أوّل الكتاب لابن دَرَسْتَوَيْه (67) والرسالة العذراء لابن المدبّر (68) ونهاية الأرب للنّويري (69) وصبح الأعشى للقلقشندي (70) ومقدّمة ابن خلدون وكشف الظنون للحاج (71) خليفة(72) و إمّا أن يفردوها بالبحث. وقد أفردها بالبحث فيما نعلم :

– ابن النديم في الفهرست سنة 377 هـ/987م.

– أبو الحسين إسحاق البربري التميمي المحرّر. له كتاب تحفة الرامق (انظر : الفهرست، ص 13، كشف الظنون، ج1، ص 267).

– الجاحظ (ت 255 هـ) : رسالة في ذمّ الوراقة، رسالة في القلم (انظر : السندوبي : رسائل الجاحظ).

– أبو الحسن علاء الدين علي بن هلال البوّاب، خطّاط مشهور، توفّي سنة 413 هـ/1022م، ودفن إلى جنب الإمام أحمد بن حنبل. قد اخترع خطّين : الريحاني والمحقّق. وتوجد نسخة قرآن بخطّه في جامع اللّآليئ بإسطمبول من تحبيس السلطان سليم الأوّل (73). ويوجد

---

(67) هو عبد الله بن جعفر بن درستويه بن المرزبان الفارسي (258–347هـ/872–958م) لغوي، نحوي، مشارك في العلوم. استوطن بغداد حيث تعلم عن المبرد و ابن قتيبة، وبها توفي. له: الإرشاد في النحو، المقصور والممدود، التوسط بين الأخفش وثعلب في تفسير القرآن ،أخبار النحويين، غريب الحديث، شرح الفصيح لثعلب. انظر عنه : كحالة : معجم المؤلفين 2/233.

(68) هو إبراهيم بن محمد بن عبيد الله ابن المدبّر (ت 279 هـ/ 893م) وزير من الكتّاب المترسلين الشعراء، من أهل بغداد. استوزره المعتمد العباسي سنة 269 هـ/882م، وقلّده المعتضد ديوان الضياع. انظر عنه : الزركلي : الأعلام 1/60 و لعلّ صاحب المقال يقصد أخاه "أحمد" لبن المدبر الوار ذكره في خطط المقريزي 1/314 والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي، طبع في اثني عشرة جزءا بدار الكتب المصرية 1348– 1375 هـ 1929 – 1955م، 3/43.

(69) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري. طبع منه في مصر ثمانية عشر جزءا آخرها سنة 1374 هـ/1955م.

(70) صبح الأعشى 3/1–143.

(71) الحاج أو حاجي في التركية باعتبار أصله.

(72) كشف الظنون عن أسامي الكتب و الفنون : لمصطفى بن عبد الله الشهير بحاجي خليفة و بكاتب جلبي(ينطق الجيم قافا معقودة كما في الهجة المصرية)، طبع في مجلدين بإستنبول سنة 1360 هـ/1941م.

(73) النسخة الوحيدة لمصحف ابن البوّاب محفوظة في مكتبة شستربتي بدبلن. درسه رايس تحت رقم 5ك 16. وهناك كتابات تنسب إليه دون تحقيق.

بخطّه أيضا ديوان سلمة بن جندل بمكتبة آيا صوفيا (انظر عنه دائرة المعارف الإسلامية، ج2، ص 391). وله قصيدة في الخطّ ذكرها ابن خلدون و ابن خلّكان، مطلعها :

[الكامل]

يا من يريد إجادة التحرير ويروم حسن الخط والتصوير

– أبو علي محمد بن مقلة شيخ الخطّاطين (272 – 326 هـ/ 885 – 937م). له كتاب في الخطّ يوجد بمكتبة العطارين.

– المعزّ بن باديس : عمدة الكتّاب وعدّة ذوي الألباب في معرفة الخطوط والأقلام والأحبار والتزويق وصنع الرقّ والكاغذ وفنّ التجليد. منه نسخ بالجامع الأعظم ومكاتب أوروبا. وقد درسناه تفصيلا بهذه المجلة(74).

– كمال الدين عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي الحلبي (ت576 هـ/ 1180م). (انظر : كشف الظنون، ج1، ص 275).

– السيوطي : طبقات الخطّاطين (كشف الظنون، ج2، ص 91).

– العالي : طبقات الخطّاطين (كشف الظنون، ج2، ص 91).

– عون الدين أبو المظفّر يحيى بن محمد الوزير المتوفّى سنة 560 هـ/1164م. له أرجوزة في الخطّ (كشف الظنون، ج1، ص 82). (للبحث صلة)(75)

---

(74) الكعاك (عثمان) : صناعة الكتاب بالقيروان.– في : المباحث، أفريل 1946،ص 13.

(75) بهذا العدد توقّفت مجلة المباحث قبل نشر بقية المقال. و للمقارنة والتوسع انظر : الكعاك (عثمان) : صناعة الكتاب بالقيروان.– في : المباحث، أفريل 1946، ص 13.، عبد الوهاب (ح.ح.) : ورقات...– ط. مكتبة المنار، تونس 1964، ج1، ص 325 – 350 (حول العناية بالكتب ومشاهير الخطاطين الإفريقيين في العهد الأغلبي).، الجبوري (يحيي وهيب) : الخط والكتابة في الحضارة العربية / دراسات و لوحات.– دار الغرب الإسلامي، بيروت 1994.، جماعي : الخط العربي/فعاليات أيام الخط العربي (29 سبتمبر – 12 أكتوبر 1997).– بيت الحكمة، قرطاج/ تونس 2001.، المنوني (محمد) : لمحة عن تاريخ الخط العربي في المشرق الإسلامي.– في : المناهل، ع 4، الشريفي (محمد) : خطوط المصاحف (أطروحة)1976، مودود (خالد) : النقائش والكتابات العربية بإفريقية وتطورها من القرن الثالث الهجري إلى النصف الأوّل من القرن السادس الهجري.– المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس 1982.، بيدة (الحبيب) : فن كتابة وزخرفة المخطوط القرآني (شهادة التعمق في البحث في الفنون الجميلة) 1980.، بهنسي (عفيف) : معجم مصطلحات الخط العربي والخطاطين.– بيروت 1995، الخط العربي / أصوله، نهضته، انتشاره.– دمشق 1984، جمالية الزخرفة العربية.– بيروت 1997.، أوغوردرمان (مصطفى) : فنّ الخط.– إستانبول 1994.، طربوش (سوزانا) : الصفحات الذهبية/ مصاحف ومخطوطات مجموعة غسان شاكر (عرض كتاب نبيل فتحي صفوت الصادر عن مطابع جامعة أكسفورد بالأنقليزية في انتظار الطبعة العربية).– في : مجلة العربي (الكويت) ع517، ديسمبر 2001، ص 164 – 171.

صناعة الشاشية

الصناعة التونسية الكبرى بين أمسها والغد (*)

من شاش إلى القيروان :

مع الجيش الخراساني، في إحدى سنوات القرن الثاني للهجرة، جاءت الشاشية من مدينة شاش في إيران إلى القيروان، عاصمة آل المهلب، حمراء كوردة إصفهان، لموعة كشمس الأصيل وراء الكثبان، أرجوانية كخدود الحسان.

في أسواق القيروان :

في جوار السماط الأعظم، إلى جانب جامع عقبة في مدينة الأغالبة، قامت الأسواق في القرن الثالث لصناعة الشاشية، سوق طويلة كأروقة المدينة الرومانية، مدمسة كردهة قصور بني الأغلب، تنزل من مضاويها أعمدة من نور كأنها سبائك ذهب، تقطع غياهب الظلمات كما يقطع نور القمر بوشاحه الفضي دياجير الليالي. هناك تصنع الشاشية" الفرفورية "في دوي القردشة ونثار الصوف وعطر القرمز.

في طريق الأندلس :

استبد بعض ملوك بني الأغلب، فهاجر جماعة من القرويين، هذا يحمل صناعة الزليج وذلك صناعة الكاغذ وذلك صناعة الشاشية ورابع صناعة النقش العربي وخامس صناعة الحرير وسادس صناعة الطراز. وتوجهوا إلى المغرب بين جبال وسهول وأودية وشعاب وغابات وثلوج ورمال وسباخ حتى وصلوا مدينة فاس. وهناك استقر بعض الشواشين فأحدثوا مركزا جديدا لصناعة الشاشية.

(*) مجلة اللطائف (تونس)، أفريل 1955، ص 2–9، 56.

وانتقل الباقون إلى الأندلس، فمنهم من دخل غرناطة، ومنهم من دخل قرطبة، ومنهم من دخل طليطلة. وهناك تلاقت" كالوتة الباشقنس" بشاشية القيروان فخرجت شاشية الأندلس. وانتصبت أسواقها في معظم المدن الأندلسية، وصارت المثل الأعلى للصناعة الفنية العربية في ديار الأندلس.

في القاهـرة الفاطميـة:

وروى لنا التاريخ أن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمي أراد يوما أن يخلع العذار وأن يخرج على الناس في مباذله. فلبس جبّة سوسية وخلعها من كتفه ووضع على رأسه شاشية قيروانية دون " كبّيتة" وأمالها على أذنه في تبرّج وتبجّح وخيلاء.

رجعة مستعجلة:

وفي شتاء1017 هـ/1609م، أصدر ملك إسبانيا فيليب الثالث أمره بإجلاء جميع المسلمين عن الأندلس. وكان مرسى المرية مملوءا بالسفن التي استؤجرت بأثمان موجعة لنقل المهاجرين وقد امتلأت بآل طاقة، من نهر تاج، وآل سيضة، من مالقة، وآل ويشكة، من بلدة وشقة، وآل طرول، من مدينة طرول، وآل كرباكة، من بلدة كرباكة، وآل العروسي، من جبل العروس قرب قرطبة، وآل القسطلي من بلدة قسطلة في غرب البرتغال.

وفي جيب الشيخ العم الطيب قرندل لفافة قد ملأها بزريعة الكرضون، يحتفظ بها كأعز شيء لديه. وأما الخال ويشكة فقد اكترى في السفينة العنبر كله لوضع الصناديق المملوءة بآلات الشواشية من الضبنينة والكرديتة واللميتة والتبليلة والمقصة والتكليلش ... ووقف إلى جانب تلك الصناديق يحفظها في نفور

الأسد وتنمر السبع.

أهـلا وسهـلا:

كان الملك عثمان داي سياسيّا مفكرا، قد وجد البلاد في انتقاص اقتصادي وتدهور عمراني وفوضى سياسية. فابتكر برنامجا إصلاحيا واسع النطاق. وفي يوم من الأيام طلعت على خليج تونس سفن المهاجرين. وانتشر أهلها على السواحل بدموع الأسى على فراق وطن قديم. وبدموع الفرح للقاء وطن جديد، وطيء الأكناف واضح البشر. فأنزل عثمان داي هؤلاء المهاجرين منزلة الأبناء، وجعلهم أهلا وأوطأهم سهلا، وفرح بمقدمهم إذ سيتم بهم عمران البلاد وانتعاش الاقتصاد. وخصّهم بسكنى زقاق الأندلس في المدينة ورياض الأندلس في الحلفاوين " وطرنجة "و" البيقة "بباب السويقة. وسكن آخرون رادس وأريانة وقمّرت. وبنيت الأسواق للشواشين والفنادق للحريريين والدكاكين للقلالين. وأخرج الخال ويشكة صناديقه ووزع الآلات على الحدادين ليصنعوا أمثال أمثالها لتوزع على الشواشين. وذهب العم البشير طاقة ومعه أمثلة من" البانكوات "فوقف على أمناء النجارين ليصنعوا بانكوات جديدة وفق تلك الأمثلة .أما العم الطيب قرندل فقد ركب بغلة وركب معه وصيفه الزنجي على حمار وأخذ يبحث عن أرض تلائم تربتها زراعة الكرضون، حتى وصل جبل العالية المطل على بحيرة تينجة في موقع بديع، فقال الزنجي" : يا مولاي، عهدي أن هذا التراب الذي كنا نزرع به الكرضون في بلادنا" الأندلوس "أرجعها الله إلى الإسلام، فلنجرّب". فنزل العم الطيب قرندل عن بغلته وتلقاه أحد أبناء العالية الأندلسيين السيد علي هريرة، ورحب به وقال" : حتى أنا أيضا أعتقد أن هذا هو تراب الكرضون. "وزرع الكرضون على بركة الله، وسقاه الغيث الهتون فنجح نجاحا طيبا، والله يبارك

صنيعكم وما تعملون.

أسواق جديدة:

وتكاثرت أسواق الشاشية في تونس حتى تجاوزت أربعمائة دكان، ونفقت الصناعة وربحت التجارة وعمت النساء والرجال، فالمرأة الأريانية" تكبس "والمرأة البلدية" تقردش "و" تنوشن "و" تقولب "و" تكوبت".

وتضاعفت الباطانات وديار الصباغة فانتشرت في المدن الأندلسية، تحرك دواليبها القوة المائية المتدفقة من مجرى مجردة، بمدن تستور، وقريش الوادي، وطبربة، والجديدة، أو تحركها المياه المنحدرة بعنف من أعالي الجبال مثل ما كان موجودا ببلدة زغوان.

العصر الذهبي:

تكاثرت الفتوحات التركية في إفريقيا وأوروبا، وكلما فتح قطر دخلته الشاشية على رؤوس الفاتحين ومع الفاتحين : تونس الجزائر، المغرب، ثم السودان وطرابلس ومصر والزنجبار، ثم جزيرة العرب واليمن والعراق والشام وتركيا، ثم رومانيا وبلغاريا وصربيا واليونان والبوسنة والهرسك، ولست أدري أين أيضا...

قوافل برية:

تخرج الكراريط من تونس محملة بالشواشي إلى الجزائر، وتخرج قوافل الإبل من قابس ومن طرابلس محملة بالشواشي، فتخترق الرمال بعد الرمال، والكثبان بعد الكثبان طوال الأيام العديدة، لتحمل هذه البضاعة الثمينة إلى أبناء السودان.

قوافل بحرية:

وتخرج المراكب من حلق الوادي محملة بالشواشي إلى مرسى

الإسكندرية أو إلى مرسى أزمير أو إلى إسطنبول أو إلى جزيرة ساقس لتنقل الشاشية الساقسلي إلى سلاطين آل عثمان والأمراء والكبراء والقواد والجيوش والحرّاث في قلب الأناضول والبستاني في بلغاريا والفقيه في سراي بوسنة.

انتقاص:

اختصت تونس بهذه الصناعة دون بقية العالم فانتعش اقتصادها وتضاعفت ثروتها العامة وتضخمت طبقتها الأرستقراطية، ثم مالت شمس آل عثمان إلى الأفول. وكلما خرج قطر من حوزة دار الخلافة خرجت الشاشية منه حتى انحصرت في شمال إفريقيا والسودان.

فهل تنتعش في يوم غد؟

في دار العريف:

السدة مملوءة بالصوف إلى السقف، وفي المسترق إلى جانبها، زنوج يطرقونها ويقردشونها ويطرّونها بالزيت بين كفوفهم، فتشابه ظلمة المسترق سواد جلودهم كما يتشابه بياض الصوف بما يدخل من الشمسية من نور النهار.

في دار الكباسة:

في صميم من بلدة أريانة دار عربية الشكل أندلسية النمط، وفي الصحن منها قد غرست وردة على اليمين وياسمينة على اليسار، وقامت نارنجة في الوسط. وتحت ظل الوردة وسقفها الأخضر الأوراق المطرز بالورود كالخدود قد جلست الأم فاطمة على جلد ضأن وأخذت الأبر بين يديها تكبس بها الكبابيس، تضفرها ضفرا وتلويها وتطويها طيّاً، فتخرج من يديها قلنسوة كبيرة بيضاء ناصعة

تتراص واحدة فوق أخرى.

باطان بعد باطان:

ماذا نصنع بهذه الكبابيس التي صنعتها الأم فاطمة ؟ لا بد من تلبيدها في الباطان. ولكنّها كثيرة فلا بد من باطانات كثيرة.

ينحدر نهر مجردة من أعالي جبال الغرب التونسي في اندفاع قوي، وينساح في السهول الشرقية بين طبربة والجديدة، فلنستفد بهذا الماء لندير دواليب الباطان.

الكراريط تحمل الكبابيس في يوم وليلة إلى باطان تستور. والبلدة قائمة على ضفة النهر اليمنى، تعلوها مآذنها الأربع عشرة، وتهيمن على سقوفها المصنوعة من القراميد البيضاء والخضراء وعلى أزقتها المتقاطعة كرقعة الشطرنج، وفي الضفة الأخرى " البرقيل (El Vergel - Le Verger) "بمماشي السرو كأهرام الزمرد وحدائق التفاح والبرقوق والتوت والعوينة، والباطان يمتد بين الضفتين، يفصل ويصل، وينهمر ويهدد، ويهدأ ويثور، ويجري الماء في انحباس ضفتيه والتواء خلجانه إلى أن يصل قريش الوادي. باب أندلسي، ووراءه صومعة، وشوارع مستقيمة. وفي الخارج، على ضفة الوادي، الدواميس التي كانت باطانا، ثم توقفت فغمرتها الرمال، ونسجت عليها الأعشاب والأزهار ثوبا من النسيان، وهجرها الوادي مبتعدا عنها مغاضبا.

أما الباطان الحي فهو إلى جانب طبربة، لا يزال قائما كما بناه يوسف داي، يجمع مناظر هولاندة إلى مشاهد الوادي الكبير إلى صورة قنطرة قرطبة إلى صورة قنطرة طليطلة على نهج التاج.

والجديّدة هي أيضا لها باطانها على قنطرة لها جمال القدم وروعة الماضي، تصعد كؤودا كصعود القرون وتنحدر سريعا كانحدار العمر، وأمامها حاجز الباطان ينصب منه الماء في شلال فضي وهدير خلية النحل وجمال الفيضان وروعة البساتين المعومة

وجلالة البناءات القديمة.

ولزغوان أيضا باطانها. ولكن الذي يحرك دواليبه من قوة الماء هو ما ينحدر من الجبل من السيول الجارفة فتنزل على المغازل وتحركها عموديا، فترى طواحين التلبيد متدرجة واحدة تلو واحدة في سفح الجبل مرتبطة مع بعضها بوشاح فضي من الماء الجارف بين حاشية من الأعشاب المطرزة بالأزهار والموشحة بالأشجار.

في باطان طبربة:

لقد تعطلت الباطانات الواحد تلو الآخر كلما تقاصرت صناعة الشاشية، ولم يبق منها في حالة عمل إلا باطان طبربة.

ما هو هذا القطار من الجمال يخترق صفوف الزياتين كخيام متحركة ؟ هو قطار من الإبل يحمل إلى الباطان " بيلاضات" الكبابيس. والبيلاضة تشتمل على ملء صندوق من الباطان. وهي الآن تساوي ثلاث شكائر من الكبابيس.

تمتد قاعة العمل إلى جانب الباطان. وفيها صناديق مثلثة ملولبة مملوءة بالكبابيس، وقد ضمخت بالماء الحار والصابون المذاب. وينحدر عليها في إيقاع متواصل" الماصو "أو المعصار فيضغطها ضغطا ويلزها لزا ويعصرها عصرا فتتلبّد كل مرة بالزيادة، وهي تئن أنينا وتقطر دموعها من جنبات الصندوق ويتصاعد دخانها أثيرا ملتويا.

في السـوق:

جميلة الأسواق التونسية، فريدة في نوعها في العالم الإسلامي، وهي البقية الباقية من حضارة العرب.

دهليز طويل مملوء بأسرار المجهول وخفايا المغيبات تغمره نصف ظلمة العتمة. تنبعث في كواه ومضاويه العلوية إرسالات من نور كعمود من مرمر أو ذيل نجم مذنب أو إرسالة الفوانيس

الكشافة باعثات النور أو كهام المجرة في صفاء ليل المصيف أو كوشاح من سندس مطرز باللجين.

ودكاكين على ضفتي السوق تتصاعد منها حشرجة القردشة وقرقعة الضمنينة وطبطبة " الباتيذروج " وأزيز الكرضون الذي يفزغ " باللمينة " وصراخ الصناع لصاحب المقهى : "قهوة ...كويس ...نعناع "...فيجيب من بعيد : "جاك " فتتردد الجيم والكاف أصدية رنانة خلال دهليز السوق. وتختلط في ذلك الدهليز ظلمات الدمس بأنوار المضواة فكأنها ديباج أزرق سمائي مزركش بالذهب اللموع أو كأنه غابة ملتفّة الأوراق قد تغربلت أشعة الشمس من خلالها فدرهمت الأرض ودنّرتها. وفي خلال ذلك ينفرز بياض الشاشية" الكروضو "وذهبية الكرضون وأرجوان الشاشية المصبوغة، فكأن السوق وشاح قوس قزح قد تحللت فيه الألوان الشمسية من خلال موشور. وقد تضوعت في الجو رائحة القرمز المدغدغة للأنف وعبير الرطوبة النادية وعطر الزهور المرشوقة وراء الآذان أو الموضوعة في الأواني من نرجس وورد وعطرشة.

في الدكـــان :

ألواح متساوية مسندة إلى الحائط تسمى" العساكر "فإذا رصفت في غرغار أعلى وأسفل من الباب صارت دفاته التي يغلق بها. وأمام الدكان أريكتان يجلس عليهما الحرفاء ويتناولون القهوة التقليدية في فنجان أنيق غمجا ويتذوقونها بالتذاذ، وداخل الدكان" بانكو " على اليمين و" بانكو " على اليسار أمام مصطبة يمينية وأخرى يسارية تجريان طوال البانكو، وقد كسي جداراهما بحصير أصفر ذهبي مطرز بمحاريب حمراء وخضراء وزرقاء. وفي صدر الحانوت سدة في الأعلى قد امتلأ جانبها برباطات الكرضون كباقات النرجس أو سبائك الذهب. وامتلأ الجانب الآخر" بكريلات "الشواشي. وفي الأسفل، تحت السدة، مقصورة المعلم، يتوسطها

بانكو أنيق، وقد فرشت بالزرابي والمحاشي الوثيرة وزخرفت بأنواع الزخاريف والتذاهيب. والمعلم جالس هناك في جلالة الأمير على دسته ووقار الشيخ على منبره، كبير العمامة، مبارك اللحية. وقد ارتدى جبته ذات الشموس للدلالة على الناموس.

على الشينتو:

يقسم البانكو إلى أدراج أو " شينتوات " وكل شينتو خاص بقلفة يجلس على المصطبة أمامه ويضع فيه " الزوج " و" الضبنينة " و" الكردية "والمقصة وبقية الأدوات.

أمام هذا الشينتو الأول على اليمين يجلس" الكابيسا بانكو "أو رئيس الصناع، يشرف على أعمالهم، ويتوسط بينهم وبين العريف، وينتقد إتقان الصناعة. وعلى الشينتو الثاني قد جلس قلفة مؤتزرا بفوطة، وعلى رأسه شاشية حمراء قد امتلأت" بالبورة "كباقة ورد خالطها الفل والياسمين. وهذا القلفة يتولى قص الكرضون، فيقطعها" بالتكليش "من أعلى وأسفل، ويسوي طرفيها، ويثقب قاناتها" باللميتة "ويتخذ منها قطعا مختلفة تسمى" البوصات "يرصفها في عود دقيق يسمى" الباتيذورج. "فالبوصة الأولى تسمى" البي" والثانية هي" الدوميذو "والثالثة" التريميذو "والرابعة" الكبيصة". وتندرج كلها بين كبسة في الأسفل تسمى" بزويلة "وكبسة في الأعلى تسمى" البروكة ".وتغلق هذه الأخيرة بجليدة صغيرة تسمى " الشوبيتش "فيتم هكذا الزوج الذي يقردش به القلفة شاشيته. وفي الشينتو الثالث قد جلس قلفة ثالث يقردش الشاشية البيضاء حال ورودها خاما من الباطان، فيضع على ركبته شاشية عسلية مشمعة تسمى" البطرون"، يضع عليها الشاشية التي يريد قردشتها. وأمام الشينتو الرابع قلفة يقردش" الآفينار "أي القردشة الأخيرة التي تخرج الشعرة الحريرية وتصقل أديم الشاشية وتسوي شعراتها كما يسوي البستاني الكلأ في البستان أو الحشاش

الحبقة في الأصيص أو المقرمد القبة فوق الزاوية. وأمام الشينتو الخامس قد جلس قلفة الأحمر يقردش الشاشية المصبوغة ثم يطويها ويجعلها في" تبليلة" من خشب. وهي دفتّان توضع الشاشية بينهما، ويجلس عليهما القلفة لتنضغط الشاشية فتتقن طيّتها. وأمام الدكان قد وقف" الباتيدور" يخبّط بعصاه المسماة " الباتيذروج "الشاشية لتنفيضها من بقايا المواد التي التصقت بها عند الصباح.

أثــرجليل:

- ما هي هذه المصطبة الخشبية العتيقة العجوز القابعة في ركن السوق باحتشام؟

- هي يا سيدي "البرينشة" أو المعصرة أو المضغط. تتركب من أربعة أرجل مائلة تسمى الحمار، تنصب عليها خشبة أولى تسمى التبليلة، وفوقها خشبة ثانية تسمى التبليلة أيضا. ويخترق التبليلتين مغزلان لولبيّان. وفي كل مغزل خشبة ثقيلة كابسة تدور في ليّات اللولب وتنضغط على التبليلة العليا فتكبسها كبسا. وتسمى هذه الخشبة" الطويركة". ولكي تدار يوضع فيها قضيب يسمى" قروتي" يجذب بحبل يسمى الجبّاد.

-طيّب يا سيدي، ولكن ما هي فائدة البرينشة ؟

- فائدتها يا مولانا، أن توضع بين التبليلتين الشواشي التي سترسل إلى البلاد البعيدة فتنضغط بكبس الطويركة فتموت على طيتها إلى الأبد.

خاتمة المطاف:

انتقص شأن الشاشية بعد ذلك الأوج العظيم، فهل تعود إلى عصرها الذهبي وهل تنبعث هذه الصناعة الوطنية الكبرى ؟ من يدري، لعل النبوغ التونسي يكتشف مصرفا جديدا للشاشية فيرجع إليها عهد الشباب.

لمحة عن الموسيقى الأندلسية أو المالوف (*)

تمهيد :

ما هو المالوف ؟ المالوف هو الفن الأندلسي الأصيل الذي ظهر في الأندلس خلال القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، وبعد سقوط الأندلس نهائيا وخروج الموريسكو منها سنة 1609م انتقل إلى بلاد المغرب العربي، فكانت الوصية عليه.

وهذا التراث الموسيقي هو نتيجة مئات الوشاحين والزجّالين والملحنين، من فلاسفة كأبي بكر بن باجة، وأمية بن عبد العزيز، ومتصوفين كأبي مدين شعيب ومحيي الدين بن عربي، وأطباء كابن زهر وآله.

وقد انتقل هذا الفن من العرب إلى الإفرنج بواسطة الموسيقيين المدجنين، وهم الذين استبقاهم أهل البرتغال وإسبانيا بعد استرجاع شبه الجزيرة الإيبيرية من المسلمين. فأقرّوهم لتأليف موسيقاهم الدينية والبلاطية.

الإطار الجغرافي :

أ) الإطار القديم وهو يشمل :

1– الأندلس التي نشأ بها الموشح (مقادم بن معافي) والزجل (أبو بكر بن قزمان)، وبعث فيها المالوف (ابنُ باجة وابن غطوس). وانقسم إلى ثلاث نواح : الشمال وقاعدته طليطلة، والغرب وقاعدته إشبيلية، والشرق وقاعدته غرناطة.

2 – الجزر العربية الأوروبية وهي : مالطة وصقلية وسردانية.

ب) الإطار الخارجي :

1– الإطار الإفريقي والشرقي : وهو يشمل مصر والسودان وتشاد،

(*) أعدّه للمؤتمر المغربي الأوّل للمالوف بقرطاج من 15 إلى 22/8/1964. ولم ينشر – حسب تعليق صالح المهدي – إلاّ مؤخّرا في : المجلة الصادقية (سلسلة جديدة)، ع 9، أفريل 1998 ص 40 – 42. وللاستزادة آنظر المراجع و القسم الأوّل من : الحمروني : تستور/ المالوف والمهرجان.– تونس 2003.

ثم سوريا ولبنان والعراق وتركيا، حيث كلنت توجد جاليات أندلسية أدخلت فنّها إلى هناك، لا سيما منذ أن نشر محيي الدين بن عربي الفن الأندلسي في دمشق بمدرسته المعروفة به والتي دفن بها.

2- الإطار المدجّن : ذلك أن الإسبان كلّما استرجعوا بلدا من العرب بالأندلس استبقوا الفنانين المشتهرين به. فالمهندسون المعماريون يبنون لهم كنائسهم وأديرتهم ومدارسهم وقصورهم على أصول الفن الأندلسي العريق، والموسيقيون يؤلفون لهم جوقات تغني بكنائسهم وقصور ملوكهم وعظمائهم، وهذا ما سمّي بالفن المدجّن (L'art mudejar).

ج) الإطار الحالي، وهو يشمل :

1- المغرب الأقصى بقسميه الشمالي والجنوبي : وقد درس الموسيقى الشمالية الأب أنطونيه، ودرس الموسيقى الجنوبية ألكسيس شوتان، لا سيما في مؤتمر الموسيقى المغربية بفاس (مارس1939).

2- الجزائر : وأهم مراكز المالوف الموجودة فيها هي تلمسان وبجاية والجزائر العاصمة وعنابة وقسنطينة. وقد درس موسيقاها يافيل بالنسبة إلى عاصمة الجزائر، والغوثي بوعلي بالنسبة إلى تلمسان.

3- تونس : وقد درس موسيقاها ستوم ولاشمان والبارون درلنجي.

4- ليبيا : وقد درس موسيقاها ستوم.

الإطار التاريخي :

1) الموسيقى الأندلسية في العصر الصنهاجي (361 - 555 هـ/ 971 - 1160م) : (أي في عهد بني زيري بإفرقية (القيروان والمهدية) وفي عهد بني حماد بالمغرب الأوسط (الجزائر وبونة وقلعة بني حمّاد وبجاية) وفي عهد المرابطين بالمغرب الأقصى (فاس والرباط ومراكش).

وكما أسلفنا فقد جلب المالوف إلى المغرب الأقصى أبو بكر بن باجة وإلى الجزائر أبو مدين شعيب وإلى تونس أميّة بن عبد العزيز بن أبي الصلت، ونشرها في ربوعها الأمير الصنهاجي المعزّ بن باديس الذي كان يحذق الطبوع. وكان أحد أعلامها يومئذ عبد الوهاب بن حسين بن جعفر الحاجب (ذكره المقري في " نفح الطيب" نقلا عن " قطب السرور في أوصاف الأنبذة والخمور "لإبراهيم الرقيق القيرواني).

وهكذا بدأت الموسيقى الأندلسية بإفرقية والمغرب، مع أنّ الغرب الإسلامي كان لا يزال يحافظ على الموسيقى الشرقية، فقد استقدم المعز بن باديس عددا من الجواري المغنيات من المشرق، وكان عبد الوهاب الحاجب يجلب منه المغنين.

2) الموسيقى الأندلسية في العصر الموحدي (555 – 981هـ/ 1160 1574 م)، أي في عهد بني حفص بتونس والزيانيين بالجزائر والموحدين ثمّ المرينيين بالمغرب الأقصى.

وفي هذا العصر ازدادت الموسيقى الأندلسية انتشارا بإفريقية تحت تأثير عاملين إثنين : العامل الأول هو سقوط إشبيلية عاصمة الفن بالأندلس، وهجرة أهلها إلى شمال إفريقيا .فقد كتب عن الموسيقى الأندلسية ابن خلدون في" المقدمة" وابن سعيد في كتابه" الأمل في الزجل "والمقرّي التلمساني في" نفح الطيب". والعامل الثاني هو سقوط غرناطة سنة 1492م وهجرة الفن الغرناطي إلى المغرب.

وقد اشتهر في هذا العصر بتونس محمد الظريف دفين سيدي بوسعيد، صاحب" ناعورة الطبوع "والمدرسة الموسيقية بجبل المنار.

3) الموسيقى في العصر التركي (العهد المرادي والحسيني بتونس وعهد الدايات بالجزائر وعهد قارامنلي بطرابلس وعهد السعديين ثم

الأشراف بالمغرب الأقصى).

وفي هذا العصر جد في شمال إفريقيا حادثان فنيان :

أ - هجرة الموريسكو أي بقايا مسلمي الأندلس إلى بلاد المغرب، وقد أجلاهم ملك إسبانيا فيليب الثاني في سنة1613، فانتشروا بالمغرب الأقصى (سلا وتطوان) وبالجزائر (المدية وتلمسان وعنابة وقسنطينة) وبتونس (تستور وزغوان وبنزرت وتونس وطبرقة ومجاز الباب وقلعة الأندلس والعالية وقرنبالية وسليمان)، وهناك نشروا فنّهم الموسيقي. ويبدو أنّ أغلب النازحين الموريسكو قدموا من شمال إسبانيا ووسطها. فهناك حينئذ فاصل بين الموسيقى الأندلسية السابقة التي هي جنوبية وهذه التى هي شمالية.

ب - الفتح العثماني : وقد جلب الأتراك معهم البشارف والموشحات والموسيقى الرسمية (المهتار وطبّال الباشا) والموسيقى العسكرية. وممّا لا شك فيه أنّ الموسيقى الأندلسية، وبالخصوص في تونس، قد تأثرت تأثرا ملحوظا بالموسيقى التركية.

الإطار النوعي:

تمتاز الموسيقى الأندلسية أو (المالوف) :

1– بلغتها، وهي اللّغة العامية الأندلسية على اختلاف لهجاتها التي تدخلها الإمالة والغنة والصامت والصائت وانتقال حركة الارتكاز.

2– بنوع بحورها، وهي ضربان : الموشح والزجل.

فالموشح يختلف عن القصيد الفصيح بالخصائص التالية :

أ) تنوع القافية، خلافا للقصيد الموحّد القافية، وذلك للابتعاد عن الملل والسآمة والاقتراب من الاستحسان الصوتي.

ب) تعدد البحور أو أجزاء البحور : وذلك لأنّ الجملة الموسيقية قلّما تتطابق مع الجملة العروضية، فهي تزيد عنها أو تنقص أو تتطابق معها، فيستعاض عنها بالترنّمات مثل : يا لالان أو جانم أو بيرم أو طآي

دولست. ولذلك لجأ أهل الأندلس إلى التنوع العروضي لتأليف ألحان موسيقية مختلفة وإيجاد هامش عريض يتصرف فيه المؤلف والمغني.

ج) تقسيم الموشح إلى طالع وبيت وغصن. فالطالع إنشاد منفرد أو جماعي، والبيت إنشاد منفرد، والغصن إنشاد جماعي. وذلك لأنّ أهل الأندلس اخترعوا المجموعة الصوتية، فوجب إحداث هذا التقسيم.

د) إيجاد الخرجة : وهي غصن أو بيت يكون باللغة الأجنبية العامية التي تتكلم بها أقلية البلاد .ففي الأندلس تكون الخرجة بالإسبانية، وفي شمال إسبانيا تكون الخرجة بالعربية، وهلمّ جراً. والقصد من ذلك حصر معاني الموشح فيها ليدركها أهل الجالية الأقلية ويشاركوا في الإنشاد عن رويّة.

3 – بنوع أغانيها، فهي تعتمد في غالب الأحيان على المفارقات والمقابلات :

- المقابلة الصوتية : من قرار وجواب (شايب وشباب وإمرأة ورجل) وقوي وضعيف.
- المقابلة الإيقاعية : التك والدم.
- المقابلة السرعية : فبعد المتباطىء (البطايحي) يأتي السريع (البرول - الخفيف - الدرج)، وهكذا مداولة.
- المقابلة العددية : إنشاد الفرد وإنشاد الجماعة.
- المقابلة بين السلب والإيجاب والنواطق والسواكت.

الاعتناء بالموسيقى الأندلسية :

يجب الاعتناء بالموسيقى الأندلسية باعتبارها أعظم تراث فني عند العرب والمسلمين، فينبغي أن تعقد له المؤتمرات والندوات لدراسته وجمع ألفاظه وتحديد معانيه في مدونّات وتعيين أصوله وضبط قواعده وإبراز نواحي الجمال فيه والتعريف به والتنوية بشأنه، حتى يحبب إلى الأجيال الصاعدة، ويستمد منه الملحنون

المحدثون عناصر يزوّقون بها فنّهم .كما ينبغي المقارنة بين ألوان هذا الفن من قطر شقيق إلى قطر شقيق ودرس الوسائل الكفيلة بحفظ هذا الفن في تاريخه وتراجم رجاله وتحرير ألفاظه الاصطلاحية وبيان معانيها وتدقيق ألحانه وضبط إطاره الفنّي.

المالوف
تراث موسيقي ثمين (*)

هناك اختلاف ظاهر في كلمات المالوف ...اختلاف في الأوزان الشعرية من ناحية العروض والقوافي أو الأوزان الخاصة بالأزجال والموشّحات. فكان علينا أن نتفق على وزن واحد ونصحّح الناحية النحوية إذا كان هناك قصيد أو موشح بالفصحى ونصحّح النطق الموجود في اللهجة الدارجة الأندلسية التي هي لغة أكثر التواشيح والأزجال الموجودة في المالوف. والغرض من كل هذا أن نوحّد بين كلمات المالوف وأوزانه في مختلف أنحاء الجمهورية.

وقد تولد هذا الاختلاف في الكلمات في تونس بعد نزوح المالوف من الأندلس وحتى قبل وصوله إلينا ...لأنه وصل إلينا من مصادر مختلفة وفي فترات تاريخية مختلفة أيضا.

مصادر مختلفة:

كان أوّل من جاء بالمالوف إلى تونس أميّة بن عبد العزيز بن أبي الصلّت في القرن الخامس الهجري. ثم جاء أهل إشبيلية في القرن السابع، ثم أهل غرناطة في القرن العاشر، ثم بقية أهل الأندلس المعروفين بالموريسكو في القرن الحادي عشر. فكل جماعة من هؤلاء جاء بلون خاص من الزجل والقصيد والموشح في الأوزان وفي المغاني أيضا .. فمن المفيد أن نعرف كلمات المالوف في تبرسق مثلا هل هي من إشبيلية أو من غرناطة أو من غيرها ... وأن نعرف أيضا الطريقة أو الطرق المتبعة في كل جهات الأندلس. ومن

(*) شارك الأستاذ عثمان الكعاك عام 1963 في مؤتمر طبرقة حول "المالوف". و قد تحدث لمجلة "الإذاعة" عن هذا الموضوع في عدد 12/8/1963 ص 24 – 27. ونشر حديثه مرّة أخرى في نشرية التكريم، دار الثقافة ابن رشيق (تونس) ديسمبر 1971 ص 19 – 22.

هنا كان سبب وجود الاختلاف عندنا.

على أن هذا لا يتناقض مع علمنا، فهذه الألوان الخاصة التي سنعثر عليها سيكون مآلها كالشاذ الذي يحفظ ولا يقاس عليه، تماما كما نجد عند رجال اللغة .. فسنجمع المالوف على طريقة واحدة متفق عليها من الأشعار والأزجال والموشحات، ونحفظ الصور المختلفة التي عثرنا عليها وفيها خلاف بارز في الأوزان الشعرية واللحنية أيضا.

قاموس للألفاظ:

والطريقة التي اتبعناها هي أننا جعلنا من الرواية التي جمعتها " الرشيديّة "في مدة ثلاثين عاما أساسا لهذا البحث، وذلك اختصارا للوقت، ولأن العمل الذي قامت به الرشيدية عمل متكامل يقوم على قواعد علمية.وإذا اعتبرنا رواية الرشيدية أساسا فليس هذا قرارا نهائيا إذ أننا ننظر إلى أبعد من ذلك، إلى " السفاين "والدواوين الفنية كـ" جيش التوشيح "لنبحث عن الاختلاف، إن وجد. مثلا، نأخذ البطايحي الأول من نوبة الذيل، وقبل أن نتلوه على المشايخ المؤتمرين، حتى لا يتأثروا به، نطلب من كل واحد منهم أن يتلو علينا كلماته، فنجد مثلا رواية تستور تختلف عن رواية الرشيدية، فنسجل هذا الاختلاف، ثم نستمع إلى رواية زغوان ...إلخ ...وبعد أن نقارن جميع الروايات مع رواية الرشيدية نرجع إلى " السفاين" والدواوين الفنية محاولين الاقتراب، قدر المستطاع، من الأصل كما وضعه مؤلفه ومحاولين أيضا معرفة هذا المؤلف...

وتفرض علينا هذه الطريقة عدّة أساليب، منها أن المعرب معرب مطلقا، ولكن غير المعرب نحاول أن نعرف أصله في اللغة الأندلسية من ناحية المعاني والنطق. مثلا بالعربية نقول" كم "وبالتونسية " قدّاش" وبالأندلسية" آش الحال". ومن هنا سنكوّن شبه قاموس

للألفاظ الخاصة بالمالوف حتى يكون مفهوما من العموم وحتى نعين الباحثين في هذا الميدان على استكمال بحوثهم.

موسوعة للمالوف:

ونحن الآن نجمع فقط ولا نتجادل لأن الوقت محدود. وعندما يتمّ الجمع نكوّن ملفّات بالروايات المختلفة. وتكون هذه الملفات مكتوبة ومسجلة صوتيا. ثم ننظر في بعض الملفات المختلفة. فالعمل الذي قمنا به في طبرقة يعتبر مرحلة تمهيدية. فقد جمعنا " كوربيس " لأربع نوبات، لأننا خصّصنا هذه الدورة لهذه النوبات فقط، وهي الذيل والحسين والعراق والسيكة، فتكوّن لنا ديوان جامع شامل لجميع الروايات في مختلف الولايات مع بيان الاختلافات.

وهذه الموسوعة يمكن أن يستفيد منها التونسي والباحث في تاريخ الموشح والزجل والقصيد فيعرف التطورات اللغوية التي مرّت بها .ويستفيد منها أيضا المؤرخ اللغوي فيعرف مختلف اللهجات وتطوراتها على أنه يجوز أن يؤول المؤتمر إلى توسّع كبير جداً.فبعد أن نفرغ من توحيد المالوف في تونس في المعنى والمغنى يمكن في السنة المقبلة أو التي بعدها أن ندعو إلى عقد مؤتمر في النطاق المغربي، ثم فيما بعد مؤتمر في النطاق العربي العام، أو في النطاق العربي والاستشراقي.

تفسيـر أسمـاء وأمكنـة غريبـة بتـونس (*)

1– حمـّام الرميمـي :

اسم حي كبير بتونس، بربض باب سويقة يبتدئ من نهاية «زنقة الكبدة »ص، قرب بطحاء " البيقة "وينتهي عند" باب الخضراء" قرب" الحفير".

وهو من الأحياء الأندلسية التونسية الآهلة الجميلة. ينسب إلى" : أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي يحيى الرميمي"، وهو سليل بيت أندلسي كبير شهير ينسب في الأصل إلى بلدة" رميمة "وهي قرية من أعمال قرطبة. ثم انتقلوا في وقت ما إلى" المرية (Almeria)" عاصمة بني صمادح التجيبيين وأكبر مرسى حربي في شرق الأندلس. وفي رواية أنهم منحدرون من بني أمية، خلفاء الأندلس. وكان جده أبو يحيي من ملوك الطوائف في العصر الثاني منها.

أمّا هو فقد كان وزيرا لابن هود، حين حكمه على المرية، ثم دخل محمد بن يوسف بن هود مرسية في رجب 625 هـ/. يونيو1227م وأصبحت مركز أعماله. وفي 24 جمادى الأولى635هـ/ ينايز1238 م مات محمد بن يوسف بن هود قتيلا، على يد رجل من رجاله هو الرميمي المتحدث عنه، الذي كان قد ولاه على المرية كما سلف. وكان قتله بسبب المنافسة على إمرأة. فاحتال عليه حتى دخل عنده واغتالته جماعته.

واستبد بالمرية كأمير عليها إلى أن غلبه عليها ابن الأحمر. فالتجأ إلى ابن الخلاص في سبتة ومنها انتقل إلى تونس في منتصف القرن

(*) مجلة الهداية، أفريل 1974، ص 83 – 85. وللمقارنة والاستفادة انظر :

Zbiss (S.M.) : Quelques sites andalous de Tunisie.- in : Revue «Awràq» (Madrid), n.1, 1978, p. 55-57 ; Présence espagnole à Tunis.- in : De Epalza, Petit : Recueil d'études sur les moriscos andalous en Tunisie, Madrid 1973, P. 267 - 270

وفي : الحمروني : أندلسيات زبيس...ص 95 – 101 (القسم الأجنبي).

السابع الهجري ومنتصف الثالث عشر ميلادي فأسس هذا الحي. وهو من أكبر أحياء الربض الأسفل وأجملها وأروعها منظرا وألطفها معمارا.

وكتبنا هذا لنفتح لشباب الحي باب الدراسة «الميدانية» لتاريخ حيهم ودرسه من حيث معماره وسكانه ومبانيه ومؤسساته القديمة والحديثة وللبحث عن الحمام وعن دار الرميمي إن كانت منها بقية مباركة. لذلك أوردنا ما يحتاج إليه الموضوع من المصادر فيما يلي :

مصادره :

ابن سعيد : المغرب 2/199.

عبد الواحد المراكشي : المعجب ص 210.

ابن عذاري : البيان المغرب.4/388.

ابن خلدون : العبر4/ 388 ، 5/ 364 ، 6/ 615، 616.

2- **البيقة :**

ويتصل حي الرميمي في أصل ابتدائه بالبيقة، وهي حي أندلسي، بباب السويقة. وبيقة بالإسبانية هي (Vega) بمعنى الساحة والبطحاء، ولهذا اشتهرت بالأغاني الأندلسية والإسبانية.

كما يتصل بنهج الرمانة وغيرها، وهي حومة الأندلس، وبنهج الرياض، وهو في الأصل رياض السلطان، ثم صار رياض الأندلس (وبه دار أحد الأندلسيين المرحوم محمد غانم الذي كان عميد الموسيقى الأندلسية بتونس، وتوفي بعد الحرب العالمية الثانية وكان متزوجا بالسيدة منانة بنت محمود الكعاك، فهي بنت عم الوالد رحمه الله تعالى).

3- **زقاق الأندلس :**

ومن الأحياء الأندلسية بتونس " زقاق الأندلس"، وهكذا كان اسمه في اللافتة البلدية ثم غير إلى نهج الأندلس. وهو قديم التأسيس إذ به دار ابن خلدون والكتّاب الذي درس به ابن خلدون

وابن عرفة وبقية الجماعة على المؤدّب العلاّمة ابن البدال (انظر ترجمة ابن خلدون لنفسه وما بها من تعاليق بقلم العلامة ابن تاويت الطنجي).

4– سيدي القبة:

وهذا الكتّاب هو" سيدي القبّة"، وليس هنالك ولي يسمى سيدي القبة وإنّما هو مسيد القبة أي مسجد القبة. والمسيد في اصطلاح الموحدين والحفصيين هو تحريف بربري لكلمة مسجد بتحويل الجيم إلى ياء (وهذا عام بالعراق والكويت) فصارت مسيد، ومنه بالبربرية أمسقيدة فأخذها عنهم الإسبان وقالوا مزكيته (Mezquita) للجامع مطلقا .والمسيد هو جامع صغير في الحي للصلوات الخمس وحفظ القرآن والمتون.

5- سيدي المشرف:

ومنه سيدي المشرف بالحجامين بالربض الأعلى، وليس هناك سيدي المشرف بل هو مسيد المشرف أي المسجد - الكتّاب المشرف أو الذي بناه المشرف.

فإن كان الأوّل فبمعنى المشرف من الإشراف لأنّه واقع في شرف المركاض، والشرف يطلق على العلو المعنوي وهو شرف النسب والحسب والكسب، أو على الارتفاع المادي أي الهضبة، ومنه شرف المهدية (la ligne des crêtes) وهي قسم « زويلة » الأعلى، المقابل لشبه الجزيرة المهدوية، من الناحية الجنوبية الغربية، والذي كان به ولا يزال سور المهدية الكبير الخارجي، والفصيل (الحفير) الأعظم والذي وقعت فيه المعركة بين الخارجي" أبي يزيد مخلد بن كيداد النكاري "(صاحب الحمار) والمنصور الفاطمي.

وكذلك شرف إشبيلية، وهو سلسلة من الجبال تمتد خلف إشبيلية، مغروسة كلها زياتين .وهي مجموعة قرى مثل شرف

الجبل الأحمر، بالإضافة إلى عاصمة تونس. ويسمى الشرف بالإسبانية (Ajarafe) وأصله العربي واضح. وأما إذا كان المشرف علما على شخص فهو وظيف رئيس ديوان البحر أي مدير الجمارك اليوم - والله أعلم.

6- المركاض :

ولما كنا بالمركاض فنقول إنّه ليس مشتقا من مادة ركض بل هو من الإسبانية مركاضو (Mercado) بمعنى السوق، لوجود فنادق يسكنها الإسبان من قديم، أي منذ كان العلوج بتونس.

7- باب العلـوج :

والمقصود بالعلوج جنود نصارى من الإسبان، وخصوصا من الكتالانيين ومن البلنسيين : أهل بلنسية على الأخص (Valence) الذين كان الأمراء يتزوجون بناتهم فيسلمن. وأولاهن : الأميرة عطف زوج أبي زكرياء الحفصي، التي بنت "جامع الهواء " و"مدرسة الهواء " ويسميان أيضا بجامع التوفيق ومدرسة التوفيق (انظر : عثمان الكعاك : الأميرة عطف [تونس 1929]). ثم يجلب الخلفاء الحفصيون أقارب أزواجهم، ويبقون على النصرانية، ويسكنون في بيوت حول القصبة تسمى " حوانيت العلوج " تبدأ من باب العلوج، وهذا وجه تسمية الباب، وتنتهي عند المركاض حيث توجد سوقهم التي ذكرنا.انظـر :

Homenage a Francesco Codera :

Los renegados cristianos a la corte de los Hafsies.

العلوج النصارى ببلاط الحفصيين).

أما قبة مسجد القبة فهي قبة أغلبية ترجع إلى القرن الثالث الهجري. وفي القرن الخامس صارت مدفن الأمراء الخراسانيين الذين كانوا أمراء تونس العاصمة في عصر الطوائف الصنهاجي. (انظر :

عثمان الكعاك : بنوخراسان. في المجلة الخلدونية). وقد درس قبورهم وخطوطها الكوفية الرائعة العلامة الأثري الأستاذ مصطفى زبيس [دولة بني خراسان ملوك مدينة تونس.- في : مجلة الندوة، جانفي 1953 ص 17، مارس 1953 ص 14 – 15]

ومنها قبتان أخريان توجدان بمدينة بالرم عاصمة صقلية، وهما في سمت واحد بإحدى بطاح المدينة المذكورة، كانتا جامعين ثم صارتا كنيستين. تسمى الأولى صانتا شيكاندا والثانية لامارتورانا. ومرّتا من المعمار الأغلبي إلى المعمار الفاطمي ثم الصنهاجي. وهما آيتان من آيات الفن الإسلامي التونسي بصقلية (وقد درسهما صديقنا الأستاذ مصطفى زبيس في كتابه عن القباب، الذي ذكرناه). وزقاق الأندلس مر في آخر مراحله بإعادة تعمير من طرف مهاجرة الأندلس بعد سقوط غرناطة أي في القرن العاشر الهجري.

وقد حدثنا عن عمرانه ذلك كتاب عن مهاجرة الأندلس إلى المغرب نشره المؤرخ المغربي العلامة بوجندار في كتابه « الفتح في تاريخ رباط الفتح».

وسقوط غرناطة ليس بآخر عهد للإسلام بالأندلس، فإن المسلمين الباقين ويسمون الغزاة، بقوا يحاربون في جبال البشارات، ويتمسكون بدينهم ولغتهم، إلى أن حاربهم فيليب الثاني، ملك إسبانيا، بواسطة "ديوان التفتيش ".ثم أصدر أمره بإجلائهم سنة 1017 هـ/1609م، على عهد عثمان داي .فانتشروا في العالم في جلوة عظمى تبدأ بأمريكا ويسمون فيها المدجّنين، أي الذين استبقوا.

وهم في الواقع التقنيون المعماريون أو غيرهم الذين بنوا أمريكا من القرن الخامس عشر إلى السابع عشر .ومن درس كنائس أمريكا في جمهورياتها السبع عشرة يتبين له شبهها بالجوامع من حيث القباب والسقوف والنقوش والزليج. وتعجب من المعمار العربي

المشتمل على المشرفيّات (القناريات، من الإسبانية (Galeria) بمعنى رواق)والنقش العربي والزليج وسقوف الخشب المصنوعة والمخرّمة والمرصعة بالصدف والعاج والفوّارات والأقواس العربية. انظر:منويل توسان : الفن المدجّن بأمريكا.

(Manoel Toussaint : El arte mudejar en América)

وانتشر الأندلسيون بالقارة الإفريقية إلى حد جمهورية تشاد ولكن معظمهم سكنوا :

بالمغرب : تطوان - طنجة - سلا - الرباط.

وبالجزائر : وهران - تلمسان - مستغانم - تنس - القليعة - البليدة- الشبلي - عاصمة الجزائر - دلس (Dallys) - آمزون - (Gueydon Port)- بجاية- عنابة - قسنطينة.

وبتونس : على نهر مجردة : غار الملح - رفراف - جومين - راس الجبل- الماتلين - عوسجة - العالية - الجديدة - طبربة - قريش الواد - مجاز الباب - السلوقية - تستور - حدلس (حي الأندلس ببنزرت).

وفي الوطن القبلي : سليمان - بلّي - قرنبالية - تركي - نيانو - باطرو - بني خلاد - منزل بوزلفى - نابل.

ثمّ في مدينة تونس وقمرّت وأريانة، إلخ ...

وبليبيا : طرابلس، وعلى الخصوص درنة في برقة وجامعها الأندلسي الجميل ذو القباب الأربع والأربعين.

وجلب الأندلسيون من أمريكا الهندي المنسوب إلى الهنود الحمر(Indiens peaux rouges) وسردوك الهند (مثله) ومرايات الهند، والقناوية والطماطم والفلفل والبطاطا والقطانية والصبّار والدخان.

وجلبوا من الصناعات صناعة الشاشية والحرير والزليج .وفوق كل ذي علم عليم.

مصادر البحث :

- ابن أبي دينار : المؤنس.
- مناقب أبي الغيث القشاش.
- الطاهر ابن عاشور : هجرة الأندلس .في المجلة الخلدونية.
- عثمان الكعاك : المدن الأندلسية بالقطر التونسي. في مجلة الأسبوع، 12 ح. فيفري-أفريل1953.

Cdt Marty : Les noms patronymiques andalous - in : Rev. des Etudes Islamiques, 1953.

- حسين خوجة : ذيل بشائر أهل الإيمان (تراجم العلماء الأندلسيين المهاجرين، مثل : هرميلو والريكلي والحجيج وغيرهم).
- عثمان الكعاك : صناعة الشاشية. في : مجلة اللّطائف [أفريل 1955 ص2–9، 56].

Peyssonnel : Voyages [dans les régences de Tunis et d'Alger.- Paris 1838].

[وكذلك : الحمروني : الموريسكيون الأندلسيون في تونس / دراسة وبيبليوغرافيا. - ميدياكوم، تونس1998].

مرابطـــون وأربطـــة (*)

معاويـــة بن عتيـــق :

ولي مشهور بمدينة تونس، ومن طلبة محرز بن خلف، رضي الله عنه. وضريحه قرب ضريحه بنهج سيدي معاوية، بحي حوانيت عاشور، من مدينة تونس.

هـو : معاوية بن عتيق الله بن ظافر بن صالح بن زين الدين بن أصل الدين، أبي الفضل، بن إسماعيل بن أحمد بن عياد بن نوار بن أيوب الأنصاري، المدفون عند سور إسطنبول، والمعروف بالسلطان أيوب.

أبـوه : عتيق الله بن ظافر.

أمه : فاطمة بنت قولان بن باقل بن زين الدين، من ذرية عبد الله بن أنس الجهني.

جدته : أصل جدته من ذرية عقبة بن عامر الجهني.

ولادته : ولد ببلدة أريانة من أحواز تونس الشمالية الشرقية، على 6 كلم منها.

وفاته : وبها مات مستشهدا في محاربة الشيعة، بأمر من شيخه محرز بن خلف.

وبأريانة شهداء كثيرون، منهم : سيدي عمار المعروفي، من قبيلة المعاريف (ترجمته في الجزء الرابع من معالم الإيمان لابن ناجي) مات محاربا للصليبيين، في غزوة لويس التاسع الفرنسي.

ومعه شهداء السلسلة الذهبية، وهم مرابطون كانوا على سلسلة من الجبال، تحيط بأريانة كالهلال، منهم : سيدي عمر بوخطيوة، ورباطه موجود على طريق روّاد. وسيدي عبد الله، وسيدي الجربي، وسيدي فرج. إلى أن نقل إلى بلاط الشهداء أو مقبرة النور، وهي

(*) مجلة الهداية، جويلية 1974، ص 82– 84.

مقبرة سيدي عبد العزيز المهدوي القرشي، شيخ محي الدين بن عربي الطائي، وزميل القطب أبي مدين شعيب، ببجاية، ودفين العبّاد على مقربة من تلمسان. وقبره هناك معروف مزار : (انظر : التادلي : التشوّف إلى معرفة رجال التصوّف، وما ورد فيه من مصادر. والطبعة الثانية من "عنوان الدراية "للغبريني، مع التعاليق الضافية. وقد أفرده بالتأليف ابن الخطيب القسنطيني فألّف كتاب أنس الفقير وعز الحقير، ط. الرباط سنة1965، بعناية محمد الفاسي).

قراءته : قرأ القرآن على سيدي يونس، حتى ختمه، وقرأ على المؤدّب محرز 12 ختمة، وجوّد عليه وهو ابن سبع. وتعلّم اللغة، والأدب، والفقه، والتصوّف، حتى برع فيها كل البراعة. وكان شاعرا، قيل نظم ملحمة على حروف المعجم، بحساب عشرة آلاف بيت على كل حرف من حروف الهجاء، ويبدو أنّ هذا الرقم الفلكي فيه مبالغة.

توفّي سيدي معاوية في معركة الشيعة بأريانة، بأمر من شيخه محرز بن خلف، وتاريخ ذلك مختلف فيه. ودفن رأسه بالعزافين من نهج السوق الطويلة بتونس، وجسده بزاويته المذكورة، بنهج سيدي معاوية.

ومن سنوات وفاته التي ذكروها : سنة420 هـ /1029 م، وهذا صعب، لأنّ الشيخ محرزا الذي أمره بقتال الشيعة توفي سنة 413 هـ/1022م، والله أعلم.

وكانت زاويته في العهد المرادي من أمكنة عشايا التونسيين. تفرش، وتبخر، ويرش من بها، ويتلى فيها حديث صحيح البخاري بالصوت، وتنشد فيها مدائح الشيخ النبوية، فيهرع أهل تونس لمشاهدة ذلك. ووقع نظير ذلك في العهد الحفصي، بزاوية سيدي البغدادي، بنهج سيدي البغدادي، بالربض الأعلى. فكانت تنشد المدائح النبوية والوتريات، التي كان يؤلفها الشيخ البغدادي نفسه.

وقد وردت ترجمة سيدي معاوية بأطول من ذلك في كناش الشيخ المحجوب. وعاصر سيدي معاوية جماعة من الأولياء الذين دفنوا بتونس، ولا تعرف تراجمهم على وجه التحقيق، ومنهم : الفقيه الكراب. والشيخ مفرج، بنهج سيدي مفرج. والشيخ بيان، وهو مقبور بزاوية "سيدي بيان"، بالبيقة، على مقربة من" تحت السور"، بباب سويقة. وسيدي سفيان الحلبي، ومقبرته هي مقبرة سيدي سفيان قرب نهج سيدي عبد الحق.وسيدي فرج الهنتاتي وهو من رجال القرن السابع بعد هذا التاريخ، وكان قبره بأعالي مقبرة سيدي علي القرجاني، وعليه كتابة تفيد أنه من رجال القرن السابع. وفيما أوردناه كفاية.

سيدي سهلون :

مربع ومصطاف، ورباط ومزار. يقع في الشمال الغربي من مدينة سوسة، جوهرة الساحل. به البساتين الأنيقة، والحدائق الغناء، والرياض الفيحاء، والقصور المنيفة، والبيوت اللطيفة. يشبه منوبة، لولا أنه هضاب خضر مزدهرة.

وصاحب الرباط، هو أبو عبد الله حمود (أو محمد) سهلون تصغير سهل، على العادة اليمنية والأندلسية. ولد في النصف الثاني من القرن التاسع الميلادي .وتوفي سنة327 هـ/ 938م. كان في أوّل أمره ناسكا متعبدا بقصر جبنيانة، قرب صفاقس. وذكر المالكي في" رياض النفوس : " أن أبا إسحاق إبراهيم الجبنياني، المتصوف تتلمذ عليه. وكان " سيدي الجبنياني" يستشير أبا عبد الله محمد ابن سهلون، فيما أشكل عليه. وكان أبو الفضل الممسي يعظّم سهلون ويكبره. وفي وقت من الأوقات انتقل إلى الرباط الذي قبر به، فكان يتولى الحراسة به، ويتعبد في غير وقت الحراسة، إلى أن أدركه حمامه.

وسيدي سهلون مزار، وهو مكان جميل لا يبعد عن حمام سوسة، بل هو يشرف عليه من جهة الجنوب، وكاد امتداد البنيان أن يجمع بين الإثنين. وقد لعب هذا الرباط دورا عظيما بين رباط سيدي بوعلي (أبو علي الحسن السوسي) ورباط سوسة نفسها.

حمام سوسة:

بلدة على الطريق الكبير رقم واحد، بين تونس وسوسة، وعلى بعد 6 كلم في الشمال الغربي من سوسة. بلدة جميلة في سفح ربوة، جميلة الشوارع، بديعة الجامع، قديمة العهد، حديثة المؤسسات، جامعة بين السهل والجبل، والبر والبحر.

والمقصود بالحمام الذي ينسب إليها، هو حمام فاطمي، يرجع إلى القرن الرابع الهجري، يوجد بطريق البحر، في الشرق منها، وعلى مقربة .وهناك يلتقط الأثري ما شاء أن يلتقط من الفخار المطلي، الفاطمي، ذي اللمعان المعدني.

والحمامات الفاطمية بتونس، هي: هذا الحمام، وآخر كان بقرب محطة القطار، بالقيروان، وحمام ثالث أنيق رائع، مستعمل، كثير الكتابة بالخط الكوفي، والزليج، والرخام، يوجد بمدينة شاقة، على بعد 20 كلم من مدينة بالرم، عاصمة صقلية.

سيدي بوعلي:

- قال أبو الفضل الممسي": في نواحي إفريقية أربعة رجال: سحنون بن أحمد ابن قلون بقسطيلية (الجريد، في الجنوب الغربي التونسي: دقاش وتوزر ونفطة). وأبو علي الحسن بن نصر، بسوسة. وحمود بن سهلون، بالساحل (سيدي سهلون، المتقدم ذكره) وقمود بقابس".

وسيدي بوعلي، هو: أبو علي الحسن بن نصر السوسي، دفين

الرباط الذي كان يتعبد فيه، بقرية سيدي بوعلي. وهي منتصف الطريق بين "المفيضة" (لا النفيضة كما يتوهم البعض) وسوسة. ورباطه، الذي هو مرقده، لا يزال موجودا على مقربة من القنطرة الأغلبية، في الطرف الشرقي من سيدي بوعلي، وعلى مسافة قريبة، على النسبة من بلدة هرقلة.

توفي سنة341 هـ /952م، على عهد الفاطميين، وحضر جنازته خلق كثير،* من سوسة ومن القيروان.

مصادره : الجزء الثاني من" رياض النفوس "للمالكي .محمد البهلي النيّال : الحقيقة التاريخية للتصوف الإسلامي، ص 172وما بعدها.

وكانت قرية سيدي بوعلي، من الفتح الإسلامي إلى أن حملت اسمه، تسمى" زمبرة."وهي تجمع لاسمها الاسم الروماني ذا الأصل البربري" أوليسيبيرا" (Ulisippira)." ومازالت آثار هذه البلدة تظهر أحيانا، عند الفيضانات. ومنها آثار مسرح بيضوي.

انظر :

Cagnat : Exploration, II, p. 27.
Pelissier : Description de la Régence ...p.261.

قصر الطوب أو سيدي عبد الحميد :

مصطاف على البحر، في الجنوب الشرقي من سوسة .فيه قصور ومنازل وبساتين .ساحل نظيف ظريف لطيف، هواؤه عليل، وماؤه زلال سلسبيل، وظله ظليل .إذا اشتد الحرّ ذهب إليه السراة من أهل القيروان، وأرباب الاصطياف من السوسيين. وفي المساء، ترى الدكاكين (المصاطب) التي أمام البيوت نظيفة الرحاب، مبسوطة الزرابي. وترى أرباب المنازل قد استندوا إلى المخاد، بجببهم البيضاء، وبأيديهم المراوح، وخلف آذانهم باقات الفل والياسمين. والبحر الأزرق قد اختلطت آفاقه بزرقة السماء،

والسابحون يسبحون، ولاعبو كرة الماء يتقاذفونها بشطارة ومهارة، ولطف إشارة.
من هو سيدي عبد الحميد ؟

هــو : أبو محمد عبد الحميد بن محمد القيرواني، المعروف بالإمام ابن الصائغ، المحقق الفهامة، الحافظ العلامة. ولد سنة486 هـ/1093م، وأدرك أبا بكر ابن عبد الرحمن، وأبا عمران الفاسي. وتفقه بأبي حفص العطار، وابن محرز، وأبي إسحاق إبراهيم التونسي، وأبي الطيب الكندي، والسيوري، وغيرهم.

وتخرج عليه : الإمام المازري، وأبو علي حسان، البربري، وأبو الحسن الموفي، وأبو بكر بن عطية له تعاليق محكمة على" المدوّنة." ولد في سنة 486 هـ وقبته من الطراز الصنهاجي الرائع. والمكان في الأصل هو رباط قصر الطوب الشهير. ولا تزال آثار الرباط قائمة على مقربة من مرقد الإمام.

رباط مسجد عيسى:

هو رباط عيسى بن مسكين ومقامه ومدفنه. قرية صغيرة جدا في رأس ربوة، تقع بين عوينة الساحلين والوردانين، على يمين الذاهب إلى المهدية، وعلى بعد كيلو متر من الجادة الكبرى.

هو عيسى بن مسكين بن منظور الإفريقي. أصله من العجم. ولد سنة212 هـ/827م، وسمع من سحنون، وكان اعتماده عليه، وابنه، وأبي جعفر الآبلي، والحارث بن مسكين، وابن المواز، والبرقي، ومحمد بن عبد الحكم، ويونس الصدفي، ومحمد بن سنجر، وغيرهم من أهل إفريقية والمشرق.

وأخذ عنه أئمة، منهم : أحمد بن تميم، والكانشي، وابن مسرور، وأبو إسحاق الجبنياني، وأبو جعفر عمر بن مثنى. وهو غير أبي جعفر بن أحمد بن سعدون الأربسي، نسبة إلى الأربس قرب الكاف.

وهو دفين شاطئ سوسة، المسمى بشط سيدي بوجعفر، الشهير بالجهة التي كانت تسمى قبّة الرمل. توفّي سيدي بوجعفر سنة323 هـ/934م. سمع من يحيى بن عمر دفين سوسة، وصاحب كتاب أحكام السوق، في حسبة الأسواق (نشر في مجلة المعهد الإسلامي الإسباني). ونقل عيسى بن مسكين كتب يحيى بن عمر عندما امتحنه الأغالبة، فكتبها بقلمه. ومنها كتاب فضل الرباط وأحمية الحصون.

(انظر : محمد البهلي النيّال : الحقيقة التاريخية للتصوّف الإسلامي ص171).

ومن طلبته الذين أخذوا عنه (أي عن عيسى بن مسكين) مسرور الحجام وزياد بن يونس. وتوفي عيسى سنة 295 هـ/907 سم.

ووصلنا من كتبه الكثيرة : آداب الوكيل، وهو كتاب عظيم الفائدة، يبين القواعد التي بمقتضاها يسمى وكيل القضايا وكيلا، وما هو القانون الأساسي لمهنة الوكالة. وهو أول كتاب في العالم في مهنة الوكالة وقانونها الأساسي. كان يوجد بالمكتبة العتيقة بالقيروان، ثم نقل إلى دار الكتب الوطنية.

والكتاب الثاني هو كتاب في سبعين ورقة، كل ورقة تدرس نحلة من النحل السبعين، التي كانت بالقيروان، فالوجه على رأي أصحاب النحلة، والظهر على رأي عيسى بن مسكين. وهذا أجل كتاب لمعرفة الفكر الإسلامي على عهد الأغالبة. وهو أقدم كتاب في تاريخ الملل والنحل، جاء قبل ابن حزم، والبغدادي، والشهرستاني. وهو أيضا من كتب المكتبة العتيقة بجامع القيروان. وفوق كل ذي علم عليم.

(في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه)

جامع "سيدي البغدادي"(*)

في الربض الأعلى بمدينة تونس، قرب " نهج بوخريص "جامع جميل جدا، يدهشك معمار صومعته الغريب، الذي ليس مألوفا بتونس. فليس مستديرا مثل صوامع الأربطة : المنستير وسوسة والشابة وجامع الزيتونة في المكان الذي كانت به المكتبة العبدلية .فقد كان بالزيتونة أربعة أربطة، ترى منها هذا، وإذا خرجت ونظرت على اليسار في اتجاه الجامع رأيت صومعة الرباط الثاني مندرجة في الجدار.

ومعمار صومعة هذا الجامع ليس مربعا، مثل الصوامع المالكية، ولا مسدسا مزخرفا مثل الصوامع التركية، ولا مزخرفا بالياجور والزليج، وبه ساعة، مثل الصوامع الأندلسية.

وهذه الصومعة مثمنة، رشيقة. والبناية كلها مركّب ثقافي ديني، يشمل : جامعا وكتّابا(1)، ومدرسة، بالمعنى الكلاسيكي. ويوجد هذا المركب بنهج عرضي بين " نهج الحقيقة "القديم، ونهج" الوادي" المؤدي إلى نهج بوخريص. ويسمى هذا النهج بنهج سيدي البغدادي.

من هو سيدي البغدادي ؟

هـو : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر البغدادي. ولد بقصر كتامة بالمغرب الأقصى الشقيق، ثم انتقل إلى فاس فدرس بها، ثم إلى الأندلس فدرس بعواصمها العلمية. ثم انتقل إلى مصر فحضر - على ما يظهر - حلقات الإسكندرية والأزهر، ثم انتقل إلى بغداد فملأ

(*) مجلة الهداية، أكتوبر 1975، ص 116.

(1) بعناية من سكان الحي وإشراف من إدارة الشعائر الدينية بالوزارة الأولى أجريت في المسجد مؤخرا– عدة ترميمات... ومن أهمها : إلحاق "الكتاب" ببيت الصلاة. و النية متجهةإلى إجراء توسعة أخرى قد يصبح بها المسجد "جامع جمعة".

وطابه من أمالي علمائها وأساتذتها .. وهكذا أخذ عن شيوخ المغرب، والأندلس، ومصر، ودمشق، وبغداد. ثم رجع إلى مراكش سنة655 هـ/1257م. ثم ارتحل منها رحلة علمية ثانية .ثم عاد إليها، وخرج في رحلة علمية وتعليمية ثالثة، فانتصب بتونس في العهد الحفصي، وبنى مركبّه الديني التعليمي. وتوفي بتونس سنة663 هـ/ 1264م ودفن بمعهده.

له ديوان شعر "الوتريات" في الأمداح النبوية. ويظهر أنها كانت تنشد بمعهده، ينشدها طلبته ومن أتى بعدهم، جيل بعد جيل، ولا سيما في الأيام المولديات.

كان شافعي المذهب، نظارا، حسن المأخذ (2).

(2) انظر : الإعلام للمراكشي. ج 3، ص 152. منقول بتصرف عما أورده عبد العزيز بن عبد الله. في مجلة "اللسان العربي" أغشت (أوت) 1967. ص 257

التاريخ الحفصي من مصادره المجهولة (*)

شعراء العهد العثماني (1) نقلا عن رحلة عبد الباسط
الرحلات من أهمّ المصادر التي تنير لنا بضوء جديد تاريخ الدولة الحفصية. فمن راجع منّا ابن جبير (2) والعبدري (3) وابن بطوطة (4) وخالدا البلوي (5)استقى من أخبار الحفصيين واستفاد عن الحالة الاجتماعية والحياة العلمية والأدبية ونظم الحياة العامة والخاصة أضعاف ما يستقيه و يستفيده من كتب التاريخ المعينة بالذات.

وقد نشر الأستاذ برانشفيك قطعة من رحلة عبد الباسط (6) تتعلق بوصف تونس وملكها الحفصي أبي عمروعثمان (7) وبلاطه وطرق ركوبه والحالة الاجتماعية التي عليها البلاد وما حضره من مجالس العلماء والأدباء.

(*) نشر في مجلة المباحث (تونس) أكتوبر 1944، ص 12،10،3. وقد أشرنا إلى تعاليق صاحب المقال باختصار اسمه هكذا (ع.ك) تمييزا لها عن تعاليقنا.

(1)« العثماني» نسبة إلى أبي عمرو عثمان السلطان الحفصي الشهير. دام ملكه من سنة 839 هـ/ 1435 م إلى سنة 893 هـ/ 1488م. انظر : ابن الشماع و الزركشي (ع.ك). وقد صدر« تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية» بتحقيق محمد ماضور عن المكتبة العتيقة بتونس سنة 1965 متأخرا عن تاريخ مقال الكعاك.

(2) هو محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن جبير الكناني البلنسي ثم الشاطبي (540– 614هـ/ 1145 – 1217م) أديب ناثر وناظم. رحل من بلنسية إلى بغداد ودمشق، وسمع بشاطبة. وفي الحجّ سمع بمكة. ثم رحل ثانية إلى المشرق وعاد إلى المغرب ثم رحل ثالثة وحدث بمكة والقدس وتوفي بالإسكندرية. من آثاره ديوان شعر ورحلة ط. بريل. انظر عنه : كحالة (عمر رضا) : معجم المؤلفين.— مؤسسة الرسالة، بيروت 1993، ج3، ص 56، زيادة (مصطفى) : رحلة ابن جبير ورحلة ابن بطوطة.

(3) هو محمد بن محمد بن علي بن أحمد الحاحي نسبة إلى حاحة في المغرب الأقصى حيث أقام، العبدري نسبة إلى بني عبد الدار. أصله من بلنسية. سكن حاحة، ومنها توجه إلى الحج سنة 688 هـ/ 1289م فدخل باجة وتونس والقيروان، ومرّ بالإسكندرية في ذهابه وإيابه، ثم عاد إلى بلده. من آثاره : الرحلة المغربية.— ط. الجزائر، د.ت، الرباط 1968، القاهرة 1978. انظر عنه : كحالة : معجم المؤلفين... 3/ 658.

(4) هو ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمان بن يوسف اللواتي الطنجي (703 – 779 هـ/ 1304 – 1377م) رحالة ومؤرخ وناظم. قام بثلاث رحلات قادته إلى بلاد المغرب والشرق الأوسط والشرق الأقصى حتى سومطرة وجاوة وإلى إفريقيا فإلى الأندلس. واتصل بعديد الملوك. وعاد إلى مراكش منقطعا لأبي عنان المريني. و هناك دوّن رحلته الشهيرة « تحفة النظّار في غرائب الأمصار و عجائب الأسفار» معتمدا ذاكرته، وهناك توفي. انظر عنه : التازي (عبد الهادي) : تحفة النظار... – مقدمة التحقيق، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية 1417 هـ/ 1997م، كحالة : معجم المؤلفين... 3/ 451 – 452.

(5) هو خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم البلوي الأندلسي (حي 740 هـ/1340م) فقيه ورحالة. ولد بقرطبة وتولى القضاء. من آثاره : تاج المفرق في تحلية علماء أهل المشرق. وهي رحلة إلى الحجاز ابتدأت سنة 737 هـ/ 1336م وانتهت سنة 740 هـ/ 1339 م. انظر عنه : كحالة : معجم المؤلفين...1/ 668.

إحداهما لعبد الباسط بن خليل : الروض الباسم في حوادث العمر و التراجم، تحقيق المخطوط رقم 729 بمكتبة الفاتيكان بروما، والثانية لأدورن. وقد اقتصر المحقق منهما على قسم المغرب.

6- BRUNSCHVIG (Robert) : Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XVe siècle.- Paris 1936

(7) راجع التعليق رقم 1 أعلاه. وعن أبي عمرو عثمان وعصره انظر: برنشفيك (روبار): تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن15م.—تعـ .حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1988،ج 1،ص270—310.

وسنستعرض لك ذلك بعد أن نقول كلمة عن عبد الباسط نفسه.

هو عبد الباسط بن خليل الملطي، أصله من مدينة ملطية (8) بالشام، وتعاطى التجارة جامعا بين الرحلة التجارية والرحلة العلمية. فنزل بتونس عاصمة الحفصيين في 22 ذي القعدة 866 هـ الموافق لـ 18 أوت 1462 م قادما من الإسكندرية على متن سفينة بندقية. قال : « وفي يوم الأربعاء 22 ذي القعدة 866 دخلنا إلى مدينة تونس بعد أن بقينا بالبحر 33 يوما...»

– وصف تونس «... فرأيت مدينة حسنة جليلة هائلة بديعة تقرب من دمشق في جفنها (9) ونزلت بدار بها بمكان يسمّى فندق الرماد (10) ووجدنا صاحب تونس وسلطانها المتوكل على الله عثمان خارجا عنها آخذا في التوجه إلى جهة تلمسان»

– علماء تونس «... وفيها في يوم الخميس ثامن ذي الحجة [866 هـ/1462م] ورد سؤال على جماعة من علماء تونس ومن جملتهم شيخنا سيدي أبو إسحاق إبراهيم الأخذري (11)...»، إلى أن قال عبد الباسط : «... ووافقه على ذلك جماعة منهم قاضي الأنكحة بتونس إذ ذاك وهو سيدي محمد الزلديوي القسنطيني (12). ثمّ أخذت أستفيد

---

(8) مَلَطْيَةَ بفتح أوله وثانيه وسكون الطاء وتخفيف الياء. والعامة تقوله بتشديد الياء وكسر الطاء، هي من بناء الإسكندر، وجامعها من بناء الصحابة. بلدة من بلاد الروم تتاخم الشام، وهي للمسلمين. وإليها ينسب عديد العلماء. انظر عنها : ياقوت الحموي : معجم البلدان.–تحـ. فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت 1990،ج5، ص223–224.

(9) كان شكل تونس لوزياً أي بشكل جفن أو سفينة. و هذا معنى قوله «في جفنها» أي أن شكل تونس الذي هو لوزي يشبه شكل دمشق من حيث أنه يحاكي الجفن (ع.ك).

(10) فندق الرماد لعله كان الرماديين. و هو الشارع الكائن بين سوق النساء انحدارا نحو تربة الباي(ع.ك).

(11) هو أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الأخذري أو الأخضري، فقيه تونسي مشهور، سمّي أستاذا بإحدى مدارس الحضرة الحفصية في موفى 850 هـ (مستهل سنة 1447م). ثمّ ولي الإفتاء، و توفي في السابع جمادى الأولى 879هـ/19 سبتمبر 1474م. ذكره السيوطي في «نظم العقبان»،ط.فيليب حتّى، نيويورك 1927 ص 25 و أحمد بابا في «الديباج المذهب» ص 58 والقرا في في ˝ توشيح الديباج ˝(مخطوط الزيتونة والمكتبة القومية بباريس) والسخاوي في «الضوء اللامع» (ع.ك). و من «توشيح الديباج» نسخة أخرى بمكتبة خير الدين الزركلي على حدّ قوله في مراجع «الأعلام».

(12) هو أبو عبد الله محمد بن الزلديوني أو الزنديوني. كان أستاذا بتونس ثمّ ولي قضاء قسنطينة في 839هـ/1435م إلى 855هـ/1451م. ثمّ ولي الخطابة والإفتاء بتونس و قضاء المحلة من 856هـ/1452م إلى السنة بعدها، ثمّ قضاء الأنكحة في 864هـ/1460م. وتوفّي في خامس جمادى الأولى 874هـ/10 نوفمبر 1469م. و قد ألف عدة تآليف، منها تفسير للقرآن ذكره الزركشي في «تاريخ الدولتين»،ص118–119و120و128و129و131و135و136و143ط.تونس، و أحمد بابا في «الديباج المذهب»ص315 (ع.ك).

من الشيخ المذكور هذا، وتكلمت معه في ذلك على وجه المباحثة فآنس بي وأعجبه كلامي. وكان - رحمه الله- يجلس بجامع الزيتونة في أوقات معلومة من الظهر إلى بعد العصر أحيانا، وأحيانا من العصر إلى قريب الغروب. وكنت أجالسه كثيرا في هذه الأوقات وأسمع الكثير من فوائده وتحقيقاته فإنه كان أمّة ورأسا في الفنون لاسيما الأصلين (13). وفيها [866 هـ] في يوم السبت [سبتمبر 1462م] عيدّنا النحر بتونس، وصلّينا صلاة العيد بجامع الزيتونة. وهو من أعظم جوامع هذه البلاد وأشرفها وأبهجها. يقال إنّ السيدّ الخضر رئي به غيرما مرّة (14).

– حفلة براس الطابية«... وفي يوم الأحد سابع عشر منه [12 ديسمبر 1462] جمع التاجر المعظم الخواجا المكرّم الحاج أبو القاسم البنيولي الغرناطي الأندلسي نزيل تونس وكبير التجّار بها جماعة من أعيان التجار من أصحابه و الحجّاج منهم من أهل الأندلس، وعمل لهم ضيافة حافلة بمكان من أجنّة تونس يقال له راس الطابية (15) من منتزهات ملوك تونس وأمكنة فرحهم. وكنت في ذلك اليوم ممّن دعي لهذه الضيافة، فرأيت هذا الجنان في غاية الإتقان والحسن. وبه مكان كالقصر برسم السلطان ثلاث طباق، عظيم إلى الغاية، أنيق البناء، فرج، نزه، بناء ملوكي على صفة غريبة وهيئة عجيبة. وبه بركة ماء عظيمة، كبيرة جداً. وبه شيء يقال له « المحنشة»، برسم جريان الماء فيه، نُقر في جحر كالرخام، يدخل الماء إليه من جهة ثم يجول فيه جولانا غريبا في أوضاع محفورة نقرا في هذه البلاطة على هيئة دائرة واسعة، متداخلة النقور، بديعة الصفات، تسرّ الناظر وتشرح الخاطر، وهي من

---

(13) هما الكتاب والسنّة.

(14) ذكر ذلك الزركشي ص63 والوزير [السرّاج] في «الحلل السندسية» ط.تونس 1287هـ [1870م] ص 317 والأبّي في «الإكمال» ج6، القاهرة 1328هـ [1910م] ص 172 وغيرهم (ع.ك).

(15) انظر: ابن خلدون : العبر.-بيروت 1958،ج6،ص629، الزركشي: تاريخ الدولتين...ص33،71،83

DAOULATLI (Abdelaziz) : Tunis sous les Hafsides.- Tunis 1976.

العبدري: رحلة...-تحـ .محمدّ الفاسي، الرباط 1968،ص40. والذي أنشأ قصر راس الطابية وحدائقه وجلب إليه مياه زغوان بالحنايا الباقية آثارها إلى اليوم هو المستنصر بالله الحفصي (حكم 647-675هـ/ 1249-1277م). انظر كذلك : برنشفيك : تاريخ إفريقية في العهد الحفصي...ج1ص387. و فيه إشارة إلى منشئه الأول السيد الموحدي أبي زيد سنة1225م.

النوادر، يجول فيها الماء كأنه حنش، ويتعاكس الجولان عدّة معاكسات غريبة الهيآت.

ثمّ هيّؤوا من جملة هذه الضيافة مأكولا يقال له « المجبنة» من مآكل الأندلس (16). وصفته : جبن طريّ يدعك بالأيدي حتى يصير كالعجين. ثم يعجن السميد عجنا محكما مملوكا جيدّا حتى يصير في قوام عجين الزلابية بهذه البلاد وأغلظ قواما منه بيسير. ثم تؤخذ قطعة منه تبسط بالكفّ بلطافة وشباقة. ثم يجعل عليها قطعة من الجبن المدعوك، و يجمع حتى يصير الجبن حشوا لها. ثم يبسط قليلا، ثم يلقى في الطاجن وهو على النار بالدهن فيقلى، ثم يرفع ويرشّ عليه السكر المدقوق ناعما ومعه اليسير من الكمّون. وعمل ذلك بين يدي الحاضرين، وتولّى عمله بعض من الجماعة من ظرفائهم. وكان يوما معدودا من الأعمار، سالما من الأغيار. اجتمع فيه عدّة من ظرفاء أهل الأندلس وأعيانها، من طلبة علم وتجار، كلّهم أهل ذكاء. وحصلت مذاكرات علمية أدبية تاريخية إلى غير ذلك. وكان من جملة الجماعة الكاتب المجيد الباهر والشاعر الفريد الماهر الذكي النيّر محمد الخير المالقي (17) أحد أدباء بلاده وشاعر عصره، فأنشدنا في هذا المجلس نفسه بديهة. وكان قد هبّ النسيم فأنعش بهبوبه، وأذكر المحبّ بمحبوبه :

[الطويل]

وقالوا شفاء في النسيم الذي	**سرى على مسقط الأنواء وهو بليلُ**
ولم يشفني ذاك النسيم لأنه	**طبيب يداوي الناس وهو عليل**

والخير (18) هذا أحد الكتبة الأندلس، من أعيانها وفصحاء شعرائها.

---

(16) ذكر المجبنة أيضا السقطي في «آداب الحسبة» ط.كولان وليفي بروفنسال،باريس 1931،ص31و36و37 (ع.ك).
COLIN et LEVI-PROVENÇAL : Manuel hispanique de Hisba.- Paris 1931, P.31,36,37.

(17) لم نعثر على ترجمته ولا نعرف عنه أكثر من قدومه من مالقة سنة 864هـ/1459م.
راجع أطروحة أحمد الطويلي عن الحياة الأدبية بإفريقية في العهد الحفصي.– تونس...

(18) وذكر الخبر أيضا الزركشي في «بلوغ الأماني». انظر : الأدلّة البيّنة النورانية في تاريخ [أو مفاخر] الدولة الحفصية لابن الشماع وخصوصا ما أردفنا إليه من ملحقات (ع.ك).

ولد بمالقة في سنة 831 هـ/ 1427 م، وبها نشأ فقرأ القرآن العظيم و شيئا من اللغة والفقه والأدب، وبرع في فنّه، ونظم و نثر وقال وشعر، وكتب الخطّ الحسن الجيدّ على طريقة أهل بلاده. وكتب لبعض الملوك. ثم قدم تونس في سنة 864 هـ/1459م واتصل بخدمة المسعود بالله محمد بن عثمان صاحب تونس (19)، وامتدحه فقرّبه إليه وأدناه و اختصّ به وجعله كاتبه. ثمّ عارضه في ذلك أحمد الخلوف (20) حين قدم على المسعود هذا وجعله أيضا كاتبه فتعارضا، و بقي بغض كلّ من صاحبه، وداما على ذلك مدّة في تنافس ومعارضات بالنظم و غيره إلى أن خرج أحمد الخلوف من تونس لأمر أوجب ذلك سنذكره في محلّه في متجدّدات (21) سنة 877هـ/1472م إن شاء الله تعالى. فعاد الخيرإلى الاختصاص بالمسعود والانفراد بالكتابة له. ثمّ لمّا عاد الخلوف من القاهرة إلى تونس عاد لما كان عليه، و عاد ما كان بينهما من التشاجر. ثمّ بلغني في هذه السنّة –التي هي سنة 888هـ/1483م– أنّ الخير هذا قد حصل له خلل في عقله فأسفت عليه».

جميلة هذه النزهة الأدبية والمأدبة العلمية بقصور راس الطابية الواقعة في الشرق من باردو. وقد ذكرها ابن خلدون في تاريخه «ديوان العبر» ج 6، ص 282 (22) كما ذكرها الرحالة أدورن فقال ما تعريبه :

«وفي جنوب المدينة تمتدّ منتزهات جميلة جداً وبساتين فيحاء أنيقة. ومع أنّ جملة من البساتين و الرياض تحيط بالمدينة فيما يلي أرباضها

---

(19) أبو عبد الله محمد المسعود بالله ابن السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان وولي عهده. توفي قبل والده في شعبان 893هـ/جويلية–أوت 1488م. بحيث لم يتول الملك قط. و كان أديبا مقدرًا لأهل العلم، مقربًا للأدباء. امتدحه جماعة منهم، لا يفارقون بلاطه. انظر : السخاوي «التبر المسبوك» ط.الجزائر 1924ص276 و الجنابي مثله، والملحقات التي نشرناها بآخر تاريخ ابن الشمّاع، و خصوصا ديوان الخلوف (ع.ك).

(20) هو أبو العباس أحمد بن أبي القاسم محمد الحميري الأندلسي المعروف بالخلوف، شاعر بلاط السلطان الحفصي أبي عمرو عثمان وولده المسعود، وفيهما معظم شعره.توفّي سنة 899هـ/1494م، ودفن بمقبرة الحفصيين بجوار [زاوية سيدي] محرز بن خلف. طبع ديوانه بدمشق سنة 1291هـ/1874م. انظر عنه : بروكلمان : تاريخ الآداب العربية،ج2، ص 237 و الزركشي : بلوغ الأماني[مخطوط في نسختين بالمكتبة الوطنية بتونس](ع.ك). وفي «عنوان الأريب» لمحمد النيفر.–تذييل علي النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1996ج1ص458 أن الخلوف توفّي سنة 891هـ/1486م.

(21) أي حوادث، وبعبارة أخرى : تاريخ.

(22) وفي ط.بيروت 1958، ج6،ص629.

فإنّ أعظمها وأجلّها واقعة بالجنوب، فإنّ حول المدينة نحوا من أربعة آلاف بستان. وليس من ساكن إلاّ وله بستانه الخاص به المزدان بأنواع الرياحين وصنوف الأزاهر وضروب الثمار من نارنج وتفاّح وخوخ ورماّن وتين وتوت منسقّة أبدع تنسيق. وفي كلّ بستان قصر أنيق مرتفع البنيان، مربّع الشكل، مفروش بالأحجار المزخرفة الملوّنة الصورة، وفيه بركة وحمّام حارّ، وحوض للماء البارد الفوّار، فيعوم صاحب القصر في الحوض البارد مصيفا وفي الحمّام الحارّ في الشتاء. وقد زرنا الكثير من هذه المنتزهات الجميلة لاسيما منتزه ابن السلطان [الأمير المسعود]. له عند مدخله باب فخم، تليه بناية في الحسن و الجمال، قد زخرفت جدرانه بالنقش العربي في الجصّ، وهو مماّ شاع بهاتيك الأصقاع. وفرشة الغرف كناية عن زليج أبيض ناصع وأصفر ليموني وأزرق اسمانجوني وأسود حالك لمّاع، مزخرفة بأنواع الصور المختلفة الأوضاع والأنواع والأصباغ. وفي وسط كلّ غرفة حوض مستدير من رخام أبيض ينفتح فيما دون مستوى الأرض. وفي وسط الحوض فوّارة رخام مثقوبة ينبثق منها الماء. وسقوف الغرف مزخرفة منقوشة مذهّبة مزركشة بأنواع الصوروالأشكال. والنوافذ مربّعة الشكل صغيرة الحجم لا تزيد ضلعها عن قدمين. وهي وطيئة الوضع لا تتجاوز القدمين فوق سطح الأرض بحيث أنّ الجالس داخل الغرفة على طنفسة أو غيرها يرى ما بخارجها.

ويوجد– في البناية المتحدث عنها – صرح ليس بمرتفع جداّ كما هو شأن البناء في هذه الديار. وعلى مقربة من القصر صهريج مرتفع عن مستوى الأرض ينزل إليه من الدار بدروج كبيرة، قد كسي بزليج ناصع البياض. وتحت هذا الزليج توجد دهاليز مدمسة كبيرة مملوءة ماء مثل الصهريج نفسه، ينساب إليها الماء في القنوات الآتية من بئر عميقة يسنيها جمل مكمّم العينين، وفوهة البئر في مستوى أعلى من سطح المنازل المجاورة. ثمّ يسنى الماء في قواديس منظّمة على دولاب ناعورة، فينصبّ في منقاص مربّع، ومن هناك تدفعه عجلة أخرى في

قنوات. و ينحدر الماء من تلك القنوات إلى سواق تحتها، ينبثق منها انبثاق الفوّارة في الأحواض المستديرة المنقورة وسط الغرف. ثمّ إنّ هذا الماء يرجع في قنوات إلى صهاريج، ويتصفّى من تسرّبه خلال الأرض. وينصبّ الماء من الصهريج الأعلى إلى الصهريج الأسفل في قنوات صغيرة فيجري من هنالك إلى البساتين و الرياض في سواق مبنيّة على جدار قصير.

وعندما تجوّلنا في الرياض المنحطّة حول الصهريج رأينا صنوفا من الأشجار المثمرة منسّقة أبدع تنسيق وكلا وأزهارا تأتي بضروب الفواكه، لكنّها لم تنضج بعد، ماعدا النارنج الذي كان عظيم القدر جميل المنظر لذيذ الطعم والتوت الجليل الملذوذ بين أحمر وأبيض ممّا لم أر مثله في غير هذه البلاد.

وفي وسط هذه الروضة أربعة أواوين بشكل صليبي، كلّها في جمال القصور التي رأيناها قبل. وفي وسط كلّ إيوان من هذه الأواوين فرشة من الزليج البديع، رائع الألوان فاتن الزخارف والصور، وفوّارات بشكل صليبي أيضا. وبين الجميع فوّارة كبرى تنبثق منها عساليج المياه. ولم أذكر أنّي رأيت بستانا في مثل هذه الروعة وهذا الجمال. وهو من الإبداع بحيث يستحيل على الواصف وصفه و يفوق خُبْرُهُ خَبَرَهُ.

هذا هو بستان راس الطابية. وإذا لم يكن متّسع الأرجاء فإنّه بديع البهاء» (عن رحلة أدورن) (23).

---

(23) هو رحالة بلجيكي من مدينة بروج [Bruge]زار تونس بعد أن غادرها عبد الباسط بثلاثة أعوام. ونشر رحلته الأستاذ برانشفيك مع رحلة عبد الباسط في باريس سنة 1936 (ع.ك).
راجع التعليق رقم 6 أعلاه. ولطرافة الفقرات التي اختارها الكعاك من الرحلتين مما تعلق بحفل راس الطابية وبالشاعرين المتنافسين محمد الخير المالقي وأحمد الخلوف فقد استغلهما محمد الطالبي في مقاله : الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين.–في : مجلة الأصالة (الجزائر) ع 26،س1975،ص46–90 وفي : دراسات في تاريخ إفريقية وفي الحضارة الإسلامية في العصر الوسيط.–منشورات الجامعة التونسية، تونس 1982،ص165–213 (انظر خاصة ص 201–204). وأخيرا نشرت رحلة أدورن كاملة :
Itinéraire d'Anselme Adorno en terre sainte (1470 - 1471).-texte édité, traduit et annoté par Jacques Heers et Georgette de Groer, Paris 1978

إتحاف الظّراف في تاريخ الكاف (*)

لقد سألتني أيّها الأخ الكريم أن أحرّر عجالة أبيّن فيها تاريخ مدينة الكاف الزاهرة الغنّاء عاصمة الشمال الغربي التونسي وأذكر تراجم رجالها في العلم والأدب ومختلف ميادين النبوغ، فنزلت عند رغبتك ملبّيا دعوتك.

أ- لمحة تاريخية:

مدينة الكاف اليوم وشقبنارية عند قدماء الجغرافيين العرب وسيكافينيريا عند الرومان وسكوث بنوث عند الفينيقيين مدينة كبرى وقلعة منيعة واقعة فوق جبل الدير في سفح من سفوح مجبلّة كلسيّة تهيمن على فحوص السرس وزنفور والأربس ووادي ملاّق. وهي تبعد بنحو 200 كلم عن تونس العاصمة في الغرب منها.

وموقع الكاف الجغرافي يجعلها تتحكم في جميع الطرق المنصرفة من تونس إلى الجزائر طردا وعكسا، ولهذا كان لها دور من أعظم الأدوار التاريخية في الحروب البونيقية وفي معارك ماسينيسان والرومان وفي فتوحات الوندال والبيزنطيين وفي التاريخ التونسي العربي سواء على عهد العبيديين أو الصنهاجيين أو الحفصيين أو الأتراك.

قلعة الكاف واقعة في مفترق الطرق بين عمالة البروقنصلية (الشمال التونسي) ونوميديا (عمالة قسنطينة) وعمالة جيتوليا (جنوب قسنطينة المعروف عند العرب بالزاب) والوسط التونسي الذي عاصمته القيروان. وبهذه الوضعية الجغرافية نفهم جيدّا الأدوار التي لعبتها الكاف خلال التاريخ التونسي قديما وحديثا. فلننظر نجد سلسلة من الجبال ممتدة على الحدود الجزائرية التونسية من الشمال إلى الجنوب بينها أربع ثغرات: ثغرة طبرقة في الشمال وثغرة ورغة إلى جانب الكاف وثغرة بلزمة إلى جانب تبسّة وثغرة قسطيلية أو الجريد في الجنوب.

(*) نشر في مجلة المباحث، فيفري 1947، ص 3،8،9، أفريل 1947، ص 3،5، ماي 1947، ص 3،4،11.

وحسب اتجاه الحركات أتيح لقلعة الكاف أن تلعب دورا أو أن لا تلعب دورا. وهكذا قامت بدور جليل على عهد الحروب البونيقية لأنّ الطريق الذي سلكته الجنود أو المرتزقة كان من هناك. وقامت بدور على عهد حروب الرومان وملوك البربر لأن الطريق كان من هناك. ولكنّها لم تقم بدور عظيم عند زحفة الوندال لأنّ الطريق الذي سلكته جنود جنسريق القائد الوندالي كان في الشمال من ثغرة بونة (عنّابة) وطبرقة. ولم تقم بدور قوي أيضا في الفتوحات الإسلامية لأنّ منصرف جنود عقبة بن نافع كان على طريق الزاب (جيتوليا القديمة). وقد كان ملوك الأغالبة بالقيروان يخشون هجمات البربر من ثغرة بلزمة فاعتنوا بها علما منهم بأنّ هجمات الكاف آمنة داخلة ضمن تلك المملكة العربية الصميمة. وقد كانوا يرسلون إلى الكاف ولاتهم وقضاتهم حسب شهادة ابن خلدون. وقد كان دور الكاف لا عسكريا وإنّما اجتماعيا واقتصاديا كما سنراه بعد في شيء من التفصيل. لكن أنصار عبد الله الشيعي الداعي إلى الدولة الفاطمية والعبيدية وزعيمها عبيد الله المهدي كان يبثّ دعايته ويجمع أنصاره من بلد كتامة التي هي بلاد القبائل وزواوة المصاقبة للكاف. فوجب أن تقوم الكاف هذه المرّة بدور سياسي خطير. وكذلك كان شأنها على عهد صنهاجة حينما انقسم الزيريون إلى مملكة شرقية عاصمتها القيروان تارة والمهدية أخرى، ومملكة غربية عاصمتها قلعة بني حمّاد في الأول ثم بجاية بعد ذلك. وقد كانت مطامع الصنهاجيين الحمّاديين كثيرة. وقد مدّت أعناقهم إلى امتلاك مدينة تونس، وهنا جاء دور الكاف من جديد.

وضعف شأن الدولة الصنهاجية التونسية بسبب زحفة الأعراب الهلاليين واستيلاء أساطيل النرمان على السواحل فظهر ملوك الطوائف بالمملكة وانتصبت الدويلات الصغيرة على رأس كلّ بلدة عظيمة أو حقيرة. وقد انتصبت دولة الكلاعيين بمدينة الكاف. قال ابن خلدون: «... وكان عيّاد بن نصر الله الكلاعي بقلعة شقبنارية (اسم

الكاف قديما) قد صار إليه جند من أهل الدعار وأوباش القبائل فحماها من الأعراب. واستغاث بها ابن فتاتة شيخ الأربس من الأعراب وسوء ملكتهم فزحف إليهم و أخرجهم من الأربس، وفرض عليهم مالا يؤدّونه إليه إلى أن مات. وولي ابنه من بعده فجرى على سنّته إلى أن دخل في طاعة عبد المؤمن بن علي صاحب الدولة الموحدية وواضع أساس الدولة الحفصية سنة 554 هـ [1159م]» (1)

والرأي عندنا هو أنّ الدولة الكلاعية بالكاف كانت دولة فيصلا بين مطامع الحماديين من بجاية وبين الدولة الخراسانية القائمة بحضرة تونس.

وعندما استوثق الأمر للدولة الحفصية، وكانت مدينة قسنطينة ومدينة بونة (عنابة) ومدينة بجاية من مشمولاتها، كانت القلعة حصنا طبيعيا حائلا بين الثائرين الحفصيين المنتقضين بقسنطينة أو بجاية وبين الدولة الأمّ المرتكزة بحاضرة تونس.

وبانتصاب الحفصيين تحولت اتجاهات التيارات العسكرية والسياسية من المحور : القيروان، بلزمة، الزاب إلى المحور : تونس، الكاف، قسنطينة. ومن أجل ذلك زادت أهميّة الكاف بصورة واضحة. وقد زادت هذه الأهمية وضوحا على عهد الأتراك عند الاحتلال التركي الأولّ ثمّ في مدّة الدولة المرادية ثم في مدّة الدولة الحسينية.

قق- لمحة جنسيّة :

ماهي العناصر الجنسية التي يتألف منها الشعب الكافي المجيد ؟ لا شكّ أن الكاف كانت في أولّ أمرها – أعني منذ ثلاثين قرنا – قلعة بربرية على حاشية بلاد نوميديا وبلاد جيتوليا. فعنصرها الأولّ من البربر الذين هم من عرب جنوب جزيرة العرب، ثمّ صارت مدينة فينيقية عمرّها الفينيقيون الذين هم بنوكنعان في صميم عرب الشمال وسمّوها

---

(1) العبر. وقد تعذر البحث فيه.

سكوث بنوث، ومعنى سكوث « السوق »، وكان ذلك قبيل سنة 241 ق.م. قال سطيفان قزال في كتابه « تاريخ شمال إفريقيا في القديم » : « لمّا انتهت الحرب البونيقية الأولى بين قرطاجنة وروما شجرت حرب أخرى بين قرطاجنة وجندها من المرتزقة وجماهير من رعاياها.

وكانت مدينة سيكا (الكاف) يومئذ بأيدي القرطاجنّيين (سنة 241 ق.م) فأرسلت إليها حكومة قرطاجنّة الجنود المرتزقة الذين اشتدّت غائلتهم فوجب إقصاؤهم عن العاصمة مع تشديد الحراسة عليهم. وقد أنيطت هذه المهمّة بعهدة القائد حنون الذي كان على رأس جنود لوبيا (طرابلس) الخاضعة يومئذ لقرطاجنّة. فأرسل عشرون ألفا من الجنود المرتزقة إلى مدينة الكاف، وهم متركبون من أجناس مختلفة من إيبيريين (قدماء الإسبان) وغاليين (قدماء الفرنسيين) وليغوريين (قدماء الإيطاليين) ويونانيين ولوبيين» (2). وقد انضافت هذه الطوائف إلى البربر وإلى القرطاجنّيين الذين كانوا يعمّرون الكاف. ولكنّ معظمهم رجع فيما بعد إلى قرطاجنة. ولا نعتقد أنّه بقي شيء منهم يعمر الكاف أو يدخل بقسط ما في طبقات العناصر التي يتألف منها الشعب الكافي النبيل.

ويظهر أنّ عدد الرومان الذين كانوا يقطنون الكاف ونواحيها لم يبلغ مبلغا عظيما. وقد اندمج في العناصر البربرية والقرطاجنية ثم العربية فلم تبق منه أيّة ظاهرة من ظواهره ولا أية ميزة جنسية من ميزاته.

ولمّا فتح العرب القطر التونسي وآل الأمر إلى الدولة الأغلبية كانت العناصر العربية التي تسكن الكاف من جند بني هاشم. وقد سكنها أيضا جماعة من عجم الفرس. وكانت القبيلة البربرية الضاربة بتلك الناحية من وزداجة. ولم يذكر اليعقوبي، وهو الجغرافي العربي الوحيد الذي زار تونس على عهد الأغالبة، مدينة الكاف بمسماها العربي القديم « شقبنارية » وإنّما ذكر باجة و الأربس وما بينهما، فكان ما رواه هو ما

---

2) GSELL (Stéphane) : Histoire ancienne de l'Afrique du Nord.- Paris 1913- 1928, 8 vols.

نقلناه عنه. وبلا ريب إنّ مدينة الكاف داخلة في الغاية.

والبربر الضاربون بالكاف وأعمالها في العصور الإسلامية ينتسبون إلى قبيلة هوّارة الكبرى، وأكثر بطونها المستقرة بتلك الناحية من ورغة ومن وزداجة ومن ونيفة. قال ابن خلدون: « ومنهم (أي من هوّارة) بأرض التلول من إفريقية (تونس) مابين تبسّة إلى مرماجنّة إلى باجة ظواعن صاروا في عداد الناجعة من عرب بني سليم في اللغة والزّي وسكنى الخيام وركوب الخيل وكسب الإبل و ممارسة الحروب و إيلاف الرحلتين في الشتاء و الصيف، في تلولهم قد نسوا رطانة البربر و استبدلوا منها بفصاحة العرب» (3). ويتبيّن من كلام ابن خلدون أنّ زحفة الهلاليين كانت من أكبر العوامل في تعريب البربر المرابطين بأعمال الكاف. وهذه ظاهرة اجتماعية و جنسية لها أهمية كبرى. و نحن نعلم أنّ بربر الكاف دخلوا في الإسلام وتعلموا العربية منذ عهد الأغالبة، وأنّ انتسابهم إلى هوّارة يجعل بينهم وبين صنهاجة لحمة نسب وثيقة. وصنهاجة من أكبر العوامل في تعريب البلاد لغة وأدبا، وناهيك ببلاط المعزّ بن باديس الصنهاجي بالقيروان. ولكن لم نعلم على التحقيق هل أنّ وزداجة وورغة وونيفة من بربر عمل الكاف قد نسوا رطانتهم البربرية أم كانوا يشاركون بينها وبين العربية.

وكلام ابن خلدون يفيد أنّهم كانوا يتكلّمون بها حتى جاء العرب الهلاليون وضربوا بجهات الكاف واختلطوا بالبربر فعرّبوهم تعريبا نهائيا. ثمّ إنّ ابن خلدون أخذ يبيّن رئاسة قبائل البربر بجهات الكاف فقال: « وتليهم قبيلة أخرى في الجانب الشرقي منهم يعرفون بقيصر، ورئاستهم من بيت بني هومن، ما بين ولد زعزاع وولد حركات، ومواطنهم بفحص أبّة وما إليها من نواحي الأربس»(4).

هجم بنو هلال على المملكة التونسية سنة 444 هـ [1052م] فكانوا عنصرا عربيا جديدا غذّى الدم العربي وبعث في البربر عناصر حيويّة

(3) العبر. وقد تعذر البحث فيه.
(4) العبر. وقد تعذر البحث فيه.

عربيّة فيّاضة. وقد انتشر بنو رياح وبنو هذيل من العرب بنواحي الكاف فأحيوا عناصر الهاشميين و التميميين و الأنصاريين المرابطة فيها من عهد الفتح، وعلى الخصوص من عهد بني الأغلب، وربطت الصلة من جديد بين العناصر الجنسية الضاربة بالكاف منذ الفتح والعناصر العربية الجديدة فزاد ذلك في تعرّب البربر وحسن إسلامهم كما نقلنا آنفا عن ابن خلدون.

ولمّا سقطت إشبيلية بالأندلس في القرن السابع الهجري [الثالث عشر الميلادي] هاجر جماعة منها إلى تلمسان وإلى تونس،ثمّ سقطت غرناطة وأجلي الأندلسيون سنة 1017 هـ (5) [1608 – 1609م] عن إسبانيا الإسلامية فهاجر سكّانها إلى تلمسان وإلى تونس، وانتشروا في المدن، و أسسوا المداشر و القرى. وقد استقرّت جالية منهم بمدينة الكاف، قصدتها من تونس أو من تستور أو من طبرقة التي كانت المرسى الطبيعي بين تونس والأندلس والتي كانت بها جالية أندلسية قديمة جداً. وتوجد بالكاف أيضا عناصر تركية وإن كانت قليلة العدد (6).

وخلاصة القول هي أنّ الشعب الكافي هو صفوة من علية الشعوب الراقية بالبحر المتوسط، قد أخذت عن البربر حبّ العمل، وعن القرطاجنّيين حبّ الصناعة والتجارة، وعن العرب صفات الشجاعة و الإقدام و الكرم وصفاء القريحة والوفاء بالعهد والنخوة وعزّة النفس، وعن الأندلسيين رقّة الحضارة والتفنّن فيها.

ققق- الأدب الكافي :

إنّ طبيعة الدور الذي قامت به ولا تزال تقوم به مدينة الكاف وطبيعة العناصر السليمة المنتخبة المتكوّن منها ذلك الشعب العربي الصميم عاملان قويّان في تكوين أدب كافيّ صحيح البنية، راجح التفكير، ثريّ العنصر، واسع النطاق.

(5) تعرض هذا التاريخ لخطإ مطبعي فوجب إصلاحه.

(6) عن الهجرة الأندلسية الأخيرة أنظر : الحمروني (أ) : الموريسكيون الأندلسيون في تونس/ دراسة وبيبليوغرافيا.– ميديا كوم، تونس 1998.

وفي نظرنا إنّ هذا الأدب الكافي ينقسم إلى عصرين : العصر الأوّل هو عصر ما قبل الإسلام، و العصر الثاني هو العصرالإسلامي. وعصر الآداب الإسلامية بالكاف فيه أيضا أطوار. منها الأغلبي، ثم الفاطمي، ثم الصنهاجي، ثم الحفصي، ثم التركي. ومصادر العصر الأوّل السابق للإسلام معروفة، يسهل البحث فيها. وأمّا العصر الإسلامي فيحتاج إلى بحث و تنقيب.

ومن رجال العصر الإسلامي صالح الكوّاش الذي نبغ في الصدر الأول من الدولة الحسينية، وجلب من الكاف حماعة تخرّجوا عليه. و منهم أحمد القمّار الكافي، ذكره ابن أبي الضياف. ومنهم محمد السنوسي الكافي. ومنهم أحمد زرّوق. ومنهم أحمد الغماري الكافي. ومنهم نصر الكافي، وغيرهم.

هذه عجالة استطلاعية ومقدمة موجزة عن تاريخ الكاف. وسنوالي معالجة هذا التاريخ في شيء من الإطناب في نشرات مقبلة متتابعة إن شاء الله تعالى.

*****

في دراستنا الأخيرة عن مدينة الكاف بسطنا القول قليلا عن تاريخها في مختلف العصور وعن أهمّ النقاط من ذلك التاريخ، ولكنّنا أوجزنا كلّ الإيجاز فيما يتعلق بتراجم أدباء الكاف و علمائها عامة و من نبغ فيها في مختلف العصور أيضا. وكان من المنطق أن نستأنف الموضوع أوّلا فأوّلا فنطنب في التاريخ حتى نفرغ منه، ثم نطنب في الأدب والفنون والتراجم بقدر ما تسمح به المصادر التي بين أيدينا. ولكنّنا آثرنا أن نتحدث عن الآداب زيادة في الإمتاع والمؤانسة لأنّ الأدب ومعرفة الرجال وتراجم النبغاء أيسر استساغة من التاريخ الجاف.

ونحن بادئون بتاريخ الأدب فيما قبل الإسلام في نشرتنا هذه مرجئين الحديث عن الأدب الكافي الإسلامي في النشرة المقبلة.

1- الأدب اللوبي أو البربري القديم :

إنّ الكاف من تأسيس البربر القدماء في القول المشهور. وقد كان لهؤلاء البربر المعروفين باللوبيين لغة خاصة بهم هي الأصل لهذه اللغة البربرية. وهي من اللغات السامية مثل الفينيقية أو العربية. ووجوه الشبه بينها و بين العربية معروفة قائمة قد درسها الكثيرون من علماءالاشتقاق من عهد دونش بن مرّة القيرواني (7) الباحث اللغوي الكبير إلى الآن. وللبربر اللوبيين خطّ يعرف بهم يسمّى الحرف اللوبي، مشتقّ من الهيروغليفي المصري الفرعوني القديم. وقد عثروا بتونس على أحجار كثيرة منقوشة بالحرف اللوبي، ولكنّنا لا نعلم لحدّ الآن أنّ البعض من هذه المنقوشات اللوبية يوجد بالكاف، كما أنّنا لا نعلم قليلا و لا كثيرا عمّا كان تأثير حركة تجديد الآداب اللوبية التي قام بها ماسينيسان العاهل البربري في فترة الاستقلال التي مرّت بين سقوط قرطاجنّة وانتصاب الحكم الروماني بهذه الديار. وهذه المسائل كلّها محلّ بحث نرجو أن يتوفق إليها أبناء الكاف الأجلاّء.

2- الأدب البونيقي :

اللغة البونيقية أو القرطاجنية هي اللغة الفينيقية المنتشرة بتونس في العهد القرطاجني. وقد تحولت عن أصلها و تبربرت بممارسة السّكان لها. وهي أخت شقيقة للّغة العربية بل هي التي مهّدت السبيل لانتشار العربية بعد الفتح الإسلامي. و كانت للبونيقيين كتابة خاصة بهم، هي من أصول الخط العربي القديم. كانوا ينقشونه على الحجر و يحفرونه في الفخّار الطري. وقد عثر بمدينة الكاف على الكثير من هذه

(7) أبو سهل دونش– ويدعى عند اليهود أدُنيم– بن تميم، وينعت بلقب الشفّلْجي (؟) الإسرائيلي. قدم أوائله من العراق للتجارة في العهد الأغلبي. وولد دونش بالقيروان في أواخر ق 3 هـ/9م فقرأ على كبير الأطباء إسحاق بن سليمان الإسرائيلي حتى برع في الطب و الفلسفة والحساب والفلك، وأتقن العربية إلى جانب العبرية فصار من كبار الأحبار، يستفتى من يهود الأندلس ومصر والعراق. خدم من الأمراء العبيديين إسماعيل المنصور وابنه المعزّ قبل انتقاله إلى القاهرة، وأهداهما عدّة تآليف ذكرها ح.ح. عبد الوهاب في ترجمته له : ورقات.– مكتبة المنار، تونس، ج 1، 1965، ص 297 – 300.

الأحجار المنقوشة. وكان القرطاجنيّون أسّسوا مكتبة كبرى بمدينة قرطاجنّة و بغيرها من المدن، ولكنّ الرومان اللاّتينيين أحرقوا كتبها فلم يعد في وسعنا أن نعلم شيئا عن مكتبة الكاف البونيقية أو عن أدباء الكاف في العصر البونيقي. ولم يبق من آثار الآداب البونيقية إلاّ قطع من كتاب الفلاحة لماغون (8) أو من رحلة عملقون (9) أو من رحلة حنون (10). أمّا البقيّة فقد ضاعت.

3 - الأدب اللاّتيني بالكاف :

انتشرت اللغة اللاّتينية بفضل الاستيلاء الروماني وبفضل ما أسّسه أبناء البلاد من مدارس ابتدائية وثانوية وعليا حتى عمّت المعاهد و مجامع الخطابة ونوادي الآداب والموسيقى والفنون والمسارح والملاعب. وكانت مدينة الكاف حافلة بمدارسها التي كان يتزاحم عليها الناس، وبها مسرحان كبيران لا تزال آثارهما بادية للعيان.

كان علماء الكاف وأدباؤها يستعملون اللغتين المعروفتين في العالم القديم : اللغة اليونانية واللغة اللاّتينية. وقد كانت اللغة اليونانية إلى العلميّات أقرب. وهي أيضا لغة الكنيسة الأولى ولغة الثقافة عند قدماء البربر بنوميديا من عهد الملك البربري المستقلّ يوبا الثاني الذي كان من أكبر كتّابها. وقد عثر بمدينة الكاف على جانب من النقوش الصخرية المحرّرة باللغة اليونانية ورد ذكرها في مجموعة المنقوشات اليونانية (11) بين عدد 5363 وعدد 5366. أمّا اللغة اللاّتينية فهي اللغة

---

(8) انظر عنه : بوذينة (محمد) : تونسيون في تاريخ الحضارات.– منشورات محمد بوذينة، الحمامات/تونس 1998 (ماجون وموسوعته «الفلاحة» : ص 85– 90)..فونتان (جان) : فهرس تاريخي للمؤلفات التونسية.– بيت الحكمة، قرطاج/تونس 1986 ص 10.

(9) انظر عنه : بوذينة : تونسيون... (هاميلكار و احتلال وسط إسبانيا : ص 95 – 107).

(10) انظر عنه : بوذينة : تونسيون... (حنون ورحلته البحرية إلى إفريقيا : ص 91 – 93) : فونتان : فهرس... ص 10.

(11) Corpus des inscriptions latines.-Académie de Vienne, à partir de 1866.

التي سادت فيما بعد والتي استعملها في الغالب معظم الكتّاب الذين نشؤوا بالكاف في عهد الاستيلاء الروماني، على أنّ البعض منهم كان ينقل أمّهات الكتب اليونانية إلى اللاّتينية مثلما فعل الطبيب الكافي الشهير سيليوس أوريليانوس الذي ستأتي ترجمة حياته بعد. وكان الكتّاب يتردّدون بين اللغتين، لكن لمّا رأوا الشعب يحسن اللاّتينية ولا يعرف اليونانية منه إلاّ القليل لجؤوا إلى الأولى.

وقد انتشرت ديار الكتب، لا سيما في الكنائس، فلم تكن كنيسة لتخلو من مكتبة تشتمل على الإنجيل وعلى الكتب الدينية و تصانيف المناقشات المذهبية. قال بول مونصو في كتابه « تاريخ الآداب اللاّتينية بإفريقيا» (ج3، ص 17) (12) : « ويجب أن يضاف إلى هذه المخازن والقاعات الموجودة بالكنائس ما يوجد بها من خزائن الكتب، فإنّ مخطوطات الإنجيل كانت كثيرة العدد جداً بالديار الإفريقية. ولمّا أصدر الإمبراطور الروماني ذيوقليسيانوس أمره باضطهاد النصارى وحرق كنائسهم تكالب الولاة المكلّفون بتطبيق أمر ذيوقليسيانوس على الكتب المقدسة وأحرقوا منها جمهرة عظيمة لا سيما ببلاد نوميديا، ولم يعثروا بكنيسة قرطة (قسنطينة) إلاّ على مخطوط واحد، ولكنّ الوالي المكلف عثر على أربع نسخ عند قارئ وعلى خمس نسخ عند قارئ غيره وثمان عند ثالث وسبع عند رابع وستّ عند خامس وستّ عند سادس. وكانت بعض الكنائس تحتوي- علاوة عن الإنجيل- على مصنّفات أخرى مختلفة الأنواع، دينية أو غير دينية، فعثروا بكنيسة كالاما() على كتب طبية. ولإيواء هذا العدد العديد من المخطوطات قد بنوا بملحقات الكنائس مكاتب حقيقية مزوّدة بالكتب (13)». وكان هذا الشأن بمدينة الكاف، فقد كانت كنائسها عامرة بخزائن الكتب ممّا ألّف أبناؤها أو غير أبنائها. وقد كان من عادة

---

(12) Monceaux (Paul) : Histoire littéraire de l'Afrique chrétienne depuis les origines jusqu'à l'invasion arabe.-Leroux,Paris 1901 - 1923, 7 tomes ; Réimp. Bruxelles 1966.

(13) في المطبوع خطأ : مزوّدة بالكنائس.

المسلمين لمّا ظهر الإسلام وانتشر وأسّست الجوامع أن يلحقوا بكلّ جامع مكتبة تشتمل على القرآن الكريم و الحديث الشريف و كتب الفقه واللغة والتاريخ والآداب وغيرها، وقد ألحقوا أيضا خزائن كتب بالزوايا والخانقاهات والمدارس ممّا سنراه بعد تفصيلا عند الحديث عنه.

مشاهير أدباء الكاف :

ليست هذه التجريدة التي سنوردها قائمة كاملة لعلماء الكاف وأدبائه وشعرائه في عصر الاحتلال اللاّتيني وإنّما ذكرنا فيها المشاهير فقط تاركين لغيرنا من أبناء الكاف أنّ يهبّوا لدراسة هذا الجانب من الأدب القومي.

- أرنوبيوس :

ولد بمدينة الكاف ونشأ بها في القرن الثالث المسيحي. وكان يدرّس علمي البلاغة اللاّتينية واليونانية بمدارس الكاف. وهناك قد تتلمذ له أديب آخر من أدباء الكاف يدعى لاكتانسيوس (14). وقد ذكر عنه مترجموه أنه كان بلاغيا عظيم الصيت وخطيبا نابه الذكر، وأنه قد نال نجاحا يفوق التصوّر. وهذا يفسرّ لنا إقبال الشباب الكافي وغير الكافي على دروسه العالية المحشوّة بالنفع الجزيل. كان أرنوبيوس وافر الاطلاع على الآداب اليونانية واللاّتينية، وكان محبّا لمدينة أثينة عاصمة العلم في القديم لمن أنجبتهم من الفلاسفة والعلماء و لما كانت تحويه من آيات الفن البديع المشعّ بأنواره على العالم القديم. وقد كان يمتاز بولوعه الشديد بالتمثيل، فطالما كان يحضر بمسرحيْ الكاف تمثيل مسرحيات سوفوكلس وأوريبيدس وبلاوطس من كبار المؤلفين المسرحيين اليونانيين واللاتينيين، كما درس العلوم الفلسفية وبحث في الأديان فسمحت له هذه المعارف الغزيرة المتنوعة بأن يغذي

---

(14) لاكتانسيوس (Lactantius) من تلامذة أرنوبيوس بالكاف. هاجر إلى آسيا الصغرى وأصبح مربيّا لأولاد الإمبراطور قسطنطين (Constantinus) ألّف : مخلوقات الخالق (De opificio dei) والأعمال الإلهيّة (Divinae institutiones) ومختصره (Epitome institutionum) وغضب الله (De ira Dei) ونهاية المضطهدين (De mortibus persecutorum) انظر عنه : فونتان : فهرس... ص 28– 29.

دروسه بمادة ثرية ملوّنة. وممّا حببّه إلى أبناء بلدته أنّه كان قويّ النزعة الوطنية، شديد الحبّ لمسقط رأسه، يبين محاسنه ويتغذّى بمباهجه، فإذا تحدث عن الخيرات أشاد بذكر مزارع الكاف وبساتينها وكرومها، وإذا تحدث عن الآفات أطال الكلام عمّا كان يصيب الكاف من جراد وجفاف. وكان يكره رومة واللاّتينيين بصفة عامة حتى ختم بعض كتبه بقوله: « إنّ رومة قد خلقت لهلاك الجنس البشري.»

وقد ألّف أرنوبيوس كتبا كثيرة عديدة لا يزال معظمها موجودا، وليس هنا ما يدعونا لذكرها لأنها تتعلق بالبحوث الدينية الرائجة في ذلك العصر، على أنّ بعض كتبه فلسفيّ بحت لانزعة فيه للوثنية أو للنصرانية الرائجتين في ذلك العصر السابق للإسلام بثلاثة قرون. وهو قد سبق الفيلسوف الفرنسي بسكال في منهاجه الأخلاقي و الفلسفي. والمقارنة بينهما سهلة مع وجوب الأفضلية والأسبقية لذلك الفيلسوف الكافي الشهير (انظر: بول مونصو: تاريخ الآداب اللاّتينية بإفريقيا، ج3، ص 241 وما بعدها)(15).

- سيليوس أورليانوس:

طبيب من أشهر أطبّاء العصور القديمة بالمملكة التونسية. ولد بمدينة الكاف في القرن الخامس بعد المسيح وعاش برومة الكبرى ونال صيتا عظيما في علم الطبّ. وله مؤلفات صنّفها باللغة اللاّتينية أشهرها كتاب « علم التوليد ». وهو ترجمة للكتاب الذي وضعه في نفس الموضوع الطبيب اليوناني سبرنوس. نقله من اليونانية إلى اللاّتينية وأضاف إليه كثيرا مع تنقيحات وتصويبات. وله أيضا كتاب «الأمراض الحادة والمزمنة». ومجموع تآليف سيليوس الكافي يلخّص لنا مذهبا طبّيا من أشهر المذاهب عند قدماء اليونانيين والرومان. وهو المعروف بالمدرسة الطبية المنهاجية المتولدة من مذهب الفلاسفة الإيبيقوريين الذين يدينون باللّذّة.

---

(15) انظر عنه أيضا: فونتان: فهرس... ص 28، وفيه أنّه اعتنق المسيحية سنة 296م، وتوفّي سنة 327م. ألّف« الردّ على أهل الشرك» (Adversus nationes).

- فورتوناسيانوس :

وهو من أبناء مدينة الكاف أيضا في أواخر العصر الروماني. ولد بمدينة الكاف في أواسط القرن الرابع بعد الميلاد، وتعلّم بها حتى نبغ في الآداب اليونانية واللاّتينية وانخرط في سلك رجال الدين حتّى صار أكبر كهنوت الكاف. وقد كانت بينه وبين القدّيس أوغوستينس البوني مراسلات ذكرها هذا الأخير في رسائله. وكانت الكنيسة الرومانية يومئذ منقسمة إلى قسمين : قسم الكاثوليكيين التابعين للقديس أوغوستينس البوني، وقسم المشاقّين الدوناتيين التابعين لدوناتوسا الهرطيقي. وقد حمت نار الوطيس بين الطرفين وآلت إلى فتنة كبرى اندلع لهيبها بالبلاد المغربية قاطبة. وكان فورتوناسيانوس من أشدّ خصوم شيعة الدوناتيين، قاومهم أشدّ المقاومة برسائله وخطبه حتّى لم يعد أيّ دوناتي بكامل المنطقة التابعة له. وقد شارك في عدّة مجامع ومؤتمرات. وكان من أهمّ الشخصيّات النابهة في ذلك العصر (انظر عنه بول مونصو، ج7، ص 45 و مابعدها).

هذه خلاصة عن الأدب الكافي في عامة عصوره قبل الإسلام (16). وهي عبرة لمن اعتبر. وسندرس تاريخ الأدب الإسلامي بالكاف في نشرتنا المقبلة إن شاء الله تعالى.

4- الأدب الكافي الإسلامي :

إذا كان الأدب الكافي الجاهلي لا يعدّ إلاّ بضعة أفراد فإنّ الأدب الإسلامي يعدّ من أيمة العلوم الإسلامية والآداب العربية جماعة عظيمة كمّا وكيفا. وذلك لأنّ الإسلام يجبّ (17) ما قبله، ولأنّ الإسلام حضارة ثقافية علمية مستقلة بذاتها في كل قطر من الأقطار، وفي كل مدينة من

---

(16) يمكن أن نضيف إلى الأعلام المذكورين أصيلي جهة الكاف ماكروبيوس (Macrobius) الذي تولّى شؤون قرطاج فإسبانيا سنة 399 – 400م، وكان سنة 422م حاجبا أوّلا بروما. ألّف : حلم سيبيو (Somnium Scipionis) ومحادثات عيد ساتورنوس (Saturnalia) وهو كتاب موسوعي تعليمي. انظر عنه : فونتان : فهرس ... ص 30 – 31.

(17) يستأصل.

كلّ قطر. يتّضح لنا هذا المظهر في ثلاثة أمور : أولّها تأسيس المدارس وحلقات الدروس وإقبال الطلبة عليها منذ عهد الدولة الأغلبية إلى الآن. وثانيها تأسيس ديار الكتب إلى جانب كلّ جامع وإلى جانب كلّ زاوية وفي ديار الخاصّة من رجال الرئاسة السياسية أو العلميّة (18). وثالثها ذلك العدد العديد من كبار العلماء و الأدباء. وتاريخ الأدب الكافي الإسلامي ينقسم إلى خمسة عصور كبرى :

أ- **العصر الأغلبي :** من سنة 180 هـ [796م] إلى سنة 300هـ [912م]. وهو عصر حافل بالعلماء في كلّ مكان لكنّنا لم نعثر- من سوء الحظّ - على أي أديب كافيّ في هذا العصر، وذلك لأنّ أمّهات الكتب الباحثة في هذا الموضوع مفقودة لدينا، وأخصّها « المدارك» للقاضي عياض(19) «ورياض النفوس» لابن [كذا] المالكي (20)، فأرجأنا البحث في هذا الموضوع إلى أن نستكمل المواد التي تتحدث عنه.

ب - **العصر الفاطمي :** وهو يشمل كامل القرن الرابع [العاشر الميلادي] بداية ونهاية، وتعوزنا فيه أيضا بعض المراجع. والأمانة العلمية تحملنا على أن نرجئ هذا المبحث إلى ما بعد عندما يطبع « تاريخ الدولة» لابن الجزّار (21) و« أخبار الدولة» لأبي حنيفة القيرواني (22).

---

(18) في المقال المنشور «العامية» نسبة إلى العامّة من المجتمع، والأنسب «العلمية» نسبة إلى العلم كما أصلحنها.

(19) ترتيب المدارك وتقريب المسالك بمعرفة أعلام مذهب مالك. استخرج منه محمد الطالبي « تراجم أغلبية».- نشر الجامعة التونسية، تونس 1968. وفيه وصف لمخطوطات « المدارك» (ص 5-6 عربي، ص 43- 49 فرنسي) وترجمة للقاضي عياض ودراسة« للمدارك» (ص 5-42 فرنسي) وليس فيه علم من شقبنارية أو الكاف، إنما ذكرت الأربس عندما تولاّها عبدالله بن أبي حسان اليحصبي (ص 71) ثمّ سليمان بن عمران (ص102).

(20) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهّادهم وعبّادهم ونسّاكهم ويسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم لأبي بكر المالكي.- تحـ. حسين مؤنس، القاهرة 1951، تحـ. البشير البكوش ومحمد العروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983.

(21) أبو جعفر أحمد بن إبراهيم المشهور بابن الجزّار (285 هـ/ 895م - 369 هـ/ 979م). طبيب ابن أسرة من الأطباء. ألّف في الطب : زاد المسافر وتحفة القادم، طب المشائخ، طبّ الفقراء، الاعتماد في الأدوية المفردة ، سياسة الصبيان وتدبيرهم... و ألّف في التاريخ كتابا في تاريخ الدولة العبيدية، وهو مفقود. انظر : بوذينة : تونسيّون... ص 409 - 425 [أحمد بن الجزار وكتابه « زاد المسافر»] نقلا عن ابن ميلاد (أحمد) : تاريخ الطب العربي التونسي.- تونس 1980.

(22) يقصد أبا حنيفة النعمان بن محمد (ت 363 هـ/974م) قاضي قضاة الفاطميين ومنظّر مذهبهم ومؤرّخ أخبارهم في كتبه : افتتاح الدعوة وابتداء الدولة. -تحـ. وداد القاضي، بيروت 1970، تحـ. فرحات الدشراوي، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1975م، المجالس والمسايرات.- تحـ.محمد اليعلاوي وإبراهيم شبوح والحبيب الفقي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية،تونس 1978، كتاب الهمة وآداب اتباع الأئمة.- تحـ. كامل حسين، القاهرة، د.ت، دعائم الإسلام.- نشر فيزي (Fyzee)القاهرة 1370 هـ/ 1951م... إلخ. انظر عنه : فونتان : فهرس... ص 54 - 55.

ج- العصر الصنهاجي : من القرن الخامس إلى السادس [الحادي عشر إلى الثاني عشر الميلاديين]. أعظم كتاب يبحث في هذا العصر هو « أنموذج» ابن رشيق. فإذا طبع هذا الكتاب (23) – الذي يوجد بالهند – رجونا أن نجد به جمهرة من أدباء الكاف.

د- العصر الحفصي : من القرن السابع إلى العاشر [الثالث عشر إلى السادس عشر الميلاديين] بدخول الغاية. وفيه ظهرت جماعة من علماء الكاف، لكنّنا لم نستوف تراجمهم من جميع المصادر فأخّرنا البحث عنهم إلى أجل.

هـ- العصر التركي بقسميه المرادي و الحسيني : وهو العصر الذي نتوسع فيه هنا بعض التوسع. لقد كانت النهضة العلمية المرادية ثم الحسينية تشمل جميع جهات القطر التونسي. وقد كانت مدينة الكاف في الطليعة. فقد كان الجامع الكبير عامرا بدروسه. وقد أسس محمد باي المرادي مدرسة كبرى بالكاف. ثمّ لمّا جاءت الدولة الحسينية اعتنى المولى حسين بن علي بهذه المدرسة. «... وممّا اشتمل عليه نظره السديد وهمّته العالية نظره في مدرسة المرحوم محمد باي التي بقلعة الكاف وإحياء أحباسها وأوقافها» (انظر : ذيل بشائر أهل الإيمان، ص 49) (24) فظهرت بذلك نهضة علمية كبرى، إليك بعض أساطينها (25) :

- محمد بن صالح :

قال حسين خوجة في « ذيل بشائر أهل الإيمان» (ص 55) (26) :

---

(23) أنموذج الزمان في شعراء القيروان.– تحـ. زين العابدين السنوسي، دار المغرب العربي، تونس 1971 في 144 ص اعتمادا على "الوافي بالوفيات" لأنّ « الأنموذج» مفقود. ولذلك جمعت نقول المصادر المتأخرة عنه بتحقيق محمد العروسي المطوي والبشير البكوش، تونس 1986، فهذا أكمل من الأولّ. انظر عنه بويحيى (الشاذلي) : الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري.– تعـ.م.ع. عبد الرزاق، بيت الحكمة، تونس 1999، ص 191 – 211 (في الطبعة الأصلية بالفرنسية، تونس 1972، ص 104 – 116)، محفوظ : تراجم... 2/350 – 355، فونتان : فهرس... ص 65 –66.

(24) توافق ص 144 من تحـ. الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، تونس 1975.

(25) للمقارنة والاستزادة انظر : كرّو (أبو القاسم محمد) : أعلام من ربوع الكاف. – في : أعمال الدورة السادسة لملتقى يوغرطة حول مظاهر الحضارة في تونس، الدار التونسية للنشر، تونس 1984، ص 41– 60 وفي : حصاد العمر. – دار المغرب العربي، تونس 1998، م 4 (مدن وأعلام : ص 25– 45) وانظر كذلك المصادر و المراجع القادمة الذكر.

(26) توافق ص 150 – 151 من تحـ. المعموري.

«ومن علماء إفريقية أيضا العالم الفاضل الشيخ محمد بن صالح – وبه عرف – وهو في نفس الأمر رجل صالح، تزايد ببلد الكاف من عمل إفريقية، وقرأ في مبادئ أمره على [بياض في الأصل بقدر كلمتين]. وله ملكة في الفقه والتوحيد. وأفاد وأجاد. وله ولوع برسالة ابن أبي زيد في مذهب الإمام مالك، رضي الله عنه . وله عليها شرحان : مطوّل ومختصر. وله شرح على مختصر الشيخ خليل. تعاطى الفتيا ببلده، واستفاد منه خلق.» كان بالحياة (27) في القرن الثاني عشر [الثامن عشر الميلادي].

- صالح الكوّاش :

قال ابن أبي الضياف : « سمعنا ترجمة هذا العالم ممّن لا ينقطع بهم عمله، وهم تلامذته الذين أدركناهم كبركة العصر أبي إسحاق إبراهيم الرياحي والعالم الراوية أبي الفداء القاضي إسماعيل التميمي وغيرهما من تلاميذه، ومحصّلها أنّ هذا الشيخ أصله من الكاف. وسبب هذا اللقب أنّ والده كان يحترف بكوشة قرب سيدي المشرف بتونس، فولد ابنه هذا على ما قال ابنه في ربيع الأوّل من سنة 1137 هـ [1724م] وحفظ القرآن وأخذ العلم عن أعلام ذلك العصر كأبي عبد الله محمد الغرياني وأبي الحسن سيدي عبد الكبير الشريف و القاضي أبي محمد حمودة الريكلي الأندلسي وأبي العباس أحمد اللعلاعي وأبي عبد الله محمد بن حسن بيرم وغيرهم.» (28) وزاد الشيخ مخلوف في «شجرة النور» (29) : « ... والشيخ قاسم المحجوب والشيخ محمد المنصوري شارح مختصر خليل في 14 جزءا والشيخ عبد الله الغدامسي. واجتمع في طرابلس بالشيخ التاودي، وختم عليه «الشفاء». وانتفع به الناس انتفاعا بقي أثره وشاع خبره في العلوم المعقولة والمنقولة، وصار مناخ رحال الطالبين ووجهة السائلين، فتوجّهت تلقاء مدينته الأطماع،

(27) أي على قيد الحياة.

(28) الإتحاف... – تونس 1964، ج 7، ص 44 – 46.

(29) سيذكر الصفحة فيما بعد، وهي 365.

وامتلأت بحديثه الأسماع، وما على الصبح غطاء ولا على الشمس قناع. ثمّ خرج من الحاضرة تحت جناح الاختفاء من زاوية الولي سيدي منصور بن جردان فرارا من سطوة الباي علي باشا بن محمد المتقدم خبره لأنّه توسّم فيه الميل لبني عمّه، وهم إذ ذاك بالجزائر، فتوجّه لطرابلس، ومنها لإزمير، ومنها لإسلامبول (30)، ونال بها الحظوة و الشهرة في تلك المدينة. ونزل في قلب شيخ الإسلام وداره بالمكانة المكينة، وجرت بينهما محادثات يطول ذكرها. وطلب منه أن يشرح « الصلاة المشيشية» فشرحها شرحا أعجب له أهل القسطنطينية. ورام الإقامة بها لما لاقى من الثروة والإقبال والتعظيم، كما هي عادة تلك الحاضرة – عمّرها الله – مع أهل العلم. ثمّ كاتبه أبو عبد الله محمد الرشيد باي بن حسين، وطلب منه القدوم إلى تونس، و أكّد عليه – وحبّ الوطن من الإيمان – فقدم فقبله أحسن قبول بما يجب لمقامه العلمي. ثم إنّ الشيخ اتّهم بمقال سوء في جانب الباشا علي الحسيني فنفاه إلى منزل تميم، وبقي بها شهرا. ثمّ سرّحه وأمر أن يؤتى به إليه قبل الوصول لداره فجيء به إليه معظّما مكرّما. فقام له، وأجلسه حذوه، وخلع عليه، وحباه، وبات عنده، وآكله، وباسطه إلى أن قال له : « أيّها الشيخ، أطلب منك أن تسامحني. فقال له الشيخ : « لا. والموقف بين يدي الله». فاعتذر الباي بأنّ أناسا بلّغوا إليه ما غيّره وحرّك غضبه. فقال له الشيخ : « العذر أقبح من الذنب لأنّ الله ولاّك أمرنا فتسمع فينا الأقاويل و تعاقبنا قبل سماع جوابنا والله يقول« يا أيّها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبيّنوا أنّ تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين» (31). ولم يزل الباي يلاطفه ويعتذر له إلى أن سامحه في تلك الليلة. ومن عفا و أصلح فأجره على الله (32).

(30) هي إسطنبول عاصمة الخلافة العثمانية.
(31) الحجرات : 6.
(32) الشورى : 40.

كان هذا الشيخ نادرة الدهر في الحفظ وثقوب الفكر والفصاحة والأجوبة المسكتة وثبات الجأش في تغيير المنكر، لا يخشى في الله لومة لائم.»

وقال في ترجمته الشيخ مخلوف (شجرة النور، ص 365) : « أبو الفلاح صالح بن حسين الكوّاش الفقيه الإمام شيخ الشيوخ وعمدة أهل التحقيق والرسوخ، نادرة الدهر في الحفظ وثقوب الفكر، الأستاذ العالم الذي لا تأخذه في الله لومة لائم... وعنه أخذ الشيخ إسماعيل التميمي والشيخ إبراهيم الرياحي وأحمد زرّوق الكافي وأخوه السنوسي والشيخ حسن الهدّة السوسي...»

وكان صالح الكواش شاعرا، يوجد معظم شعره في « التاريخ الباشي» (33) في مواضع متفرّقة. وهو شعر نفيس جداً. وله من التآليف : شرح الصلاة المشيّشيّة، شرح قصيدة محمد الرشيد باي القافيّة يوجد في بعض المكاتب (34) الخاصة، كتاب في تاريخ تونس منسوب إليه يوجد بدار الكتب العربية بالعطارين (35).

توفّي عشية يوم الإثنين، ودفن صبيحة يوم الأربعاء 19 شوال 1218 هـ [1803م] وقبره معروف بجبل الزلاج قرب الإمام ابن عرفة. وقد رثاه كثير من الشعراء. منهم مرثية تلميذه وبلديّه (36) أحمد زرّوق الكافي. وبيت التاريخ منها : [الطويل]

وقال الورى قد مات علاّمة الورى فأرّخ : يموت العلم إن مات صالحُ (37)

---

(33) هو الكتاب الباشي لحمودة بن عبد العزيز (ت 1202 هـ/1788م) حققّه محمد ماضور.– الدار التونسية للنشر، تونس 1970 في 420ص. وهو في تاريخ علي باشا بن حسين بن علي الذي كان بايا من 1752 إلى 1782م.

(34) أي المكتبات.

(35) هي دار الكتب أو المكتبة الوطنية.

(36) ابن بلده، وهو الكاف.

(37) مطلعها : لمثلك من خطب تنوح النوائح * وترتاع في أغمادهنّ الصفائح

وهي منقوشة على شاهد قبره ومنشورة في : النيفر (محمد) : عنوان الأريب... – تونس 1351 هـ/1932م، ج2، ص83 – 85، ط. دار الغرب الإسلامي بتذييل واستدراك علي النيفر، بيروت 1996، ج1،ص684 في ترجمة أحمد زروق، وفي : مسامرات الظريف 256/1، وفي : بوذينة (م.) مراثي المشاهير.– الحمامات/تونس 1994 ص 109 – 110، وبهامشها ترجمة صالح الكواش. وترجمته كذلك في : محفوظ : تراجم... 181/4 – 185 وفي : مسامرات الظريف لمحمد بن عثمان السنوسي.– تحـ.م.ش. النيفر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1994، ج1،ص254 – 256 مع المرثية، وفي : عنوان الأريب... – بيروت، 1996، ج1، ص635 – 639 مع نتف من شعره.

- أبو الفلاح نصر الكافي :

أصل هذا الشيخ من مدينة الكاف، وقد هاجر لطلب العلم بتونس فأخذ عن أعلامها، واختصّ بالشيخ صالح الكوّاش فانتفع به. وتصدّر للتدريس بالجامع الأعظم، وانتفع به جمّ غفير لاسيما في الفقه المالكي. وكان فقيها حافظا عالما خيرّا تقيّا سائرا على قدم شيخه، نزيه النفس عالي الهمة، بعيدا عن التصنّع، غرّا في أمور دنياه. وسافر لأداء الفريضة، وحاضر أعلام الأزهر، ثمّ رجع إلى تونس فلم يزل على حاله مستورا متمسكا بخلاله إلى أن توفّي سنة 1240 هـ [1824م] (تراجم ابن أبي الضياف في الإتحاف، ج 7، ص 128) (38).

- محمد السنوسي الكافي :

نشأ هذا الفاضل في طلب العلم، وجدّ في تحصيله، وأخذ عن أعيان كالشيخ الشحمي والشيخ الغرياني، ولازم الشيخ صالح الكوّاش فانتفع به. وتقدم للتدريس والخطط العلمية. وتقدم لخطّة القضاء في بنزرت ثمّ إلى الخطّة نفسها في باردو، وانتقل منها إلى الحاضرة، فسار في الخطّة سيرة أهل الفضل من قضاة العهد. وكان عالما فقيها ثابتا واسع الاطلاع، عفيفا شديد المراقبة لربّه، قريبا من الزهّاد، نقيّ العرض حسن الأخلاق، عظيم الصبر، جميل المحاضرة، أديبا ناظما، متواضعا متحببّا إلى الناس. وله رجز في الأحكام أطول من نظم ابن عاصم، وهو خاص بالأحكام الجاري بها العمل بتونس سماّه« لقط الدّرر» (39)، وقال الشيخ مخلوف : «... عالمها وقاضيها العادل الفقيه الحافظ للمسائل العلاّمة الفاضل. أخذ عن أخيه أحمد زرّوق الكافي و الشيخ الكواش، إلخ...» (40)

وتوفّي في أواخر شعبان سنة 1255 هـ [1839م]. ترجم له ابن أبي

---

(38) الإتحاف... – تونس 1964، ج7، ص 140.

(39) النقل عن الإتحاف... – تونس 1964، ج8، ص 41 كما سيشير فيما بعد.

(40) شجرة النور الزكية... ص 386.

الضياف والشيخ مخلوف، وعليهما اعتمدنا (41). وهو الجدّ الأعلى لصديقنا الكاتب البحّاثة والمؤرخ الأديب والمجاهد الوطني زين العابدين السنوسي – حفظه الله – وهو زين العابدين بن محمد بن عثمان بن محمد السنوسي.

- أحمد زرّوق السنوسي الكافي :

ولد بالكاف، ولمّا بلغ سنّ طلب العلم وفد إلى الحاضرة فقرأ على أعلام جامع الزيتونة. وكان له مزيد اختصاص بالشيخ صالح الكوّاش، فحصّل وبرع، ثمّ تصدر للإقراء بجامع الزيتونة برهة، ثمّ اشتغل بالشهادة طلبا للرزق. ومع ذلك لا يزال معروفا بين أقرانه بالعلم، خصوصا بالفقه و الفرائض، فقدّم لخطّة قاضي المحلّة فزانها. وكان ذا مروءة و أخلاق جميلة. وله في الآداب القدح المعلّى، ودرّ الأشعار التي بها الزمان تحلّى (42). وقال الشيخ مخلوف : « قاضي الجماعة أبو العباس أحمد زرّوق السنوسي الكافي ، العلاّمة المتفنّن، الفاضل، الفقيه، العمدة، المحقّق، الكامل...» (43) وقد توفّي سنة 1246 هـ [1830م](44).

ترجم له الشيخ مخلوف في « شجرة النور» والشيخ محمد النيفر في «عنوان الأريب» (45). ومن شعره مرثيّته الكبرى في الشيخ صالح الكوّاش التي منها : [الطويل]

لمثلك من خَطْبٍ تنوح النوائحُ ... وترتاع في أغماد هنّ الصفائحُ

أريقت له دون الدموع دماؤنا ... وشقّت به دون الجيوب الجوارح

---

(41) انظر أيضا : محفوظ : تراجم... 3/71–72. وقبله وبعده ترجمتان لعلمين من العائلة نفسها، وهما زين العابدين (1901 – 1965 م) ومحمد بن عثمان (1850 – 1900م)، النيفر : عنوان الأريب... – بيروت 1996، ج2، ص 707– 717 حيث ترجمته ونتف من شعره ونثره. واستفاض في ذلك حفيده محمد بن عثمان السنوسي في « مسامرات الظريف»... – بيروت 1994، ج3، ص 100 – 116.

(42) النقل عن « الإتحاف»... – تونس 1964، ج7، ص 158.

(43) في « شجرة النور...».

(44) ذاك تاريخ وفاته حسب ابن أبي الضياف. والصواب 1248 هـ/ 1832م حسب محمد بن عثمان السنوسي (المسامرات 4/36–37).

(45) ط. بيروت 1996، ج1، ص 684. كما ترجم له محمد بن عثمان السنوسي في « مسامرات الظريف... » بيروت 1994، ج4،ص 37.

إلى آخر القصيد (46). وله فيه مرثية أخرى منها : [البسيط]

أَحادثَ الدهر ما أحدثتَ في أممٍ قبلي وبعدي كهذا الحادث العَمَمِ
خطبٌ له ارتجّت الأقطار قاطبة أجرى الدموع دما من أعين الدّيم

إلى آخرها، وهي طويلة، كلّها عيون (47).

- **أحمد بن حسين القمّار الكافي :**

« هو أبو العباس أحمد بن حسين القمار (48) الكافي، من أعيان بيوت الكاف. كان أهله يتداولون خطط الأعمال (49) والسياسة، ونجب منهم أفراد. ونشأ هذا الشيخ بين يدي أبيه في ظلّ بيته النبيه، فحفظ القرآن بالكاف. وتاقت همّته العليّة في التخلّق بالصفات العلمية فعزم على الرحيل من مسقط رأسه و معاهد إيناسه. ووافقه على ذلك والده، وارتحل معه بأهله، وسكن دارا بتونس للقيام بضروريات ابنه الذي اختار السكنى مع المهاجرين في طلب العلم فسكن المدرسة السليمانية. واختصّ بشيخها الطاهر بن مسعود، وقرأ عليه النحو و الفقه و المنطق والبيان و الأصول، وبلغ إلى درجة التحصيل، مع ما فيه من الذكاء الأصيل. ولمّا توفّي الشيخ الطاهر بن مسعود انتقل إلى مدرسة صاحب الطابع بجامعه، ولازم شيخنا المحقق أبا إسحاق إبراهيم الرياحي، وقرأ عليه تفسير القاضي البيضاوي وصحيح البخاري بشرح القسطلاني و مختصر خليل. وقرأ على شيخنا المحقق أبي العباس أحمد الأبّي مختصر السعد البياني وغالب شرح المحلّي لجمع الجوامع. ولمّا امتلأ بالعلوم العقلية والنقلية حوضه، وأثمر روضه طلب منه شيخنا أبو إسحاق إبراهيم الرياحي أن يقرئ ابنه الشيخ الطيب النحو وغيره، وكان يعرف منزلته ويشهد له بالتقدم، فامتثل لأمر شيخه...

---

(46) نفس المرجع والصفحة.

(47) نفس المرجع، ص 685– 687.

(48) في المقال المنشور : «الغماري»، وهو تصحيف مكرّر.

(49) جمع «عمل» بمعنى ولاية، فالعامل هو الوالي في اصطلاحنا اليوم.

ثمّ ناداه الوطن، وعزّ على شيخنا سيدي إبراهيم الرياحي خروج مثله من الحاضرة. ثمّ تسبّب له شيخنا محمد البحري بن عبد الستّار، وهو يومئذ قاضي الجماعة، بخطّة القضاء بالكاف فتحمّلها على كره، وذلك سنة 1248 هـ [1832م]. وأقام في الخطّة كما يجب عليه نقيّ العرض، مشكور السيرة، لا تأخذه في الله لومة لائم. ونقل بيته من الرئاسة العرفية إلى الرئاسة الشرعية إلى أن توفّي شيخنا عالم الملّة أبو إسحاق إبراهيم الرياحي على عهد المشير أبي العباس أحمد باي الثاني (في رمضان سنة 1266 هـ [1850م]) فقال :«لا يسدّ هذا الثّلم إلاّ مثل الشيخ أحمد بن حسين الكافي». فاستقدمه من الكاف وأولاه خطط شيخه عدا إمامة الجامع الأعظم، وذلك في شوّال من سنة 1266 هـ [1850م]. وتقدّم على كره، وصعب عليه فراق وطنه ومسقط رأسه. وقام بالخطّة أوفى قيام، وأقبل على التدريس بجامع صاحب الطابع فأفاد و أجاد، ونفع الله به العباد. وكان تقيّاً، نقيّاً، إماما في المعقول والمنقول، نزيه النفس، عالي الهمّة، وقور المجلس، يغلب عليه الصمت وحبّ الانفراد» (50).

وقال الشيخ مخلوف : « الإمام التقيّ العلاّمة، الفقيه النبيه الزكيّ الفهّامة، خاتمة المحقّقين والعلماء العاملين (51)».

وقد ترك تآليف جليلة، منها : تقارير علي شرح التاودي على التحفة، وعلى شرح الدردير علي المختصر. وتوفّي ليلة الإثنين غرّة شعبان سنة 1285 هـ [1868م] ودفن بتربة أعدّها لنفسه بدرب عسّال (52) قرب داره. وحضر جنازته أمير العصر و الوزراء والأعيان. رحمه الله تعالى. (للبحث صلة) (53)

---

(50) النقل عن « الإتحاف...».– تونس 1964، ج8، ص 171 – 173 حيث ترجمته، وكذلك في : شجرة النور، ج1، ص 392 – 393، مسامرات الظريف، ج2، ص 234 – 239، محفوظ : تراجم... ج4، ص 115 – 117 وفيه خطأ في التاريخ الميلادي للولاة و الوفاة.

(51) في المقال المنشور : العالمين، وهو خطأ مطبعي يستوجب الإصلاح لعادة اقتران العلم بالعمل. والنقل عن محمد مخلوف من «شجرة النور» حسب إشارتنا في التعليق السابق.

(52) هو باب العسل.

(53) لم تنشر.

أطفـال تـونس وألعـابهـم (*)

الأطفال عزيزون على آبائهم وأمهاتهم، ولهذا يعتنون بتربيتهم وصحّتهم ويجلبون لهم ما من شأنه أن يفك عنهم التوتر ويجلب سرورهم، لذلك أكثروا من أعياد الأطفال.

-**عيد الفطر** : عيد للأطفال يلبسون فيه الجديد ويأكلون الحلويات وينالون الجّوائز (المهبات) ويشترون الألاعيب.

-**عيد الإضحى** : عيد أطفال، يلعبون بالكباش ويشترون ثيابا جديدة ويأكلون حلويات العيد التي هي المقروض والبناضج والمجامع وكعك التمر والباسابان (Massepain) والملبّس (البشكوتو الملبس بالسكر).

-**عاشوراء** : عيد الأطفال، تشترى لهم الفاكهة الجافة والقنفيد وراحة الحلقوم والحلوى الشامية. و يأكلون عاشوراء أو زردة عاشوراء، وهي طعام جامع للمسلمين، يجمعهم حول استشهاد سيدنا الحسين رضي الله عنه، ويشترون فيه طبلة الحسين و طبل علي كرم الله وجهه وبوك تمامو (Crecelle) و يشعلون النيران و يطوفون ويغنّون « فلوس القاز يا لولاد » ويحرقون قعود عاشوراء للسنة المنصرمة.

-**المولد** : عيد الأطفال، يقصدّون (بضم الياء وكسر الصاد المشددة) فيه بالكتاتيب "البردة" و "الهمزية" و "سلبت ليلى منّي العقل * قلت يا ليلى ارحمي القتلى." ويزيّنون ألواحهم بالألوان وينالون مهبتهم ويأكلون عصيدة الرسول صلى الله عليه وسلم و يشترون الطبلة والطبل وبوك تمامو، وفي نابل يصنعون الدمى من السكر (عادة فاطمية) ويطلقون الشماريخ.

-**ليلة أوسّو** : عيد أطفال يطلقون فيه الشماريخ ويذهبون لقضاء مدة بالبحر و يعومون عومة أوسّو التي « تبرئ الداء الذي أحسو».

-**عرضان الربيع** : عيد الأطفال يتجولون فيه ويتنزهون ويذهبون إلى الغابة والبساتين والمروج ويتنفسون الهواء النقي.

(*) مجلة " المرأة" (تونس) ع 13، جوان – جويلية 1976، ص 16 – 21 و هو آخر ما نشر.

على أن الأولياء قد أكثروا من مناسبات الأفراح للأطفال. فهناك عيد الولادة، ثم عيد الميلاد، وهنالك سابع الولادة، وأربعون الولادة، وهنالك قصّ شعر الحليب، وهنالك الكركوش وهو بروز السن الأولى بعد سقوط سن الرضاع. وهي حفلة كبرى تشترى له فيها الألاعيب والحلويات ولا سيما القنفيد، ويجتمع به الأطفال يلعبون معه فتكبّ على رؤوسهم « الكنستروات » المملوءة بالحلويات والقنفيد. والفطام حفلة، والختان حفلة، وختم القرآن حفلة، وتدوير اللحية حفلة، والزواج حفلة، وهلمّ جرّا...

والألاعيب تكون حسب الأسنان، فتعطى له كعكة من عاج عند بدء بروز أسنان الرضاع يحك بها.

«نهار العيد، كلاتها
يا جميّل بوك علي
وين تمشي وين تجي
تمشي طريق الزعفران»

وهذا يدلّ على حادث تاريخي يؤرّخ للفاطميين الذين جلبوا الزعفران من الشرق الأقصى وزرعوه في تونس. وكان قبل ذلك من المشقة الكبرى جلب الزعفران.

ثم يأتي طور ألاعيب الجدّ والترفيه والتربية.

*** الألاعيب الثقافية :**

-القصة التربوية : قصة جحا التي تعلّم الجهد الصالح والمنطق والمعقول، مع أنها قصة طريفة، مثل قصص "كليلة ودمنة" التي تعلّم السياسة والسلوك الطيب وفقه النفس ومعرفة الناس وأحسن الوسائل لعشرتهم. وقصة "ألف ليلة وليلة"، وهي قصة غرائب وعجائب، فيها تشويق وتربية وعبرة، ثم الملاحم مع شيء من التربية العاطفية في قصة « الجازية» وقصة« رديح أو زائد». ثم إذا كبر سمع قصة عنترة بن شداد وتغريبة بني هلال، فصار بطلا من الأبطال.

وفي دور التعليم تكون **الألاعيب العقلية**:

وهي **الأحجية اللغوية** : فهي تشحذ عقله وتنمّي تصوره و تدفع به إلى إمعان النظر والتفكير.

«علّي اللي اسمو بالحاء ، بالك تقول حوت

إذا خرج من الماء يعيش

وإذا دخل للماء يموت»

الجواب : الملح

« جبل فوق جبل يسكسك بالرمل»

الجواب : الرحى.

الأغلوطة : وهي تنبني على سرد كلمات فيها حروف متشابهة يتكون منها تنافر حروف مثل

«وقبر حرب بمكان قفر* وليس قرب قبر حرب قبر» فيتلعثم تاليها ويذكر كلمات مضحة. ومنها بالتونسية لمغالطة الذي يلثغ الراء غينا « يتكلم بالبغة» :

«شوف جرادة

في برّادة

جيت تشدّها

قالت فرررر»

و«مسألة الشعر» : وهي لحفظه وحسن فهمه والتعود على استحضاره عند الحاجة مثل أن يقول الأوّل :

«كلامنا لفظ مفيد كاستقم * اسم وفعل ثمّ حرف الكلم»

فهكذا يستعرض « الألفية » ويتعود على الاستقامة فيستقيم سلوكه. لكن المقصود هو الإتيان ببيت أوّله ميم كنهاية البيت الأوّل، فيجيب المساجل الثاني :

«مبتدأ زيد وعاذر خبر * إن قلت زيد عاذر من اعتذر»

فقد بدأ بالميم واستعمل بيتا من «الألفية» كلمة المبتدأ والخبر وقوّم

أخلاقه بأن العذر عند كرام الناس مقبول.

والإجازة وهي أن تقول نصف بيت ويكمل رفيقك نصف البيت الثاني كقصة المعتمد بن عبّاد عندما نزل ليتجوّل بنهر إشبيلية وهبّ النسيم فتجعدّ الماء فقال ابن عبّاد :

«نسج الريح على الماء زرد»

وقال لشاعره ابن اللبّان : أجز. أي هات المصراع الثاني، فعجز. و كانت هناك فتاة بدوية بارعة الجمال فأجابت على الفور : «أيّ درع للجنود لو جمدْ» فاستنجبها المعتمد و تزوّجها وصارت هي الرميكية المشهورة [باسم اعتماد].

× **الألعاب الاجتماعية :** أبسطها **الخربقة**، ويلعبها أهل الأرياف. وهي على نمط الداما. ثم الشطرنج، وهو يعلّم الحيلة والخطط العسكرية والسياسية، **والنرد والشيش بيش** Clic-trac. ولكن هذه الأشياء قديمة جلبها العرب من الإيرانيين الذين جاؤوا مع الدولة المهلّبية (150 هـ) وجلبوا معهم الجيش الخراساني الذي استوطن البلاد وجلب هذه الألاعيب. كما جلب الأندلسيون زراعة البرتقال والليم والليمون والأشجار المثمرة الغابية كالفستق والبندق والجوز والبوفريوة وما أشبه ذلك، وجلبوا الشاشية وقصب السكر ودود الحرير. ثم تأكد وجود هذه الألاعيب بمجيء الأتراك. وجلب الأندلسيون معهم في هجرتهم الأخيرة 1017 هـ/1609م على عهد عثمان داي لعب الورق. ولهذا فأكثر أنواع لعبه إسباني مثل الشكبة (Escopa) أي المكنسة، وشكبون (Escapan) أي المكنسة الصغيرة، واللص، ودوين : 2 وكواترو : 4 وشينكو : 5 و مجيرة (Mujer) أي المرأة، وكوال : الفارس، والرّي : الملك، وبرميلة من الإسبانية وهي 2 بحساب الشكبة، والشكبون اجتماع سبعتين وثلاث ستات. ومن الألعاب الروندة (Ronda) والبازقة.. إلخ...

واللعب الثاني هو لعب الأكر أو **البطشي** من الإسبانية (Boche)، ومنه

الريقة أي الخط. ولعب **الكريخ** (Correos) (1) وهو أن يرتدي رجلان جلد حصان، ويمشيان كأنهما حصان، ويلعبان ألعاب الخيل و الملعب (Fantasia) ويكون على الأكثر في شهر رمضان. وجلب الأتراك معهم لعب خيال الظل وإن كان موجودا منذ العهد الحفصي، ويسمّى بتونس **كاراكوز**، وهو تمثيل بالدمى أو بالخيال، أعني أنه جوّ المسرح والسينما في الآن الواحد.

– كانت تنتصب الدكاكين الخشبية والأراجيح و الأفلاك الطائرة في بطحاء القصبة إلى أوائل هذا القرن، فكانت تسمّى الألاعيب « دبش القصبة» . ثم صارت تنتصب بالحلفاوين في أيام الأعياد وعاشوراء والمولد ورمضان. وكان النجارون يعدّون بيوت النوم الصغيرة للبنات وأثاث المطابخ لهنّ أيضا. وكان القلاّلون يصنعون الكوانين الصغيرة والقدور والكساكسن والطواجن للزقديدة (Dinette) . وكان الصفّارون بسوق النحاس يصنعون القدور والصحون وجميع المواعين الصغيرة للبنيّات، فتذهب البنت إلى القصبة لتشتري دميتها و بيت نومها وصالتها ومطبخها أو أنها تشتريها من الصناعات التقليدية، و تتولّى إعداد ثيابها وطعامها في عيد الأضحى، وهو ما يسمّى بالزقديدة، تساعدها في عملها أمّها أو جدّتها أو أختها الكبرى، فتتدرّب على حذق تدبير المنزل و الشعور بالمسؤولية في سنّ مبكّرة. ويشتري الولد السيف والبندقية ليتعلم المسابقة والرماية أو يشتري كلاهما آلات موسيقية صغيرة كالمعزف (البيانو) والجرانة (الكمنجة) والناعورة المغنيّة إلى غير ذلك. وكل هذه الألاعيب للترفيه والتربية ولتعلم احترام الأشياء وصيانتها. والبنت إذا كانت حاذقة احتفظت بألاعيبها إلى بنتها، والولد كذلك احتفظ بها إلى ولده فتكون سنّة طيّبة.

* **الألعاب الجماعية :** الألعاب الجماعية تكون أوّلا موسمية. **فالبطشي** لا يكون إلاّ في الشتاء وعادة **الزربوط** «الخذروف» لا يكون إلاّ في الخريف، **والكرة** لا تكون إلاّ في الخريف، يصنعها جماعة البرادعية بالقعّادين

(1) معناها في الإسبانية البريد. وكان يعدو به الفارس.

بتونس قرب بطحاء سيدي الجبالي من قطع الجلد المختلفة الألوان، ويحشونها بالنخّالة ، ويلعبون بها خارج باب سعدون وباب سيدي عبد الله وبطحاء المركاض ورحبة الغنم (معقل الزعيم) أو باحة المدرسة وباحة البيت (الصدّار). ثم جاءت الكرة المطاطة المتوثبة فأقبل عليها الصغار.

ومن جملة ألاعيب الصغار **القرقيبة** (Cerceau) . وهي عجلة يدفعها أمامه فيحافظ على توازنها، و**الكريطة** وهي عربة صغيرة يصنعها ويجرّها به صديقه ويضعها في حدرة فتنزل بقوة انحدارها. ثم صار الأطفال يشترون الدرّاجة المثلثة ثم الدرّاجة ذات العجلتين ثم السيارة الصغيرة. وكان بعض ذوي الثراء يتخذون لأبنائهم (كاليصاً صغيرا) يجرّه معزة وحمار صغير. ومن ألعاب الأطفال في الربيع و الصيف «العفريت» ويسمّى بالفرنسية (Cerf-volant) وبالعربية الراية. وهو إمّا عفريت أو نجمة، والنجمة أكثر زخرف من العفريت. وكنت أنا مغرما بصناعة العفاريت والنجوم وإعطائها لأصدقائي. و كان أهلنا يخافون علينا منها إذا اتصلت بالسلك الكهربائي الموجود على أعمدته بالطريق فيذهبون بنا إلى الأماكن التي ليست بها أعمدة ولا أسلاك. ثم صارت البالونات والطيّارات الصغيرة تباع بدكاكين باعة الألعاب، فتقلّص ظلّ العفريت والنجمة.

وفي الربيع إذا نضج المشمش (البرقوق) يلعب الأطفال خمسة كعيبات. يأخذون خمس كعبات من قلوب المشمش ويضعون ثلاث على الأرض ورابعة فوقها ويأخذون الخامسة يرمونها بها على مسافة معلومة، فإذا أسقطوها كسبوها إلى أن ينتهي الطرح بانتهاء الأكداس، أو يضعونها في الكفّ ويرمونها في الهواء بلطف ثم يقلبون كفّهم إلى أسفل و يتلقّونها بظهر أكفّهم. ويأخذون قلب المشماش الشائح وداخله لوزة حلوة فيثقبونه بمسمار ويفرغونه بإبرة ويصفّرون فيه فكأنه هرمونيكا صغيرة. ويأخذ سيركو البناني المستدير أو خشب البناني

المستدير و يجعلونه قرقيبة يدفعونها أمامهم. وكنّا نتّخذ من « الدبّيش» (La dépêche tunisienne) الجريدة اليومية التونسية قبعات لرؤوسنا ومحافظ كبيرة لكراريسنا وجردانات (محافظ نقود لنقودنا) وسفنا نلعب بها في الأحواض أو بشاطئ البحر. وإذا جاء الصيف صار لعبنا على شاطئ البحر لبناء مدينة بسورها أو حفر ميناء إلى البر أو حفر متاريزات من الرمل و النقايل و ترصيفها بأكر.

وكان آباؤنا، يشترون لنا طرّاحات صغيرة أو صنّارات وخيوطا لاصطياد السمك أو مكاحل صغيرة لاصطياد الحمام البرّي في البقاع المهجورة أو اليمام في غابات قمّرت أو عصفور الزيتون أو غيره من الطيور، أو يشترون لنا خزينة أو طرّاحة لاصطياد المقنين البردلون (Chardonneret).

وواجب على الوالد أن يعلّم أبناءه السباحة و الرماية و الفروسية علاوة عن الصراع الذي نسمّيه القراش، وهو لفظ تركي، فتعلّمنا السباحة في البحر والفروسية على الخيل و الرماية بالبنادق كما ذكرنا، وأمّا القراش فهو لعب تركي يشبه الجيدو. ويأتي أولاد سيدي أحمد بن موسى وهم بارعون في القراش البربري و الفروسية.

أمّا النساء فلعبهن غير هذا. وهو غميض وعروسة وحفلة عروسة ووضع العرائس فوق قبور الأولياء والصالحين مثل السيدة المنوبية بتونس وسيدي بوسعيد أوسيدي سعد بمرناق وسيدي عبد الواحد قرب بنزرت. فإذا تمّ ذلك فزفاف تلك البنت في سنّ مبكّرة سيتمّ إن شاء الله تعالى. وتتعلّم البنت الخياطة والطرز على القرقاف (لفظ فارسي) يسمّى بالفرنسية (Métier) وبالمغربية مرمرية لطرز جهازها وخياطة ثيابها. وتتعلّم الرفو والترقيع وصناعة الأشياء اللازمة للمنزل من تقطير للزهور وصناعة معجون من الثمار أو الخشاف، وصناعة مقرونة الأباري وحتى صناعة الكاغذ في القديم. وفي سنة 1944 أسست مدرسة نهج الباشا للبنات فتعلّمن الألعاب الأوروبية وصرن يشترين الألاعيب من الحلفاوين أو من بازارات باب البحر، وصرن يتعلّمن على

معلّمات يهوديّات التوقيع على المعزف والعود. وفي الخريف تقع لهن حفلة كبرى بسيدي بوسعيد فيتزينّ ويلبسن فاخر ثيابهن ويذهبن إلى البدوة بصحبة الأمهات. وتميزّ النساء اللواتي يردن تزويج بناتهن وأولادهن بعلامة واضحة، فإذا تمّ الاختيار تنادى نقيبة الزاوية لتربط صلة الخطبة.

ونلاحظ أن البنت والولد عدلا عن خرافات المخرّفات وصاروا جميعا يبتدئون المطالعة منذ السادسة بعدما كانوا يبتدئونها في سنّ العشرين. فصارت هناك مكتبات للأطفال من الضرورة بمكان، وظهرت الألاعيب العلمية التربوية الترفيهية، ومنها كتب للأمّهات والمربيّن. وفوق كلّ ذي علم عليم.

من أناشيد الألعاب : أمّك طمبو (2)

أمّك طمبو يـا صغـار	طلبت ربّـي ع النّــوار
أمّك طمبـو يـيـل الولاد	غسلت جبهتهـا فـي الواد
يـا اللـه و يـا اللـه	صب الغيث (3) إن شاء الله
يـا اللـه وقرينّ فـول	يـا اللـه وصبـح مبلـول
يا الله و قريـنّ فلفـل	يـا اللـه وصبـح متفلفـل
يا اللـه و قريـنّ طرشي	ياالله و صبـح فـي كرشـي
إمّك طمبـو بسخيبّهـا	طلبـت ربّـي لا يخيبّهـا.

دجاجة عمياء

عـلاش تـلـوّج ؟	على خريّـص بنتـي
كيفنـوّ لـونـو ؟	أحمـر هـنـدي
فـاش مـصـرور ؟	في محـرمـة عكـري
هـاهو عندي يا صاحبتـي	هـاهـو عندي يا صاحبتي

(2) المعروف أنها أمك طنقو.
(3) يقال : صبّ النوء.

آنا الصيـــد ناكلهـــم

آنا الصيـــد ناكلهـــم　　　آنا اللبـــوة نحميهـــم
آنا الصيـــد ناكلهـــم　　　آنا اللبـــوة نخبّيهـــم

قصـــر أشكـــون ؟

قصـــر أشكـــون ؟　　　قصـــر الغـــول...
قصـــر أشكـــون ؟　　　قصر محمد بن سلطان
آش فيـــــــه ؟　　　فيه الخوخ والرمـــان
بـــاي (4) فيـــن ؟　　　فـــي الصنـــدوق
الصنـــدوق فيـــن ؟　　　كـــلاتـــو النـــار
النـــار فيـــن ؟　　　طفـــاهـــا المـــاء
المـــاء فيـــن ؟　　　شربـــو الـــثور
الثـــور فيـــن ؟　　　ذبحتـــو السكينـــة
السكينـــة فيـــن ؟　　　عنـــد الجـــزار
الجـــزار فيـــن ؟　　　واقـــف في بـــاب الدار
بـــاب الـــدار فين ؟　　　فـــوق الفلـــوكـــة
الفلـــوكـــة فيـــن ؟　　　كلاتهـــا الحوتـــة

بـــابـــادن ، بـــابـــادن (5)

(4) أي تصيبي.
(5)للمقـــارنـــة انظر:
Dupuy (A.) : Les jeux des enfants tunisiens.- in : Outremer, V, 1933, P.308-319 ; idem : Bull. Ens. Publ.Mar., 1934, P. 255 - 262 ; Collectif : Les jeux (Dir. Roger Caillois).- Paris 1958 : Crosse (Dr. E.) et Louis (A.) : Les jeux de la rue à Mateur.- in : IBLA, VII, 1944, P. 303-328 (voir la bibliographie).

متفرّقات عن الحجّ (*)

الرحلة والحجّ : لقد نشأت العلوم الدخيلة في الإسلام على ضوء العلوم الإسلامية نفسها و بهدايتها و بدافعها. فقد نشأت الجغرافية لمعرفة « المسالك والممالك» أي الطرق الموصلة إلى الحج. ونشأ الحساب لمعرفة الفرائض، ونشأت الهندسة لمعرفة الخراج. وقد نشأت « الرحلة» إلى جانب كتب « المسالك والممالك». وإذا كانت الثانية علمية شبيهة بدليل الطرق الذي يطبع اليوم بجميع اللغات وبكافة البلاد لإرشاد السوّاحين وأرباب السيّارات فإنّ الأولى أقرب إلى النوع الأدبي وأشبه بالنوع الوصفي الذي اعتاد أرباب الصحف والمذيعون الإنشاء فيه عند انتقال وزير أوتنظيم مهرجان. قال الأستاذ برانشفيك في مقدمة كتابه عن رحلة عبد الباسط (1):

« يعلم الكلّ أهميّة «الرحلة» في الأدب التاريخي والجغرافي عند العرب. فمن أقدم العصور كانت رحلات البحّارين والرحّالين – بما اشتملت عليه من روايات صحيحة ومن أخبار مغربة مهولة مزيّفة خرافية – قد أفادت أدباء المسلمين عن البلدان الخارجية والشعوب الأجنبية وأرضت ذوق الجمهور في شغفه بأخبار البلدان البعيدة النائية ووصف عجائبها. ولكن في داخل الحدود الإمبراطورية الإسلامية نفسها، قد كانت الرحلة قاعدة ثابتة وعمادا راسخا لتأليف العديد من التصانيف. فقد استطاعت الرحلة بفضل مغربيّ مثل ابن جبير أن ترتقي بنفسها ولنفسها إلى مقام نوع أدبيّ شخصيّ قويّ عناصر الحياة، موفور المعلومات الدقيقة والأخبار الثمينة والحوادث المشاهدة. ومن الطبيعي أن ينتج المغرب الإسلامي مؤلّفي الرحلات بوفرة عظيمة، وينبغ به عدد جمّ من الرحّالين الذين أثبتوا مشاهداتهم

(*) الثريّا، عدد خاص بالحجّ، ذو الحجّة 1364 هـ/ [ديسمبر] 1944، ص 2–3.

1) Brunschvig : Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord au XV e siècle.- Paris 1936.

وتأثّراتهم في تصانيف قيّمة. فإنّ الأندلسيين والمغاربة كانوا يشعرون بدافع شديد ينزع بهم إلى كتابة ذكرياتهم وتسجيل ما يختلج بأنفسهم عن رحلتهم إلى الشرق بقصد طلب العلم وأداء فريضة الحجّ. وقد كانوا يشدّون الرحال إلى الشرق بقصد زيارة البقاع المقدّسة أوّلا وبالجاذبية القاهرة التي تستقدمهم كالمغنطيس لزيارة مراكز الدين و معاهد العلم الكبرى مثل مصر وسوريا و العراق. وقد نبغ هؤلاء في جميع العصور، ولكن – على الخصوص– في القرنين السابع و الثامن. ونخصّ بالذكر منهم ابن رشيد(2) والعبدري(3) وخالد البلوي(4) وعلى الخصوص ابن بطوطة(5) الذي بلغ الشرق الأقصى. ونحن نجعل مقاما خاصّا للتجاني(6) الذي هو إفريقي تونسي بحت. ويجب أن نعترف بأنّ اهتمام الكاتب في الكثير من تلك التصانيف قد كان يرمي إلى ترجمة المعاصرين ممّن لقيهم بأشهر المدن في طريقه وإلى إثبات الحوادث واستعراض المشاهد و التحدّث عن الأخلاق و المؤسّسات.

---

(2) هو محمد بن عمر بن محمد... بن رشيد الفهري السبتي (657 – 721 هـ/1259 – 1321م) محدّث وخطيب ورحّالة وأديب ولغوي. ولد بسبتة ورحل إلى تونس فالإسكندرية فالقاهرة فدمشق فالمدينة ومكة للحج، ثم عاد مرورا بتونس فمالقة فرندة فسبتة وتوفي بفاس. من كتبه : ترجمان التراجم، تقييد على كتاب سيبويه، ملء العيبة فيمن جمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة وطيبة في ستة مجلدات، حققه محمد الحبيب بن الخوجة (الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1982). انظر : كحالة : معجم المؤلفين.– مؤسسة الرسالة، بيروت 1993، ج 3، ص 567.

3) هو محمد بن علي العبدري (ق 7 هـ/13م). رحّالة ينسب إلى جدّه عبد الدار ابن قصي القرشي. ولد في بلنسية ورحل إلى مكة سنة 1289م وألف الرحلة المغربية، حققها أحمد بن جدّو.– كلية الآداب، الجزائر، د.ت، ط 2 تحـ . محمد الفاسي. –الرباط / المغرب 1968، ط3 القاهرة 1978.

(4) هو خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم البلوي الأندلسي (حي 740 هـ /1340م). فقيه ورحالة، ولد بقرطبة وتولى القضاء. قام برحلة إلى الحجاز من سنة 737 هـ إلى سنة 740هـ ودوّنها بعنوان ″ تاج المفرق في تحلية علماء أهل المشرق″. منها جزء حققه الحسن السائح.– صندوق إحياء التراث الإسلامي، المغرب. انظر : كحالة : معجم المؤلفين... 1/668.

(5) هو محمدبن عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمان بن يوسف اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة بالتخفيف خلافا لبعضهم (703 – 779 هـ/1304 – 1377). ولد في طنجة وتوفي بمراكش بعد أن قام بعدة رحلات بلغ فيها الأقاصي. رحلته المشهورة « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» حققها عبد الهادي التازي.– دار السويدي/ أبو ظبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت 2004. انظر : كحالة :
معجم المؤلفين... 3/451– 452.

(6) هو عبد الله بن أحمد التجاني (ق7–8 هـ /13–14 م). ولد بتونس بين سنتي 670 و675 هـ/1272 – 1276م في عهد الدولة الحفصية. انخرط في ديوان الإنشاء للسلطان محمد المعروف بأبي عصيدة. ثم اصطفاه السلطان أبو يحيى شيخ الموحدين. وكان قد انتقل إلى بجاية بدعوة من أميرها أبي زكرياء. من مؤلفاته الرحلة التي قام بها بين تونس وطرابلس من سنة 706 هـ إلى سنة 708 هـ تاريخ انقطاع أخباره وكافة أسرته. حققها ح.ح. عبد الوهاب.– الدار العربية للكتاب، تونس 1981.

ولم تقف الرحلة الشرقية عند المغاربة فإنّ الحجّ كان عاملا كبيرا في تقويتها وتغذيتها، فنحن نجد في القرن التاسع [الهجري] رحلة القلصادي(7) وفي القرن العاشر رحلة البصقروتي(8)، وفي القرن الحادي عشر رحلة العيّاشي(9)، وفي القرن الثاني عشر رحلة أحمد بن الناصر(10) ورحلة الورثيلاني(11)».

ركب الحجيج : من الوظائف الإسلامية المعتبرة وظيفة رئيس ركب الحجيج. وقد تحدّث عن ذلك الماوردي(12) في كتابه « الأحكام السلطانية» (13) فقال : «وهذه الولاية على الحجّ ضربان : أحدهما أن تكون على تسيير الحجيج. والثاني على إقامة الحجّ. فأمّا تسيير الحجيج فهو ولاية سياسة وزعامة وتدبير. والشروط المعتبرة في المولى أن يكون مطاعا ذا رأي وشجاعة وهيبة وهداية. والذي عليه في حقوق هذه الولاية عشرة أشياء :

أحدها جمع الناس في مسيرهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا فيخاف عليهم النوى و التغرير. والثاني ترتيبهم في المسير و النزول بإعطاء كلّ طائفة منهم مقادا حتى يعرف كلّ فريق منهم مقاده إذا سار ويألف مكانه إذا نزل. فلا يتنازعون فيه ولا يضلّون عنه. والثالث يرفق بهم في السير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم ولا يضلّ عنه منقطعهم. والرابع أن

---

(7) هو أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي البسطي القلصادي الأندلسي أصلا ونشأة، الباجي إقامة ووفاة (ت 891 هـ/1486م). عالم بالفقه والفرائض والمنطق واللغة والحساب والفلك، ومؤلف كتب عديدة، منها الرحلة التي حققها محمد أبو الأجفان.– الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1978. انظر : الحمروني : بلاد باجة مدائن ومعالم وأعلام.– دار سحر، تونس 2007، ص 57.

(8) لم نهتد إليه، ولعلّ اسمه تعرض لتصحيف.

(9) هو عفيف الدين العياشي المغربي (ت 1090 هـ/1679م). رحالة، من آثاره الرحلة العياشية التي دوّن فيها رحلته إلى مكة والمدينة. انظر : كحالة : معجم المؤلفين... 2/381.

(10) لم نهتد إليه.

(11) هو الحسين بن محمد السعيد الشهير بالورثيلاني (1125 – 1193 هـ/1713 – 1779م). مؤرخ ورحالة. رحلته إلى الحجاز سنة 1179 هـ/1765م مشهورة بالرحلة الورثيلانية أو« نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و عجائب الاثار... ط. بيار فونتانا الشرقية، الجزائر 1908. انظر : كحالة : معجم المؤلفين... 1/638.

(12) هو علي بن محمد بن حبيب البصري المعروف بالماوردي (364– 450 هـ/975– 1058م) فقيه ومفسر وأديب و سياسي. درس بالبصرة وبغداد و تولى القضاء بعدة بلدان. بلغ منزلة عند ملوك بني بويه. وتوفي ببغداد. من كتبه الحاوي الكبير في الفقه الشافعي وتفسير القرآن وأدب الدين والدنيا وأدب القاضي وقوانين الوزارة و الأحكام السلطانية... انظر : كحالة : معجم المؤلفين... 2/499.

(13) ط. القاهرة 1327 هـ/1909م، ص 93 ومابعدها.

يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها، ويتجنّب أجدبها وأوعرها. والخامس أن يرتاد إليهم المياه إذا انقطعت والمراعي إذا قلّت. والسادس أن يحرسهم إذا نزلوا، و يحوطهم إذا رحلوا حتى لا يتخطّفهم داعر ولا يطمع فيهم متلصّص. والسابع أن يمنع عنهم من يصدّهم عن المسير، ويدفع عنهم من يحصرهم عن الحج بقتال – إن قدر عليه – أو ببذل مال– إن أجاب الحجيج إاليه – ولا يسعه أن يجبر أحدا على بذل الخفارة إن امتنع منها حتى يكون باذلاً لها عفوا ومجيبا إليها طوعا. فإن بذل المال على التمكين من الحجّ لا يجب. والثامن أن يصلح بين المتشاجرين ويتوسّط بين المتنازعين ولا يتعرّض للحكم بينهم إجبارا إلاّ أن يفوّض الحكم إليه فيعتبر فيه أن يكون من أهله فيجوز له حينئذ الحكم بينهم. فإن دخل بلدا فيه حاكم جاز له ولحاكم البلد أن يحكم بينهم، فأيّهما حكم نفذ حكمه. ولو كان التنازع بين الحجيج وأهل البلد لم يحكم بينهم إلاّ حاكم البلد. والتاسع أن يقوّم زائغهم ويؤدّب خائنهم ولا يتجاوز التعزير إلى الحد إلاّ أن يؤذن له فيه فيستوفيه إذا كان من أهل الاجتهاد فيه. فإن دخل بلدا فيه من يتولّى إقامة الحدود على أهله نظر : فإن كان ما أتاه المحدود قبل دخول البلد فوالي الحجيج أولى بإقامة الحدّ عليه من والي البلد. وإن كان ما أتاه المحدود في البلد فوالي البلد أولى بإقامة الحدّ عليه من والي الحجيج. و العاشر أن يراعي اتّساع الوقت حتّى يؤمن الفوات ولا يلجئهم ضيقه إلى الحثّ في السير. فإذا وصل إلى الميقات أمهلهم للإحرام وإقامة سننه. فإن كان الوقت متّسعا عدل بهم إلى مكّة ليخرجوا مع أهلها إلى المواقف. وإن كان الوقت ضيقّا عدل بهم عن مكّة إلى عرفة... إلخ».

هذا هو نظام الركب الإداري وبيان دائرة اختصاص رئيس الركب. وقد ورد استطرادا في كتب التراجم بعض معلومات عن نظام الركب التونسي، وما هي العادات الجارية في ذلك، وماهي التقاليد المتبّعة.

وإليك مشهدا من مشاهد حركة الركب بالقيروان في القرن الرابع (14) :

"قال أبو بكر ... ثم لمّا حصل الزرع أخذ سعدون حصتّه وأقبل بها إلى القيروان. فلم يشعر حتى أبصر أبا زكرياء فقال له :

ما الذي أقدمك يا أبا زكرياء؟

قال له : « بتّ بليلة طويلة. عرض العدو لقلبي بأن سيحول السعر وأصيب فيه. فأتيت لأبيعه وأخرج حاجاً. ولم يكن بقي ممّن يخرج إلى الحجّ إلاّ رفقة تخرج بعد ثلاثة أيّام».

فقال أبو زكرياء لسعدون : « بع طعامي بقرض طعامك» ففعل. وانطلق معه إلى موقف الدواب فلم يوفّق له شراء دابة. ثم غدا إلى الموقف اليوم الثاني فلم يفتح له أيضا.

فلما كان في اليوم الثالث توجّه مع سعدون – والحاج يضرب لهم الطبل والناس خارجون – فجعل أبو زكرياء كلّما ضرب الطبل يقول : يا لطيف الطف بي ! يردّدها كلّما سمع ضرب الطبل. قال سعدون : « فإذا جماعة من بني أبي حسّان اليحصبي، فملت إليهم، وسألتهم : « ما الذي جاء بكم إلى الموقف؟ » فقالوا لي : « مولى لنا تجهّز يريد الحجّ، فمات، فجئنا نبيع جهازه ودابته».

فاشتريت منهم – لأبي زكرياء– حماره وجميع حوائجه حتى المخلاة والسوط. فوضع أبو زكرياء رجله في الركاب وركب وانطلق مع الحاجّ...»

ولدينا أيضا بعض وثائق فيمن سمّوا رؤساء الركب. ومن الذين سمّتهم الدولة أمراء على الركب السيد الحاج عمر المرابط أمير ركب عام1180هـ/1766م. والسيد محمد بن عبد الملك العواني أمير ركب عام 1238هـ/1822م (15)

---

(14) طبقات أبي العرب التميمي، ص 73

(15) البرنس في باريس، ص 48.

الحج في كتاب « التمدّن الاسلامي » هذا كتاب قيم ألّفه ميتز ونقله من الألمانية إلى الإسبانية سلفادور فيلا. وهو حريّ بأن يترجم الى اللغة العربية لما اشتمل عليه من الفوائد الجمة .كتب عن الحج من ص 383 الى ص 386. قال :

« إنّ الحجّ إلى مكّة يكون أحيانا عسيرا جداً لما يحفّ به من الأهوال والمخاوف. فعندما انتشبت ثورة القرامطة، ذكر المسعودي في كتاب "التنبيه" أنّ البدو يتقاضون دينارا على الرأس ليسمحوا بمرور قافلة السلطان. وذكر ابن الجوزي في بعض كتبه أن قبيلة العصيفي تقاضت هكذا 9000 دينار قد شارك في دفعها خليفة بغداد وأمراء الجهات. وفي سنة 386هـ/ 996م تقاضت قبيلة المدية5000 دينار. لكن في سنة 384 هـ/994م امتنع البدو من السماح بمرور القافلة لأن السابلة في السنة قبلهاقد موا لهم الدراهم، فأبى البدو إلاّ أن يدفع الحاج في هذه السنة الدينار دينارين.وذكر ابن نعيم في "الحيلة" ان المسلم التقيّ حقاً يسافر راجلا.وذكر ياقوت الحموي في" معجم البلدان" أنّ على الصوفي أن يذهب الى الحجّ بدون جهاز. وألّف أبو حيّان التوحيدي سنة 380 هـ / 990 م كتابا سمّاه « الحج العقلي » ذكره ياقوت في معجمه.

أوردنا هذه المقتطفات لا على معنى الدراسة ولكن على معنى ان تفتح ابواب الدراسة مقبلة تكون أوسع موضوعا وأوفر مادة. فإنّ في الحديث عن تكوّن الرحلات وصلتها بالحجّ أو عن نظام الركب التونسي خلال التاريخ أو عن نوادر الحجيج ما يتّسع لأن يكون « أطاريح » شيّقة ممتعة .وبالله التوفيق.(16)

---

(16) للتوسع والمقارنة انظر : نورة بنت معجب بن سعيد الحامد : الصلات الحضارية بين تونس و الحجاز/دراسة في النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية (1256– 1326 هـ/1840 – 1908م).– سلسلة الرسائل الجامعية، دارة الملك عبد العزيز، الرياض 1426 هـ/2005م (الحج ودوره في تدعيم الروابط الثقافية بين البلدين : ص 152 – 160، الصرة ودورها في دعم الصلات الاقتصادية بين البلدين : ص 227 – 250).

حجّاج الأندلس بعد سقوطها (*)

لقد كانت فريضة الحجّ داعية لنشوء فنّيين من أكبر فنون الأدب العربي هما فنّ المناسك وفنّ الرحلات. فأمّا مناسك الحج فهي باب من أبواب الفقه ضمن التصانيف الفقهية. وقد استقل بالتأليف فيما بعد. فيه بيان واجبات الحاج من آداب الركب ومعرفة المسالك والممالك إلى معرفة شعائر الحج ذاتها(1). وأمّا الرحلات فباب طويل عريض من أبواب الأدب العربي ولاسيما الأدبين الأندلسي والمغربي. و«الرحلة» ليست مجرد ذكر للمسالك ووصف للمدن والمداشر التي مرّ بها الحاج. ولكنها تتضمن في الغالب وعلاوة عن ذلك بيانات عن الحياة الاجتماعية ووصفا للمجالس العلمية والأدبية(2). خذ لك مثلا من ذلك رحلة ابن جبير الكناني في القرن الثاني عشر الميلادي(3) ثم رحلات ابن رشيد(4) والعبدري(5) وخالد البلوي(6) بعد ذلك بقرن أو قرنين،

(*) نشر في الثريا، ع 11، نوفمبر 1945، ص 2–4.

(1) من ذلك على سبيل المثال : إرشاد السالك إلى أفعال المناسك لابن فرحون اليعمري (ت 799 هـ).– تحـ. محمد بن الهادي أبو الأجفان، بيت الحكمة، قرطاج / تونس 1989.

(2) انظر : الجاسر (حمد) : أشهر رحلات الحج.– الرياض 1402 هـ/1982م، أبوالأجفان (محمد الهادي) : رحلات الأندلسيين إلى الحرمين.– في : السجل العلمي لندوة "الأندلس/قرون من التقلبات والعطاءات»، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض 1417 هـ/1996م، ق 2، ص 385 – 426 ، خضر (طارق محمد) : علاقات الموريسكيين بالأراضي العربية المكرمة من خلال المخطوطات الموريسكية.– في : الأندلس... المرجع السابق، ق 2، ص 43 – 66، بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة بالرياض من 21 إلى 24 أكتوبر 2000 (2ج).

(3) هو محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن جبير الكناني البلنسي ثم الشاطبي (540 – 614 هـ/1145 – 1217م) أديب وشاعر ورحالة. رحل إلى المشرق للحج وعاد ثانية وثالثة. دخل بغداد ودمشق وجاور بمكة والقدس وتوفي بالإسكندرية. من آثاره : الرحلة (كحالة : معجم المؤلفين.– مؤسسة الرسالة، بيروت 1993، ج3، ص 56).

(4) هو محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن إدريس... بن رشيد الفهري السبتي (657 – 721 هـ/1259 – 1321م) محدث وخطيب ورحالة وأديب ولغوي. تعلم بسبتة ورحل إلى تونس والإسكندرية والقاهرة ودمشق و المدينة ومكة للحج و توفي بفاس. له عدّة مؤلفات، منها : ملء العيبة فيمن جمع بطول الغيبة في الرحلة إلى مكة وطيبة (6ج).– تحـ . محمد الحبيب بن الخوجة، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1982 (كحالة : معجم المؤلفين... 3/567).

(5) هو محمد بن علي العبدري (ق7 هـ/13م) رحالة ينسب إلى جدّه عبد الدار ابن قصي القرشي. ولد في بلنسية وقام برحلة إلى مكة سنة 1289 م وألف الرحلة المغربية.– تحـ. أحمد بن جدّو، كلية الآداب، الجزائر، د.ت. ط2 تحـ. محمد الفاسي، الرباط 1968، ط 3 القاهرة 1978.

(6) هو خالد بن عيسى بن أحمد بن إبراهيم البلوي الأندلسي (ت 765 هـ/1363م). فقيه وقاض ورحالة مولود بقرطبة. له : تاج المفرق في تحلية علماء أهل المشرق، وهو رحلة إلى الحجاز من سنة 737 هـ إلى سنة 740 هـ (كحالة : معجم المؤلفين... 1/668). منها جزء حققه الحسن بن محمد السائح، الرباط.

وعلى الخصوص رحلة ابن بطوطة(7) بالإضافة إلى المغرب الأقصى، ورحلة التجاني(8) بالإضافة إلى تونس.

-العربية والأعجمية:

كانت اللغة الرسمية في إسبانيا الإسلامية هي العربية القحة لأنها لغة القرآن الكريم. وكان شرطا أساسيّاً على كل رئيس دولة أو موظف فيها أن يحسن العربية حوارا وكتابة. فتبارى الرؤساء والوزراء في حذقها والبراعة في إنشائها حتى كان أكبر الكتّاب من الرؤساء والوزراء وحتى كان يلقب الكثير منهم بذي الوزارتين: وزارة السيف ووزارة القلم، مثل ابن الخطيب وغيره. لكن الناس في حياتهم اليومية كانوا يتكلمون لهجة دارجة قد خالطها الكثير من المفردات اللاطينية والإسبانية التي اقتبسها الفاتحون من المغلوبين. وكانت توجد إلى جانب ذلك لهجة إسبانية متولدة من اللاطينية الدارجة وهي الأنموذج الأوّل للغة الإسبانية الحالية.

وقد أثبت الأستاذ ريبيرا الإسباني عندما درس أزجال أبي بكر بن قزمان(9) أن أهل قرطبة كانوا يعرفون- إلى جانب العربية القحة أو العربية الأندلسية الدارجة- تلك اللهجة الأعجمية الإسبانية، كما كان يعرفها القضاة و الموظفون الرسميون.

---

(7) هو محمد بن عبد الله... بن يوسف اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة بالتخفيف، وبعضهم يشددها، والجاري على الألسن خلافه (703 – 779 هـ/1304 1377م).
قام بعدة رحلات طاف أثناءها بالمعروف من العالم في زمانه، فبلغ في الأولى الهند و الصين وجاوة وبلغ في الثانية الأندلس وبلغ في الثالثة السودان والنيجر. واسترجعه السلطان أبو عنان إلى فاس ليملي رحلته على الكاتب أبي عبد الله بن جزي فأتمّها في 3 ذي الحجة 756هـ وسماها "تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار". وتوفي بمراكش (كحالة : معجم المؤلفين ... 3/ 451–452). حقق الرحلة عبد الهادي التازي ونشرتها دار السويدي/ أبو ظبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر/بيروت2004 .
(8) هو عبد الله بن أحمد التجاني(ق7–8هـ/13–14م) ولد بتونس بين سنتي 670هـ و675هـ 1272–1276م. وانقطعت أخباره سنة708هـ/1308م. اصطحبه السلطان أبو يحيى شيخ الموحدين، ثم استدعاه أمير بجاية أبو زكرياء سنة 1285م. من مؤلّفاته العديدة اشتهرت "الرحلة" التي قام بها من تونس إلى طرابلس من 706هـ إلى 708هـ .وقد حقّقها ح .ح . عبد الوهاب . – الدار العربيّة للكتاب، تونس 1981.
(9) هو أبو بكر محمد بن عبد الملك بن قزمان القرطبي(ت 508هـ/1114م). شاعر وزجّال.
حقق ديوانه فديريكو كورينتي.– المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد 1980.وكان قد سبق إلى تحقيقه إيميليوقرثيا قوماث. – مدريد 1972 ونشر عنه عدة فصول.

ويفسر هذا أن مسلمي الأندلس طالما كانوا يتزوجون بالإسبانيات الأعجميات أو كان الإسبان الأعاجم يتطوعون أو ينخرطون في الجيش العربي فبقيت اللغة الأعجمية مستعملة لهذين السببين.

وقد أشاد ابن بشكوال(10) وابن الأبّار(11) وغيرهما من مؤرّخي الأندلس بذكر من كان يحسن العربية القحّة. وذكر ابن حزم(12) أن القبائل الضاربة بأحواز قرطبة قد تعاجمت ألسنتها وتطرق إليها الكثير من المفردات والتراكيب الإسبانية حتى بعدت عن العربية القحة بمراحل. وروى الخشني(13) في كتابه « تاريخ قضاة قرطبة » عدة نوادر تفيد أن القضاة والخلفاء كانوا يعرفون الأعجمية الإسبانية المستعملة بقرطبة.

وقد درس العلامة الإسباني [جوليان] ريبيرا [Julián RIBERA] هذه اللهجة الإسبانية القرطبية فوجدها تمتّ بحبل من نسب إلى البرتغالية القديمة أو لغة الجلالقة وإلى اللغة القاطالونية الشبيهة جدا باللغة التي يتكلمها سكان جنوب فرنسا، فاستدلّ من ذلك على السبب الذي كان يحمل أهل قرطبة على اختيار رقيقهم من الجلالقة أو القاطالونيين لقرب لهجتهم من اللهجة القرطبية، إذ اللغة هي أحسن وسيلة للتفاهم. ولاحظ أيضا أن الأوزان الشعرية التي عمد إليها ابن قزمان في أزجاله وثيقة

(10) هو خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال القرطبي(494– 578 هـ/1101 – 1182م)، محدث ومؤرخ وشاعر. من مؤلفاته الكثيرة "الصلة في تاريخ أئمة الأندلس و علمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم" (كحالة : معجم المؤلفين... 1/674 – 675).

(11) هو محمد بن عبد الله بن أبي بكر... البلنسي الشهير بابن الأبّار (595 – 658 هـ/ 1199 – 1259م)، فقيه ولغوي ومؤرخ وشاعر. ولد في بلنسية حيث تعلم على علمائها ثم رحل للعلم في الأندلس، ثم غادرها نهائيا إلى تونس سنة 636 هـ للعمل في ديوان السلطان الحفصي أبي زكرياء. قتله المستنصر لهجاء و أحرق 45 كتابا من مؤلفاته. له : تكملة كتاب الصلة لابن بشكوال في ثلاثة أجزاء (كحالة : معجم المؤلفين... 3/432 – 433، م. محفوظ : تراجم المؤلفين التونسيين.– دار الغرب الإسلامي، بيروت 1982، 1/16 – 43).

12) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي (384– 456 هـ/994 – 1064)، فقيه وأديب ولغوي ومؤرخ. عرف بمذهبه الظاهري فطارده الفقهاء إلى بادية لبلة حيث مات. من تصانيفه العديدة : طوق الحمامة، المغرب في تاريخ المغرب، جمهرة أنساب العرب في عدة طبعات خامستها لدار الكتب العلمية وبيروت 1983 (كحالة : معجم المؤلفين... 2/393 – 394).

13) هو محمد بن حارث بن أسعد الخشني القيرواني (ت حوالي 71 3هـ/981م) محدث وفقيه ومؤرخ وأديب وكيمياوي. ولد بالقيروان وبها تفقّه وكذلك بالأندلس وأقام مدرسا بسبتة واستقرّ أخيرا في قرطبة. من مؤلفاته العديدة : تاريخ علماء الأندلس وتاريخ قضاة قرطبة، نشره المستشرق الإسباني جوليان ريبيرا، مدريد 1914، وأعاد نشره عزّت العطار الحسيني، القاهرة 1372هـ/1952م (محفوظ : تراجم... 2/205 – 208).

الارتباط بأوزان الملك ألفونس الحكيم الإسباني في أشعاره وأوزان الموشّحات القديمة المكتوبة باللغة البروفنسية أي لغة جنوب فرنسا في العصر الوسيط...

ونستفيد من كل ما تقدم أن أهل الأندلس كسائر أهل أوروبا كانت لهم لغة عربية فصحى ولغة عامية دارجة. كما أن المستعربين من الإسبان – أي سكان إسبانيا من النصارى الذين استعربوا – كانوا يستعملون اللاطينية والعربية. وكذلك سكان إسبانيا الشمالية من الجلالقة، والأراغونيون البعيدون عن المنطقة الخاضعة لنفوذ العرب، كانوا يستعملون اللاطينية واللغة الأعجمية الإسبانية الدارجة.

انتشرنا كل هذا الانتشار لنتحدث عن الاسبانية الأعجمية التي كان يستعملها المسلمون الذين كانوا يعيشون في دار حرب أي في المناطق الشمالية من إسبانيا التي انسحب منها العرب بعد احتلالهم إياها في الفتح الأولّ. وعلى نسبة ما كان يبتعد النفوذ العربي كان المسلمون الذين آثروا البقاء في الجهات التي احتلها الإسبان النصارى من جديد يعمدون بطبيعة الحال إلى استعمال الأعجمية لا في أحاديثهم فقط ولكن في تآليفهم أيضا.

المهاجرون : كان الإسبان النصارى يزحفون على ملوك الطوائف المسلمين، وتدور الحروب بين الفريقين، فإذا تغلّب الإسبان واقتطعوا لهم جهات فإن من أهل تلك الجهات من ينتقل إلى دار الإسلام، ومنهم من يبقى محلّه مع محافظته على الإسلام. وهذا الفريق الثاني يسمّى «المهاجرين» وقد أخذ الإسبان هذه اللفظة وحرّفوها فقالوا «مداجر»(14) عوض «مهاجر» وجرى المؤرّخون الأوروبيون على استعمال هذا اللفظ الاصطلاحي وإطلاقه على من ذكر. ونحن نستعمل

---

14) النطق الإسباني الصحيح : موديخار Mudéjar . عرّبها بعضهم بالمدجّن وعنى بها ما هو إسلامي تحت حكم الإسبان. يقول س.م. زبيس" : ... الطراز العربي المسمّى بالمدجّن، وهو من صنع صنّاع مسلمين خضعوا للسلطان النصراني" (أندلسيات زبيس/جمع وتحقيق أ. الحمروني.– وزارة الثقافة، تونس 2004، ص 133).

لفظة مداجر عوض مهاجر تفاديا لاشتباه المعاني في لفظة «المهاجر» التي تكاثرت مدلولاتها.

بقي المداجرون بالجهات التي استرجعها نصارى الإسبان مثل طليطلة وغيرها وبقوا على ديانتهم الإسلامية وقضائهم الشرعي وعاداتهم الجارية بينهم. ولم تكن الحكومة تجعل فرقا بينهم و بين بقية السكان من النصارى. و لاسيما على عهد الملك ألفونس العاشر الذي كان بطليطلة وأقام بها معهدا عاليا جمع له علماء المسلمين، و طلب منهم أن ينشروا به العلوم العربية على مختلف طلبة العلم بصرف النظر عن جنسيتهم ومعتقدهم، فكان لذلك يرعى لهم الحقوق ويعاملهم معاملة تبجيل وتعظيم.

-**الأدب المداجر:** رأينا أن المداجرين يستعملون اللغة الأعجمية أي الإسبانية القديمة لكنهم حافظوا على الخط العربي فكانوا يكتبون الأعجمية بحروف عربية مثلما كان يفعل البعض من مسلمي صقلية. وقد ألّف المداجرون تآليف كثيرة بالأعجمية، منها قصيدة يوسف(15) وسيرة النبيء محمد (صلعم) التي نقلها من العربية إلى الأعجمية محمد ربضان الرويضي المنسوب إلى مدينة رويضة بالأندلس(16). وقد صنّف المداجرون تصانيف فقهية دينية على الخصوص، منها «المختصر» للطليطلي، ومنها كتاب الشقوبي المعروف أيضا «بمختصر السنة» تأليف الفقيه عيسى بن جابر الشقوبي من مدينة شقوبة [Segovia] (17). ويوجد تأليف في الفقه مجهول المؤلف يظهر منه تأثير أبي حامد الغزالي(18).

---

(15) R. Menéndez Pidal : Poema de Yûçuf : materiales para su estudio.- Granada 1952.

(16) H .E.J. Stanley : The poetry of Mohamed Rabadan Aragonese.- in : Journal of the Royal Asiatic Society, Londres, III, 1868, P.81-104 ; ibid, P.379- 413 ; IV, 1870, P. 138 - 177 ; V, 1871, P.119 -140, 303 - 337 ; VI, 1873, P.165 - 212.
وقد اعتنى بتحقيق ديوانه أنطونيو فسبرتينو رو (Antonio Vespertino Rodriguez)

J. Morgan : Mahometism fully explained by Mohamed Rabadan.- London, 2 vols, 1723 et 1725.

17) ألّف المختصر السنّي (El Breviario Sunni) أو المختصر السيقوفي أو الشقوبي (Breviario Segoviano) سنة 1462م، ونشر في :
Memorial Historico Espanol, T.V, Madrid 1853, P. 247 - 510 S.

18) عثر على أهمّ المخطوطات الألخمية في أرقون بالموناثيد دي لا سيرّا (Monacid de la Sierra) في أواخر ق 19م، انظر :
Ribera y Tarrago (Julian), Asin Palacios (Miguel) : Manuscritos arabes y aljamiados de la biblioteca de la Junta, Madrid 1912 ; Saavedra (E.) : Indice general de la literatura aljamiada.- in : Mémorias de la Real Academia Espanola, Madrid, Vol VI, 1889 P.140 - 328.
ومن أقرب الدراسات : ابن جميع (محمد نجيب) : الأدب الألخمي و الموريسكي/ تأصيل لكيان.— في : مجلة دراسات أندلسية، ع 30، جويلية— ديسمبر 2003، ص 13— 52 ، نفسه : تعريب نماذج من الأدب الألخمي الموريسكي.— في : دراسات أندلسية، ع 32، جويلية – ديسمبر 2004، ص 51 – 78، ع 34، جويلية – ديسمبر 2005، ص 45 — 60.

وهناك تصنيف في العقيدة الإسلامية ألّفه بعض من هاجر من الأندلس إلى مدينة تونس وجعله عمدة الأندلسيين التونسيين قبل أن يتعلموا العربية من جديد فيعتمدوا على كتب الفقه العربية(19). ونحن نعلم أن مهاجري الأندلس إلى تونس كانوا فرقتين: فرقة الثغريين المنسوبين إلى الثغر الأعلى أعني شمال إسبانيا المعروف بأراغون، وهؤلاء من المداجرين بطبيعة الحال، فهم يتكلمون الأعجمية الإسبانية ويطالعون كتبها المؤلفة بالإسبانية والمكتوبة بحروف عربية كما رأينا. و الفرقة الثانية هم سكان جنوب إسبانيا أوالأندلس الأقحاح الذين كانوا يعرفون العربية أو على الأقلّ العربية الدارجة الأندلسية. وفي كل قرية من قرى الأندلس بتونس مثل تستور وسليمان و غيرهما يوجد حي الثاغرين أي الثغريين المداجرين وحي الأندلس.

وألّف المداجرون – علاوة عن الكتب الفقهية – أقاصيص بلغتهم الأعجمية منقولة في الغالب عن العربية. منها قصة «الآنسة أركايونة»، وقصة «تميم الدار» وهي رحلة إلى عالم الجنّ على غرار «ألف ليلة وليلة»، وحديث «حمّام زرياب» وهي حكاية غرامية قرطبية الأصل(20)، ومنها حديث «القصر الذهبي»(21) وكتاب «المعارك»(22).

---

(19) المؤلفات عديدة، انظر منها و عنها :

Bernabé Pons (L.F.) : El cantico islamico del morisco hispano - tunecino Taybili.- Pub. Inst. Fernando el Catolico, Zaragoza 1988.

De Fuentes (Alvaro Galmés), Villaverde Amieva (Juan Carlos), Lopez-Baralt (Luce) : Tratado de los dos caminos.- Univers. Oviedo, Madrid 2005.

وهو تحقيق لرسالة الطريقين التي ألفها موريسكي مهاجر إلى تونس. والأصل المخطوط رقمه س2 (2إ) بمجموعة بسكوال قيانقوس بمكتبة الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد (انظر تقديمنا لهذا الكتاب في : مجلة دراسات أندلسية، ع 37، جانفي – جوان 2007، ص 111 – 114). وانظر كذلك :

Penella (Juan) : Littérature morisque en espagnol en Tunisie.- in : De Epalza (M.),
Petit (R.) : Recueil d'études sur les morisques andalous en Tunisie. - Madrid 1973, P. 191, note 9.

الحمروني (أ.) : الموريسكيون الأندلسيون في تونس/ دراسة وبيبليوغرافيا.– ميدياكوم، تونس 1998، ص 112 – 118.

دي إبالثا (ميكال) : الكاتب إبراهيم التيبلي والكتّاب المسلمون الأرقونيون (قسم من تقديم كتاب لويس فرناندو برنابي بونس" الإنشاد الإسلامي للموريسكي الإسباني التونسي التيبلي") / تعريب أ. الحمروني.– في : مجلة دراسات أندلسية، ع 34، جويلية – ديسمبر 2005، ص 87 – 106.

20) SAAVEDRA E., MORAGAS : El Alhadiz del bano de Zarieb.-in : Mundo elustrado, 88,1881.

(21) هي قصة" قصر الذهب و التنّين مع علي بن أبي طالب" في :

Alvaro Galmés de Fuentes : El libro de las batallas.- Editorial Gredos, Madrid 1975.

وقد عرّبها م.ن. بن جميع في : المرجع المذكور (مجلة دراسات أندلسية،ع 32، جويلية– ديسمبر 2004، ص 64 – 78).

22) A. Galmés de Fuentes : El libro... op.cit.

-**رحلة حاج منزون** : و من جملة هذه الكتب رحلة « حاج مدينة منزون» أو « الحاج المنزوني » التي كتبها صاحبها شعرا باللغة الأعجمية و ذكر فيها سفره إلى الحرمين الشريفين. وقد نشر هذه الرحلة المستشرق الاسباني ماريانو دي بانو [Mariano De BANO] بمدينة سرقسطة سنة1897. وهي الجزء الأولّ من سلسلة كتب في الدراسات العربية الإسلامية. وقدم عليها مقدمة تاريخية أدبية لغوية الأستاذ دون إدواردو دي سافيدرا [Don Edwardo De SAAVEDRA] – العضو بالمجمع العلمي التاريخي الإسباني – بيّن فيها أهمية الدراسات العربية بالنسبة إلى الإسبان وطرق انتقال الألفاظ وتغير نطقها من الإسبانية إلى العربية والعكس.

والكتاب نفسه يشتمل على 26 بابا. بيّن المؤلف في الباب الأول كيف وقع العثور على نحو 17 تأليفا باللغة الأعجمية في بعض قرى الأندلس، ومنها «رحلة الحاج المنزوني إلى مكّة المكرّمة». و تحدّث عن مدينة منزون نفسها إلى أن قال : « ..وفي سنة 1591 قبل أن يصدر فيليب الثالث أمره بإجلاء جميع المسلمين عن إسبانيا (صدر هذا الأمر سنة 1609م) اضطرت الظروف مسلمي منزون إلى مبارحة أوطانهم. وكان مسلمو منزون من أشد الناس تعلقا بدينهم. و كان من ضمنهم الحاج المنزوني الذي ذهب في القرن السادس عشر إلى الحجّ و ألّف رحلة شعرية باللغة الأعجمية هي التي ننشرها في كتابنا هذا...».

والحاج المنزوني شخصية مجهولة الاسم، لا نعرف عنها إلاّ ما ذكره ماريانو دي بانو ممّا أوردناه أعلاه، وإنما بقي لنا كتابه. وهي رحلة ذكر فيها ما شاهده أثناء الطريق من الأندلس إلى الحجاز قطرا قطرا و بلدا بلدا ووصف فيها موسم الحج نفسه. وهذه الرحلة تتركب من 79 قصيدة من ميزان الرجز الإسباني مكتوبة باللغة الأعجمية القديمة وبحروف عربية حسبما مرّبنا ذكره آنفا. وقد يجدر بنا قبل أن نتحدّث

عن الرحلة نفسها أن نورد فذلكة في آخر أيّام الأندلس لربط الموضوع.

-آخر أيام الأندلس :

سقطت مدينة غرناطة، ودخل الملكان الكاثوليكيّان فردينند وإيزابلاّ قصر الحمراء في الثاني من يناير سنة 1492م. ولكن الإسلام لم يتقلّص ظلّه من الأندلس، وبقي المسلمون في أمن من أبدانهم وأرزاقهم وفي حرية من عيشهم ودينهم وجوامعهم وتقاضيهم وعامة أساليب معاشهم. ولم يكن سقوط غرناطة أعظم كارثة حصلت بالمسلمين بل الأنكى أن بعض القساوسة المتعصبين و المتغالين في دينهم قد أرادوا حملهم على اعتناق النصرانية. فالأسقف فراي هرناندو الطالبيري [Fray Fernando De Talavera] قد حاول تنصير المسلمين عن طريق الإقناع بينما الراهب سيسنيروس قد ذهب به حزمه في تعصبه إلى حملهم على النصرانية كرها. و في سنة 1499م، حمل كتبا عربية إلى ساحة باب الرملة بغرناطة فأحرقها، و نقل الكتب العلمية العربية إلى دير القديس الديفانسو بالقلعة. فكان ذلك سببا لثورة الموريسكو (23) بقلعة البيازين سنة 1500م. وقد اندلعت نيران الثورة فامتدت إلى جبال البشارات وبياسة وقادس وغيرها من مدن جنوب الأندلس. وشبّت نيران الانتقاض بمدينة رندة المنيعة بجبالها، و هي مسقط رأس الشاعر [أبي البقاء] الرندي الكبير(24) الذي رثى الأندلس بقصيدته الشهيرة :

[البسيط]

لكل شيء إذا ما تمّ نقصانُ — فلا يغرّ بطيب العيش إنسانُ

فأدّى ذلك إلى انتقال الملك فرديناند الكاثوليكي بنفسه لإخمادها (سنة

---

(23) الموريسكو هم الأندلسيون المسلمون المهادنون للنصارى والمقيمون بما احتله ملوك النصارى من الأندلس. وهم يظهرون النصرانية ويخفون الإسلام.

(24) رندة، بضمّ أوله وسكون ثانيه (Ronda) : معقل حصين بالأندلس... على نهرجار... بين إشبيلية و مالقة (ياقوت الحموي : معجم البلدان.– تحـ. ف. ع. الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت 1990، ج3، ص 84). وأبو البقاء الرندي هو صالح بن شريفة.

1501م). وصدر أمر في 11 فبراير 1502 يجبر الموريسكو على اعتناق النصرانية أو الانجلاء عن إسبانيا. فأظهر البعض التنصر مع بقائه على الإسلام في الباطن. وهذا ما فعله البعض من سكان أبيلة وطورو وسيمورة و غيرها من أقاليم قشتالة بشمال الأندلس. وهؤلاء هم الذين اسمهم الموريسكو كما مرّ بنا. أمّا ببلاد آراغون فإنّ الملك دون فرنندوأقرّ الموريسكو على العهد بطلب من مجلس الأمّة وعظماء الإسبان وطلب من ديوان التفتيش أن لا يحملهم على التنصرّ كرها.

وفي سنة 1597م صعد على عرش إسبانيا فيليب الثالث. وكان ألعوبة في أيدي رجال الكنيسة وأثّر عليه خوان دي ريبيرا فأصدر سنة 1609م أمرا بإجلاء المسلمين عن إسبانيا. وبدأ بمسلمي بلنسية، ونشر عليهم إذنا بتاريخ 22 سبتمبر 1609 ليجتمعوا في ظرف ثلاثة أيّام بمراسي بلنسية أو ألقنت أودانية أو بيناروش لتنقلهم السفن إلى شمال إفريقيا. و لم يسمح لهم إلاّ بأخذ أملاكهم المنقولة لا غير، بدون بيع لعقاراتهم التي صارت من ملك الدولة بلا مقابل. وتتابع الانجلاء، ففي ديسمبر 1609 انجلى أهل قشتالة وصلمنكة وأسترامادورة. ثم انجلى أهل الأندلس وآراغون سنة 1610، وأهل قاطالونيا سنة 1611، وأهل مرسية سنة 1614. ومن العسير أن نعلم عدد المهاجرين الذي يقدّره البعض بنصف مليون. وقد كان هذا الانجلاء سببا في انحطاط إسبانيا الفلاحي والصناعي وانتقاض عدد سكانها(25). وانتقل أهل الأندلس إلى المغرب الأقصى والجزائر وتونس وطرابلس حسبما هو

---

(25) انظر : جمال الدين (عبد الله محمد) : طرد المسلمين من الأندلس/ مراحله، آثاره و نتائجه.– في : الأندلس... المرجع المذكور، ق 2، ص 107 – 138.

(26) يشير إلى دراسة جورج مارسي : "تستور وجامعها الكبير" التي عربها س.م. زبيس في مجلة الثريا، 1945 – 1946. وقد أعيد نشرها مرّات أخرى. وعن الهجرة الأخيرة راجع : الحمروني (أ.) : الموريسكيون... المرجع المذكور؛ زبيس وجماعته : بحوث عن الأندلسيين في تونس.– المعهد القومي للآثار والفنون : تونس 1983.

De Epalza, Petit : Etudes... Morisques. op.cit.

مبسوط في دراسة أصدرتها هذه المجلة في أعداد أخرى(26).

-الحاج المنزوني :

في مثل هذه الظروف ذهب الحاج المنزوني إلى الحجّ. وقد ألّف 79 قصيدة جعلها « رحلة » له. وكان تأليفها بالأعجمية وبحروف عربية.[نموذج بالأعجمية غير واضح]

والآن فلنعرّب لك قسم هذه الرحلة المتعلّق بالمملكة التونسية حتى يكون ذلك وثيقة أخرى تضاف إلى الوثائق التاريخية التونسية المستخرجة من « رحلات » أهل الأندلس مثل رحلات العبدري وخالد البلوي وعبد الباسط(27) ممّا نشر البعض منه بهذه المجلة في أعدادها الماضية (28).

-وصف تونس إلى برقة :

نترجم هاهنا ما كتبه الحاج منزون باللغة الإسبانية الأعجمية وبحروف عربية عن رحلته إلى الحج. قال :

« إذا كنت ذهبت بمحض اختياري
واصطحبت عائلتي
فلكي أذهب إلى بلاد العرب
وأؤدّي الواجب المفروض
وأقوم بمناسك الحج
الذي يشفي من كل علة،
فطوبى لمن حج.
ووصلت مدينة بلنسية

---

(27) هو عبد الباسط بن خليل الملطي مؤلف " الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم". طبع منه روبار برنشفيك القسم الخاص بالمغرب ونقله إلى الفرنسية في :

Deux récits de voyage inédits en Afrique du Nord.- Paris 1936.

(28) كان مرور الحاج المنزوني بتونس على عهد عثمان داي الذي ولي خطة داي سنة 1007 هـ/1598م وتوفي سنة 1019هـ/1610م. وفي أيامه كانت هجرة الأندلس (انظر:ابن أبي دينار: المؤنس في أخبار إفريقية وتونس.—تحـ.محمد شمام،تونس1967،ص204).

دون أن أتأخر،
وبذلت وسعي في الإسراع
وقضيت ما احتاج إليه من شؤون السفر
ودفعت إلى المكّاس المغاريم
وإلى صاحب السفينة المعاليم.
ووصلت مدينة تونس.
وهي مدينة فيها ستون ألف دار.
مدينة نالت الجمال والبهاء.
مدينة حازت الخصب والثراء
والهمة القعساء والشرف الأعلى
ممّا لا يمكن أن يستقصى.
هي مدينة جميلة جدّاً
لمن شاء أن يرتاح من العناء.
أمّا من كان مشغول البال
فليس له إلى الراحة من سبيل.
وقد تفاوضنا فيما بيننا
أن نخرج لنبيت خارج الربض (29).
وفي اليوم الثاني من الميلاد
خرجنا نقطع تلك السهول والأودية والمروج
ونسافر تارة برّاً و تارة بحرا.
نمرّ بالقرى والمدن
أو نمخر عباب البحر المدلهم
إلى أن وصلنا جربة وهي جزيرة كثيرة الاخضرار.

---

(29) لعل المقصود بـ «الربض» هو ربض باب السويقة. فحاج منزون وعائلته قد أرادوا الخروج إلى باب « حوانيت العلوج». وهي منازل قد بناها الحفصيون خاصةّ بالإسبان الذين كانوا أصهارهم أو من رجال جيشهم. وكان هؤلاء العلوج بين النصرانية والإسلام. ومنهم من أسلم فعلا وحسن إسلامه. والحاج منزون الذي ربما لم يكن يحسن العربية أو الذي خشي أن يستراب أمر عجمته من التونسيين يكون قد آثر أن يبيت بحوانيت العلوج، والله أعلم.

ذهبنا من تونس إلى الحمّامات
ومن الحمّامات إلى هرقلة
وسوسة ثم المنستير
إلى أن بلغنا المهديّة.
وركبنا من المهدية البحر
وارتحلنا طيلة ثلاثة أيام
دون أن نأكل شيئا
حتى ظننا أن القدر قد قضى بهلاكنا.
عندما وصلنا صفاقس
وقد بلغ منا الجوع مبلغا عظيما
وأتعبنا البحر غاية التعب
وخشينا سوء المنقلب
واشتدت آلامنا وأوجاعنا
لم نجد لقمة من الخبز
لا احتسابا لوجه الله ولامقابل دينار.
وقد اشتدّ أسانا وعظمت بلوانا.
وانتشرنا في المدينة نخبر عمّا أصابنا ودهانا
فوجدنا أحد رجال غابة الزيتون
وقد كانت له قطعان كثيرة
فباعنا خروفا بسبعة ناصرية.
وضعناه في إناء
بدون ماء ولا أفاويه
ولا مرق ولا كوامخ.
وطبخناه هكذا أبسط طبخ
وأكلناه بدون خبز.
ومن صفاقس ذهبنا إلى المحرس.

وهي حقّا قرية طيّبة.
وهناك أرست بنا السفينة.
وقضينا ليلة بالميناء،
ثم مخرنا البحر من جديد
فبلغنا جزيرة جربة.
هي جزيرة جميلة جداّ
بها الكثير من الأشجار المثمرة
من تفاح (30)وخوخ وإجّاص.
وتين وكروم ونخيل.
ثمارها طيّبة الطعم.
فجربة جزيرة جميلة جداّ
رغم أنّها كلها رمال.
وذهبنا بسرور نحن معشر الحجيج
من جزيرة جربة ومعنا تجّار
كثيرون وقصدنا الإسكندرية....» إلخ.

وخاتمة الرحلة هي القصيدة التاسعة والسبعون التي تحدث فيها الحاج المنزوني عن عودته من الحج إذ قال :

«ثم ذهبنا إلى جبل طور سينا
حيث كلّم الله موسى عليه السلام
وإذا غلطت فيما قلت فإنّ الله
غفور رحيم....».

في سنة 1803م أسلم الإسباني دون دومينقو باديا، وسمّي علي بك العباسي، وحجّ وألّف رحلة بالإسبانية ترجمت إلى الفرنسية ونشرت بمدينة بلنسية سنة 1836م. وهي من النفاسة بمكان.

---

(30) كانت جربة مشهورة بتفاحها حسبما ذكره التجاني في رحلته. ثم لمّا هجم عليها النرمان بعد افتكاكهم صقلية من يد التونسيين أخذوا نماذج من ذلك التفاح وغرسوها بنورمانديا. وهذا سبب وفرة تفاحها حسبما ذكر الدكتور نيكول.

مدينة كرباكة (*)

ما لمدينة كاراباكة الأندلسية الجميلة الخلابة الفاتنة قد فارقت الابتسامة ثغرها، وزايلت الأعطار زهرها، وغادر السرور عقرها ؟ إنّها حزينة على ولدها عبد الرزاق كاراباكة الذي قضى شرخ شبابه يغنّي ابتسامة الثغور وأعطار الزهور وما توحي به الأنهار من أسباب السرور.

ما لمدينة كاراباكة الأندلسية الجميلة الخلابة الفاتنة قد تلبّدت بالغيوم سماؤها وجفّ في الأنهار ماؤها وزال عن الأشجار والأزهار رواؤها وامتزج بالأكدار صفاؤها ؟ إنّها حزينة على ولدها عبد الرزاق كاراباكة الذي قضى شرخ شبابه يغنّي السماء وغيومها والأنهار ومياهها المتدفقة والأشجار وثمارها وظلالها وأطيارها وأفنانها. ويغنّي الأزهار وأعطارها وألوانها والأيام وصفاءها و الليالي وأكدارها. أصل شاعرنا المرحوم الفقيد من مدينة كاراباكة بالأندلس. وكان العرب يسمّون مدينة كاراباكة بالقاف لا بالكاف فيقولون قارا باقة. وقد وصف مدينة كاراباكة – أو قاراباقة– الجغرافي العربي الكبير ياقوت الحموي فقال :

« قاراباقة حصن شمال مدينة مرسية بالأندلس، ينسب إليه أبو الحسن العباس القاراباقي، شاعر مجيد» (1).

وإذن فكاراباكة أو قاراباقة مدينة بالأندلس واقعة في الشمال الغربي من مرسية على نهر كاراباكة المنسوب إليها وهو نهر ينصبّ في وادي شقّورة المنحدر إلى مرسية.ومدينة كاراباكة في منطقة ثرية– تحيط بها على ضفتّي النهر – وإلى ما وراء ضفتّيه غروس الزياتين والكروم

(*)...نشر في الثريا، ع4، أفريل 1945، ص 9.

(1)قرباقة بالتحريك والباء الموحدة، و بعد الألف قاف: حصن شمالي مرسية، ينسب إليه أبو الحسن العباس القرباقي شاعر مجيد (ياقوت: معجم البلدان.–تحـ. فريد عبد العزيز الجندي، دار الكتب العلمية،بيروت 1990،ج4،ص363)

والتوت والخوخ والإجّاص.

وتهيمن على مدينة كاراباكة قلعة كبرى بناها ملوك بني طاهر الذين تولّوا على مرسيةوكاراباكة في الآن الواحد، وتسمّى قلعة شنتاقرض [Santa Cruz] ، ولهذا تسمّى كاراباكة أيضا شنتاقرض دو كاراباكة.

كانت شمس الصباح تشرق على قلعة شنتاقرض كاراباكة فتذهّب شرفاتها وصروحها، وتغرب شمس المساء حمراء أرجوانية فتمتد ظلال القلعة على ديار المدينة كجناح من الديباج القاتم اللون. وحول هذه القلعة أديرة كثيرة فيها رهبان وراهبات، حتّى في العصر الإسلامي نفسه الذي اشتهر بالتسامح أكثر من كلّ العصور. وطالما ذهب شعراء كاراباكة إلى الحانات القريبة من الأديرة يتناولون الخمور المعتّقة ويتغنّون بالخمور المعتّقة كما يتغنّون بصاحبات الحانات البارعات في جمالهنّ والنّابغات في رقصهنّ والفاتنات بسحرهنّ.

وحول المدينة – في أرباضها القريبة وبين غروس الزياتين الظليلة الهادئة – كانت معامل الكاغذ التي أنشأها العرب عندما جلبوا هذه الصناعة من الصين و نشروها بالأندلس ولاسيما بمدينتي شاطبة و كاراباكة. وفي أرباض كاراباكة معامل الصبغ أيضا. فكنت ترى مروج المدينة وحقولها مزدانة بألوان الأزهار من الشقيق الأحمر والأقحوان الأصفر والخبّاز البنفسجي و قد نشرت فوقها أنسجة القطن والكتّان والصوف والحرير بمختلف الألوان الصفراء والحمراء والخضراء والزرقاء بين معصفر ومقصّب ومخطّط وموشّى.

في هذه المدينة الجميلة نشأت عائلة كاراباكة في القرن الرابع الهجري. وهي عائلة تمتّ إلى الملك المعتمد بن عبّاد بحبل من النسب. ولهذا فاسمها الكامل « كاراباكة العبادي الشريف». وقد شاركت هذه العائلة المعتمد بن عبّاد في محنته عندما أنزله يوسف بن تاشفين عن العرش وساقه أسيرا إلى مدينة أغمات بالمغرب الأقصى. ثمّ انتقلت العائلة إلى تونس و تعاطت صناعة الشاشية التي هي رمز البلديين التونسيين.

أشرقت الشمس على مدينة كاراباكة بالأندلس في شهر مارس، فكانت أشعتّها محتشمة خجولة. وكانت خطواتها في كبد السماء بطيئة حائرة. فلم تصبغ شرفات القلعة بماء الذهب، ولم تحوّل قراميد المدينة إلى قطع من الزبرجد، ولم تطل النهر بمسحة من الفضّة، فبقي العصفور في وكره واجما،وبقي الزهر في أكمامه نائما. لقد نعي إلى مدينة كاراباكة وفاة ابنها كاراباكة،فسكت الطير الذي كان يغنّي شاعرنا بألحانه، وذبل الزهر الذي كان يغنّي شاعرنا أعطاره وأشكاله وألوانه، وجمد النهر الذي كان يغنّي شاعرنا مسرّاته وأحزانه ومباهجه وأشجانه.

ذكريات عن صديق (*)

أذكر جيدّا– على بعد المسافة من الزمان– أننا كنّا جماعة من الطلبة بالمدرسة الصادقيّة نتطلع بمزيد الشغف إلى أخبار شاعر شاب كانت تخترق سمعته جدران مدرستنا، وتتخطّى الرقابة المضروبة على الدراسات العربية بمعهدنا العربي. فكنّا نتلقّف هذه الأخبار بسرعة البرق، و نهمس بها في آذان بعضنا بعضا في أركان باحة المدرسة أو في الزوايا البعيدة من تلك الباحة أوتحت الشجرة الظليلة المطلّة على الشارع الخارجي.كان هذا في خلال سنة 1918. وكان اهتمام جماعتنا من الناحية الأدبية أن نطالع صحيفة من المنفلوطي أو أن نقرأ و «نحاول» أن نفهم قطعة من قطع ذلك الشاعر الشاب. فمن هو هذا الشاعر الذي كان «الجمهور النيّر» من طلبة الصّادقية يستطلع أخباره و يتعقّب آثاره ؟ هو عبد الرزّاق كرباكة. ولعلّ أعظم أو على الأقل من أعظم ما استفزّ إعجابنا به غرابة اسمه. كنّا إذا لاقى أحدنا الآخر في الصباح أو في المساء يقول له : وكرباكة ؟ هل بلغك شيء عن شاعرنا الوطني كرباكة ؟ هل ظفرت له بقطعة جديدة ؟ هل سمعت عنه خبرا جديدا ؟ وبالحريّ هل رأيته ؟ هكذا نشأ الشباب المدرسي الصادقي في أواخر الحرب الماضية على حبّ شاعره الوطني عبد الرزاق كرباكة. وهكذا تعرفت لأوّل مرّة بالشاعر الوطني عبد الرزاق كرباكة.

أقول تعرّفت، وفي هذه العبارة تجوز لأنّي لم أتعرف بكرباكة ذاتيّا وعن كثب إلا في خلال سنة 1920. يومئذ كنّا جماعة من قدماء الصادقيين نرسل بمقالاتنا الفتيّة المحتشمة الخجولة إلى جريدة «الوزير» الغرّاء. وكنّا نجتمع بسوق السرائرية مع بعضنا لنقرأ لبعضنا فصولنا، وعلى الخصوص لنتجنّى على بعضنا في غلطات فصولنا. وكان يجلس إلى جانبنا متربّعا على كرسيّ مرتفع قليلا السيّد عبد

(*) كلمته في حفل تأبين عبد الرزاق كرباكة بصفاقس، منشورة في الثريّا، ع4، أفريل 1945، ص 25–27.

الرزاق كرباكة. ينتقل في تربّعه من شقّ إلى شقّ ويرفع شاشيته ويسويّها بين نصف الجملة و نصف الجملة. ويصدر أحكامه التي نقبل بها دون مراجعة وعلى الخصوص دون نقمة. وإذا شاءت الصدف أن تكون مقالة أحدنا منشورة إلى جانب قصيد من كرباكة في جريدة الوزير فتلك تكون مادة مفاخرة لا تنتهي إذا انتهت إلاّ ببروز العدد التالي. أخذت شخصيّة كرباكة الشعرية والمعنوية والمادية ترتسم في ذهني يوما بعد يوم بالزيادة. وأخذت أحلّل هذه الشخصيّات الثلاث المتضاربة أو المتشاكة أو المتطابقة بحسب الظروف والأحوال. أخذت أحللّها في خلال دراساتي للأدب الفرنسي. وأخذت أتطلّب شبيها أو شبيهين لكرباكة بين مجموعة الأدباء الفرنسيين من ناثرين وشعراء. ولكنّ شخصية كرباكة كانت أكثر تنقلّا وتحولّا وتغيرّا و تبدلّا على وجه الدهر من أن تستقر على حالة بينّة واضحة أو أن تأخذ لها مسلكا جليّا أو تتبوأ مقعدا نهائيّا يمكن بها إيجاد مقابلة أو موازنة. فهو تارة الشاعر الفحل الجزل فأميل إلى تشبيهه بالشعراء الكلاسيكيين، وتارة يكون شاعرا بوهيميّا فأميل إلى تشبيهه بفرنسوا فيلون، وتارة يتحدّث عن الغرام من خلال أوصاف الطبيعة الغنائية فإذا به رومنطيقي من الرومنطيقيين.

في دكّان ضيق من زقاق المدرسة السليمانية كانت تجتمع نخبة الكتّاب والشعراء من الشباب الزيتوني والمدرسي ضمن هيئة الجامعة الزيتونية. وكنت كثير التردّد على هذا الدكّان. وكان يختلف إليه أيضا السيد عبد الرزاق كرباكة فيشتبك في مجادلة أدبية مع السيد محمد الحبيب أو السيد زين العابدين السنوسي أو السيد أحمد الدرعي أو السيد الطاهر الحدّاد أو السيد أحمد توفيق المدني. ويعتزّ كلّ واحد برأيه، ويصرّ كرباكة على رأيه، وإذا بالخصومة تتّسع وإذا بها تستغرق شطرا صالحا من كتّاب العربية ومن فطاحل شعراء الأدب العربي. وإذا كنت أستنكر الخصومة فإنّي كنت أستحسن تفتّق ذهن الشباب وشحذ

قريحته بهذا الأسلوب الدراسي العنيف الذي لا بدّ أن يؤول إلى مراجعة وإلى تبحرّ، لا في موضوع واحد بل في مواضيع. وبالفعل، يرجع كرباكة من الغد وقد قضى ليلته يطالع أمّهات الكتب فيصبّ على رؤوسنا جميعا نصوصا كثيرة العدد وافرة المقدار متدفّقة كالسيل. ولحينما ينتهي من هذا «القذف» يرفع برنسه على شطر كتفه ويجرّ ذيله على بقايا لفائف الدخان المبعثرة في النادي ويخرج نصف مغاضب ونصف منتصر.

من سنة 1926 إلى سنة 1936 كنت أجتمع مع السيد عبد الرزاق كرباكة في نادي «مطبعة العرب» الذي كان يضمّ ثلاثة أرباع الشباب المثقّف التونسي. وكان كرباكة يقضي بياض يومه في إلقاء دروس على تلامذة المدرسة القرآنية وبين العمل بإدارة المدينة وبين الجلوس في الكتبيّة أو في مكتب «الثقافة» كما كانت تلقّب به مطبعة العرب. فلا تندر لديّ مناسبات الاجتماع به، إن شئت في المدرسة القرآنية عند ما كنت ألقي بها دروسا أو بالكتبيّة التي لا بدّ من الوقوف بها عند الزوال أو بمكتب الثقافة قبل الظهر أو عند المساء يدخل كرباكة فرحا مرحا أو عبوسا مكفهراً، مملوءا حيويّة مفعما سرورا بالحياة متمتّعا بملاذ الحياة أو مملوءا تشاؤما يرى كلّ الأشياء حوله مرتدية ثوبا من السواد قاتما، مادحا الشعر أو لاعنا الشعر،باعثا للنشاط أو مثبّطا للعزائم،يبني مشاريع كبرى جبّارة أو يهدم مشاريع كبرى جبّارة، يعزم العزيمة الأكيدة الملحّة وينقض ما أبرم في أقلّ من ارتداد طرفك إليك.

– هل صنعت شيئا جديدا ؟ هل نظمت قصيدا ؟

– لا.. أنا عدلت عن الشعر. أنا اشتغل ببيع الصوف والخرفان، وأنا ذاهب إلى القيروان غدا لأشتغل بمكاسبنا المهملة، المهملة من أجل الشعر.

ومن الغد... كيف ؟ أنت هنا ؟ ألم تذهب إلى القيروان ؟ ألست تبيع الصوف والخرفان ؟

–الصوف والخرفان ! أنا شاعر. خلقت شاعرا وسأبقى شاعرا على وجه الدهر.

– هل توصي بشيء إلى صديقنا الحليوي أو صديقنا الفائز ؟ إنّني سأراهما أو على الأقلّ سأحاول أن أراهما.

ومن الغد نلاقي صديقنا كرباكة، لا في شرابات القيروان مع النعاج والخرفان ولا في مدينة القيروان مع الأدباء والشعراء، ولكن في رتل رادس حيث نتواعد دون يقين قويّ أن نتلاقى مساء بمقهى البلدة...

في مجمع حافل بمكتب « الثقافة» دخل كرباكة دخلة عنف و جلس على الكرسيّ وقال مقاطعا مباغتا مهاجما : من هو أمير الشعراء ؟...وفي لهجته ما يفيد أنّ جوابه حاضر وأنّه مخالف لكلّ الأجوبة التي قد تصدر منّا. ثمّ واصل... نعم، أمير الشعراء. أنا لا أرضى بإمارة السيد الشاذلي خزنه دار. يا زين: هل تريد أن نعمل استفتاء. هات ورقة. اكتب. لا، بل دعني اكتب. هل تنشر ما أكتب ؟ وبعد أيّام وقع الاستفتاء لفائدة صديقنا كرباكة طبعا. وبعد أيّام سمّي صديقنا كرباكة أمير الشعراء.

عرفت كرباكة صحافيّا أيضا، أي محرّرا متى شاء يكون محرّرا في مناسبات واندفاعات. وقد تولّى تحرير جريدة « المضحك» مدّة، ثمّ نشر مقالات متتابعة بجريدة «الزمان» تحت عنوان « أحاديث الثلاثاء» على غرار « أحاديث الأربعاء » للدكتور طه حسين. وتولّى تحرير جريدة «الزمان» مدّة. وقد كان نثره قويّ المتن بمقدار ما كان لاذعا. وكان نقده زاريا بقدر ما كان هو نفسه خفيف الظلّ. عرفت كرباكة بالإذاعة التونسية، يوم كنت أترأّس حظوظ هذه الإذاعة، وقد قاطع كرباكة الإذاعة في الأوّل. لماذا قاطع الإذاعة في الأوّل ؟ ثمّ أقبل عليها بتفرّغ واندفاع. لماذا أقبل عليها بتفرّغ واندفاع ؟ وفي فترة من الفترات كان يقضي معظم الوقت معي في المكتب أو خارج المكتب، يحرّر نصوص إذاعته ويفتّش في الكتب عن المواضيع الطيبة وينظم الأزجال للمغنّين والمغنّيات ويؤلّف الروايات الإذاعية، ويترأّس تمارين هذه الإذاعات،

وينظّم الحفلات ويرضي الغاضبين والغاضبات، ويكون رسول خير لدى النافرين والنافرات. ثمّ يذهب لشأن من هذه الشؤون فلا نعود نراه لمدّة أشهر. أقول لكم إنّ كرباكة رجل عمل مقتدر على العمل. فهو إن شاء كاتب، وإن شاء محاضر، وإن شاء شاعر، وإن شاء زجّال، وإن شاء مسرحي. وأقول لكم إنّ كرباكة رجل عمل مقتدر على العمل، ونابغ في العمل المقتدر عليه، يغار على الكفاءة التونسية، ويرى الكفاءة التونسية، تفوق او على الأقلّ تساوي الكفاءة الشرقية. وإذا كنت أختلف وإيّاه في أشياء فإنّي وإيّاه على اتّفاق تامّ في هذه النقطة الدقيقة التي لها أثرها ولها خطرها.

ولكن... ولكن كرباكة لا يواصل العمل، ولا يتّخذ من نبوغه ومن اندفاعه استرسالا متتابع الحلقات محكم الصفحات، فكرباكة لو شاء لترك لنا ديوانا في عشرة مجلّدات. وكرباكة لو شاء لترك لنا مائة رواية، وكرباكة لو شاء لألقى خمسمائة محاضرة، وكرباكة لو شاء لترأّس الكثير من الجمعيّات. وهذه هي نقطة الضعف في النبوغ التونسي: نبوغ ولا مواصلة، وكفاءة دون استرسال، وعبقريّة في الاندفاع لا في متابعة الفكرة من الأول إلى النهاية لكنّ شخصيّة كرباكة ملأت نوادي الأدب التونسي وأوساط الثقافة التونسيّة وعالم الموسيقى التونسية وميدان التمثيل التونسي مدّة ربع قرن. وأنت تجد إصبع كرباكة في كلّ جمعية تتأسّس وفي كلّ ناد يفتح وفي كلّ صحيفة تصدر وفي كلّ حركة تظهر وفي كلّ رواية تمثّل وفي كلّ حفلة تنظّم. فما هي هذه الشخصيّة القويّة المملوءة من الحيويّة ؟ هي شخصيّة أندلسيّة الأصل تونسيّة الصّوغ، فعائلة كرباكة قد هاجرت من بلدة كاراباكة بالأندلس إلى تونس سنة 1017 هجريّة [1609م] على عهد عثمان داي في جملة العائلات التي انتقلت نهائيّاً إلى تونس. وهنا تعاطت صناعة الشاشيّة، وهي صناعة أندلسيّة بالأصالة، وصارت ضمن العائلات البلديّة بالعاصمة. فإذا كان كرباكة شاعرا رقيق

العاطفة، رقيق الوصف، غنائي الأسلوب، فهذا من آثار [الروح] الأندلسيّة المركوزة في نفسه. وإذا كان كرباكة زجّالا نابغا ووشّاحا مبدعا فهذا من آثار [الروح] الأندلسية المركوزة في نفسه. وإذا كان كرباكة مسرحيّا يؤلّف «ولاّدة وابن زيدون» فلأنّ ولاّدة مثال الطريقة الأدبيّة والشاعرة الإندلسيّة، ولأنّ ابن زيدون هو مثال الأديب الظريف والشاعر الأندلسي، ولأنّ غرامهما هو مثال الغرام الأندلسي الراقي. وإذا كان كرباكة أنيقا في ملبسه متظرّفا في بزّته رقيق الحاشية في حديثه فذلك أيضا من آثار [الروح] الأندلسيّة المركوزة في نفسه. فكرباكة أندلسيّ متتونس مثل ابن خلدون وابن سعيد وابن الأبّار وابن خلوف والوزير السرّاج وماضور وقابادو، وفي صفّ هؤلاء سيحشره التاريخ.

الفهـــرس

الجمهورية التونسية
وزارة الثقافة
المركز الوطني للاتصال الثقافي

مغاربيات الكعاك

جمع وتحقيق
أحمد الحمروني

سلسلة "ذاكرة وإبداع"

هذا الكتاب

هذه "مغاربيات" الكعاك (1903/10/5 - 1976/07/15) دون غيرها من أعماله المتعدّدة والمتنوّعة ممّا يحتاج إلى أسفار ضخمة، بل هذه مختارات من مغاربيّاته بقدر ما أمكن جمعه. وهي وحدها كافية للدّلالة على مدى وعيه - هو وجيله - من أبناء تونس، مثقفين ومناضلين، أمثال ح.ح. عبد الوهاب وس.م. زبيس والفاضل بن عاشور، بالبعد المغاربي لحضارتنا وهويّتنا وتحمّسه - هو وإيّاهم - لتوحيد الجهود في مختلف المجالات، بدءا بتحرير الأوطان والعقول، لبناء صرح المغرب العربي الكبير، العريق في الحضارة والمؤتمن على تراث صقليّة ومالطة والأندلس.

أحمد الحمروني